مؤسسها
أحمد عارف الزين

العرفان

مجلة علمية أدبية سياسية شهرية

رئيس التحرير المسؤول
نزار الزين

تلفون البيت : ٧٢٠٦٦٤ سنتها ١٠ اشهر بألف صفحة تلفون المطبعة : ٧٢٠١٠٥

١ شـوال سنة ١٣٨٧ كانون الثاني ١٩٦٨

لغز أبي العلاء

تأليف

محمد يحيى الهاشمي

دكتور في الفلسفة والعلوم ، رئيس جمعية الابحاث العلمية (حلب) احد اساتذة جامعة برلين والجامعة السورية سابقا ، استاذ زائر في الجامعة الهندسية شتوتغارت ، عضو المؤتمرات العلمية العربية والالمانية والدولية .

حلب ١٩٦٨

الباعث على هذه الدراسة

في عام ١٩٤٤ قمت ببعض الدراسات عن ابي العلاء المعري بمناسبة الذكرى الالفية لهذا الشاعر الحكيم ، وقد تناول موضوعي في ذلك التطور الفكري لابي العلاء و « بين المعرى وكانت » و « ابو العلاء المفكر الحر » و « رسالة المعري الى الجيل الحاضر » بصورة مختصرة ولكن المواضيع التي درستها ، زادت على مدى الايام ، فقسم منها قد نشر في المجلات ، فبين بوذا وابي العلاء قد نشر في مجلة ثقافة الهند (دلهي الجديدة ، اكتوبر ١٩٦٢) ، والنزعة الصوفية لابي العلاء نشر في مجلة الحديث في حلب (كانون ثاني شباط آذار نيسان ١٩٤٥) ، وعبقرية ابي العلاء نشر في اللواء الاسبوعي في حلب ١٩٤٤ (عدد ٥١٧) • وقسم منها لم ينشر بعد مثل « المعارف الطبيعية عند ابي العلاء » و « مكانة موسيقى المعري » وهي تعليق على نزعته الصوفية ، وهذه المواضيع طرأت على خاطري اثناء الدراسة• حتى ان المواضيع التي سبق نشرها قد عدلت او زيد عليها افكار جديدة •

اما الباعث على مثل هذه الدراسة فهو البحث عن العلوم الطبيعية في المصادر العربية وما قدمته من ابحاث الى المؤتمرات العربية والدولية عن هذه المواضيع ، وذلك يضطرني في كثير من الاحيان ارمي نظرة على المصادر الادبية التي وجدت بها الشيء الكثير ، ولم يتناول احد ابا العلاء في البحث عن المعارف الطبيعية الذي اسرده في هذه الدراسة ، وما تناولت هذا الموضوع في الدرس حتى ظهر لـــي مواضيع عديدة ، ولقد رأيت المصادر العلائية خير معوان على تفهم تلـك المعارف العربية في هذا الموضوع التي تكاد تكون اصيلة وتماسها مع المصادر الاخـرى تكاد تكون ضئيلة • ان مثل هذه الدراسة قادتني ايضا للاطلاع على بعض الامور الثانية من هذه الشخصية الفذة ، وخاصة لدى مقارنتها ببعض الشخصيـــات العالمية مثل الفيلسوف الالماني الشهير « كانت » الذي فحص مبادىء الغيبيات على ضوء العقل ، فوصل الى نتيجة متقاربة من النتيجة التي وصل اليها المعري • اذ وجد كليهما ان العقل غير كاف في ادراك الغيبيات ، فوقف الفيلسوف « كانت » عند هذا الحد من النتيجة السلبية ، ولكن المعري سعى للتوصل الى مقياس فوق

العقل معتمدا على الحدس الذي هو من جنس الغريزة الفطرية التي لا يسبر غورها. وقد وجدت ايضا نقاط تشابه بين كل من الحكيمين العظيمين: « بوذا » مؤسس الديانة البوذية في الهند والمعري ايضا ، ولا نعتقد بان هذا التوافق يعود الى المصادفة وتقارب الامزجة ، بل لا بد هنا من القول باقتباس المعري من حكيم الهند العظيم .

لم اتطرق في مثل هذه الدراسة الى نقد ابي العلاء للمجتمع ، فقد تناوله غيري واصبح معروفا عند جميع المشتغلين في تاريخ الادب العربي . اما اللغز الذي حاولت حله هو ذلك التناقض الذي نراه في حياة المعري في تفكيره ، فمن شك مقلق والحاد ظاهر ونكران للغيبيات ، الى يقين عميق وايمان صادق راسخ . ويتجلى لنا السر في هذا التناقض بالوقوف على مراحل حياته ، فالمعري ككل مفكر صادق عانى الازمات الفكرية ، وجاهد في سبيل ايمانه جهادا صادقا بنفسه غير معتمد على التقليد الاعمى الذي ينساق اليه البشر ، كما تنقاد السائمة دون فكر وروية ، بل هو يريد اختبار التجربة النفسية بذاته ، فهو في هذا الصدد اشبه بديكارت والغزالي اللذين نرى تاريخ حياتهما الفكرية عند الاول في «التأملات» وعند الثاني في « المنقذ من الضلال ». بيد اننا لا نرى هذا التسلسل البارز عند كليهما والغامض في حياة المعري الفكرية ، فيقتضي الجهد لابراز ذلك الى نور الوجود . والغزالي اذا اعتزل الناس في دور شكه المبرح ، وعده حالة مرضية دعا الله الى شفائه منه وكان هذا الدور من حياته عقيما من الوجهة الفكرية والعقلية ، فان المعري كان اخصب انتاجا في هذا الدور الذي يمكننا تسميته بدور القلق الفكري ، اذ كان صريحا في التعبير عنه الى ابعد حدود الصراحة ، بينما عبر الغزالي عن قلق انتابه واكتفى بالتلميح الى ذلك دون التصريح ، ودون ان يفصل كنه هذا القلق واجزائه المختلفة ، في حين نجد حرية التفكير وحرية التعبير عن الرأي والجهر عن الخواطر قد رافقت المعري من مهده الى لحده ، وهي التي سببت الحيرة في امره . لما في حياته الفكرية من آراء متناقضة دوخت المشتغلين في تاريخ الادب .

وهكذا فمن الكيمياء والعلوم الطبيعية الى تاريخها ، انتقلت الى تاريخ

الادب ، والذي ساقني ايضا الى الاشتغال في الامور الفكرية مبتعدا بذلك عن اختصاصي ، العراقيل التي وضعت امامي في المختبر كما سبق لي وبينت ذلك في الكتاب الذي نشرته في بغداد عن « الامام الصادق ملهم الكيمياء » عام ١٩٥٠ ، واعدت نشره في حلب في عام ١٩٥٩ ، والذي يجعلني في حيرة من امري ان الغرب مع كثرة المشتغلين لديه في العلوم ويسهد اهم السبل للاشتغال بذلك اشتغالا صادقا دون هزل وتمثيل ، وبذلك حصلوا على قصب السبق في التسابق العالمي • ولقد سبق لي وبينت ذلك في محاضرة كنت القيتها في المكتبة الوطنية في حلب عام ١٩٥٤ واعدت القاءها على مدرج الجامعة اللبنانية في بيروت في ربيع عام ١٩٥٦ « لماذا تخلف العرب عن الكشوف العلمية ؟ » • وفي نيتي نشرها مع مواضيع اخرى تتعلق بماضي العرب وحاضرهم ومستقبلهم في العلم عند سنوح الفرصة • اذ من الضروري تفهيم الرأي العام العربي اننا قصرنا ولا نزال نقصر في سبيل العلوم العصرية • والخطر جاثم ان تلحق بنا بل تتقدم علينا الشعوب المتخلفة عنا ، فاننا لا نزال نرقد في احلامنا الماضية ، مهملين الحاضر وما وصلت اليه الامم المتمدنة من الرقي العلمي الذي يكاد يسبق الخيال ، لان العالم يسير بسرعة البرق، اذ نسمع عن مدن في اواسط افريقيا انتقلت من الوحشية البربرية الى المدنية الحاضرة ، فماذا يكون مصيرنا لو بقيت تلك الشعوب بالتقدم وتابعنا الوقوف ؟•

ان المروءة تقضي علينا ان نتعقل هذا الامر تعقلا صادقا ، ونسعى لحله سعيا حقيقيا بكل ما يتطلب من بذل القوى والتضحيات • ان اول شرط من شروط السير في الطريق العلمي الصحيح ، التحرر الفكري والقضاء على كل ما يكبل حرية الفكر والبحث العلمي المجرد من قيود • من اجل ذلك كانت دراسة المعري الاعمى البصر والمتفتح البصيرة خير معوان لنا للسير في هذا الطريق ، لان التحري العلمي يقتضي القضاء على الخرافات التي تكبل العقل وعلى ذلك مبدأ السلطة والشعور بالاستقلال الذاتي ، فان ما يراه اكبر عالم في الكون يمكن ان يراه اي انسان في العالم لو تابع نفس الطريق وقام بنفس التحري • فالحقيقة العلمية ليست كذلك لانها مدعومة بقول شخصية كبيرة ، بل لان بمستطاع أي فرد من الافراد البرهان عليها لو تابع نفس الطريق وقام بذات الخبرة • والتحرر

الفكري لا يوصلنا الى هذا الحد فحسب ، بل يكون اكبر معوان لنا للكشف عن امور جديدة كان عنها الاقدمون بغفلة تامة ، لان العلم دوما بتجدد دائم ، وتحري الحقيقة المجردة دون قيد ولا شرط هو الباعث على التقدم . فمن هذه الوجهة فالمعري احد المحررين للفكر البشري ، والداعين للتأمل الذاتي والخبرة النفسية الشخصية التي هي اساس كل تقدم في الكون . من هذه الناحية علينا ان نفهم المعري ونتخذه اماما لنا في وثبتنا الفكرية الحاضرة ، على ان لا نتبعه اتباعا اعمى ، بل علي ان نفهمه فهما صحيحا بروية وبصيرة ونقد سليم ، وان دراستي لمثل هذه الشخصية الفذة في النواحي التي نوهت عنها هي على ضوء ما بينته .

لا انكر القارىء الكريم بان المعري هو احد الشخصيات الذين اخذوا بيدي للمضي في هذه الحياة الصعبة وكان خير معوان لي في تحمل الكفاح الفكري ، رافع الرأس موفور العزة والكرامة . واني وان رأيت مكايد من الخلف تكاد تقضي علي (كما سبق وبينت ذلك في كتابي عن الامام الصادق ملهم الكيمياء) رأيت عونا اديبا من السلف امثال المعري والكندي وجابر بن حيان وابن الهيثم وغيرهم . وان املي قوي جدا ان اقدم للنشء الجديد هذه الدراسة المتواضعة لتكون لهم خير معوان للتخلص من الازمات الروحية الصعبة والقلق الفكري لتشد من عزائمهم في تكوين شخصياتهم ، لا كما نحب ونرضى ، بل كما يحبون ويرضون ،ولكي يسيروا في الطريق الذي خلقوا له في جيلهم الحاضر الوثاب المغامر البصير ، والامور بالعواقب ، وليزيلوا عنا عار التخلف عن الامم الراقية بالتحرر الفكري والتحري العلمي الصادق ، فما من سلطة على المرء الا سلطة الحق كالشمس في رابعة النهار التي تبدد الظلمات وتقضي على الاوهام والخرافات ، فالمعري هو احد الابطال العالميين الذين يقودوننا الى شمس الفكر والحرية .

التطور الفكري لأبي العلاء

بين الفكر البشري وبين كل كائن من الكائنات الحية تشابه عظيم • وكيف لا يكون هذا التشابه والفكر هو كائن حي ايضا ينطبق عليه ما ينطبق على قانون الحياة ، فيه ولادةوطفولة وشباب فكهولة فشيخوخة فهرم فموت، ان نظام التطورفي العضويات يسود في تطور عالم الفكر ايضا ، وما الفكر الا من ثمرة الدماغ الذي هو عضو من الاعضاء الحية وان كان اشرفها واعظمها سموا ، فكما ان هناك مجرى خاص يسير عليه كل موجود يتمتع بالحياة ، كذلك لا مندوحة للفكر ، ذلك الكائن الحي من ان يسير ضمن مجرى لا يتعداه •

ونحن نرى ولا شك مراحل مختلفة يقطعها الكائن المتصف بالحياة كما يقطعها الفكر ، وهل هو الا من متعلقات الحياة وجزء منها يسري عليه جميع تبدلاتها ؟ • قد تكون مراحل الحياة ظاهرة في اشكالها ، متباينة عن بعضها ، بحيث يختلف الكائن في شكله الخارجي عما كان كل الاختلاف ، او يكون اختلاف المراحل غير ظاهر • نجد الاختلاف الظاهري في الحشرات ، فالبيضة التي انفصلت عن امها تختلف اختلافا كليا عن اليرقة التي اشتقت منها ، وكذلك عن الشفيرة التي آلت اليها مراحل تكونها الى ان تصبح اخيرا حشرة كاملة مختلفة كذلك ايضا عما كانت عليه من قبل •

اننا لا نرى هذا الاختلاف الكلي في الحيوانات الفقرية • بيد انها نظرا للتتبع العصري فقد قطعت مراحلها وهي في بطن امها ، حتى ان علماء الحيوان الحديثين يعتقدون ان الادوار التي يمر بها كائن من هذا القبيل قد اداه وهو في ظلمات الرحم ، قبل ان يخرج الى نور الوجود ، وهناك امثال ارنست هيكل من يعتقد بضرورة الاعادة ، ويعني بذلك ان كل حيوان منذ اول نشأته الى ان يكمل نموه يعيد تاريخ الادوار التي مر عليها جنسه مبتدئا بالخلية الواحدة ، مارا باسلافه الحيوانات الى ان يصل تطوره النهائي الى ما هو موجود عليه الآن ، قاطعا بذلك تلك المراحل التي قطعها جنسه بسرعة فائقة •

لا ندري الى اية درجة من الدرجات يصح هذا القانون ، وعلى كل فلا مناص للجنين من التطور ليكمل نموه ، كما أقره العلم الحديث وكما نطق القرآن ايضا : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ... » .

ان الافكار كما سنبين ذلك في مقال عن ابي العلاء المفكر الحر لا تأتي فجأة بل لا بد لها من مصدر خاص استقت منه ، ولا تبقى تلك المصادر على الكيفية التي دخلت بها الفكر بل تتحول وينشأ منها شيء جديد . وعلى قدر قدرة هذا التحويل يكون عظم الشخصية في الابداع . ولا يكفي القيام بالبرهنة على هذا الخلق الجديد ، وانما لا مندوحة من تتبع المراحل التي يقطعها الفكر . وكما اننا نشاهد سهولة في بعض الاحيان في تتبع مراحل كائن حي وصعوبة في تتبع كائن آخر ، وكذلك الحال في امر الفكر البشري ، فمن السهولة درس الفلاسفة ذوي المناهج المعينة ، لاننا نقدر متابعة مراحل تطورهم . اما الحكماء من الشعراء كبصير المعرة الخلاق ، فمن الصعوبة التخطيط والتحديد للمراحل التي مر بها . وهذا على ما نرى لاحجام الدارسين من اقتحام هذا الباب على ان من المفيد القول بأن طه حسين في « تجديد ذكرى ابي العلاء » ، قد اشار الى تطور اسلوبه نثرا وشعرا اما عن تطوره الفكري فلم يتعرض له الا لماما . ان الصعوبة في هذا المجال ناجمة عن اختلاط افكار الشاعر ببعضها بعضا ، ولاعادته ذكريات قديمة مر عليها من قبل ، فمن الصعب على المدقق الباحث وضع هذه الافكار ضمن مراحل تطور خاصة ، فضلاعن ذلك فشاعرنا في كثير من الاحيان لا ينطق رأسا بل يشير ويرمز ، لذلك يتعذر التفريق بين المعنى المجازي الملغوز والمعنى الحقيقي المقصود .

اذا اردنا على ضوء هذه الدراسة متابعة مراحل حكيم المعرة الفكرية امكننا تقسيم ذلك الى المراحل الآتية :

١ ــ دور الطفولة التي لا نعلم عنها شيئا كثيرا .

٢ ــ دور الشباب ، من بلوغه سن الرشد الى قبيل نزوحه الى بغداد .

٣ ــ رحلته الى بغداد •

٤ ــ دور رجوعه من بغداد الى ان قضى نحبه •

١ ــ دور الطفولة :

ولد حكيمنا ابو العلاء حسب ما ثبت من الروايات يوم الجمعة عند غروب الشمس لثلاثة ايام مضت من شهر ربيع الاول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة اي قبل الف سنة هجرية من تاريخنا هذا • اي يوم القيام بمهرجانه في سوريا •

وينسبه المؤرخ ابن العديم الى قحطان في اليمن ويعده من قبيلة تنوخ من بني سليمان الذين منهم اكثر قضاة المعرة وعلمائها وشعرائها وادبائها • وقد مرضت عيناه في سن الطفولة اثناء جدري اصابه ، ويقال ان ذلك كان سنة سبع وستين وثلاثمائة اي وهو ابن اربع سنين • ويذكر لنا ابن العديم عن بعض من رآه وهو دون البلوغ انه كان صبيا دميم الخلقة مجدور الوجه على عينيه بياض من اثر الجدري ، كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا • وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة ام مغلوطة ، فاننا لا نعلم عن مرحلته الفكرية الاولى • نعم انه كان من اسرة عريقة في العلم في معرة النعمان ، ولا بد انه ورث منها شيئا كثيرا ، ولكننا لا نعلم عن ذكائه ونبوغه في هذه الفترة شيئا ، وما وصلنا عن بعض المؤرخين كياقوت وابن خلكان وابن العديم وغيرهم من الاطناب الزائد في ذكائه كان متوترا بعد بلوغه سن الرشد •

٢ ــ شبابه :

اول ميزة يمتاز بها ابو العلاء ذكاؤه النادر وانصرافه الى كسب العلم وحبه لاسرته مع نظرة كئيبة الى الحياة ، وحنين الى الوطن واشتياق للاصحاب ، واعتزاز بالمجد ، والفخر بالنفس ، ومدح للأمراء • نظم كما نظم من تقدمه من الشعراء قصائد في المدح دون استجداء الاكف ، وبذل الوجه في سبيل المال ، وان كان لشاعرنا ميزة يمتاز بها عن غيره من الشعراء فهي الانفة والعفة والزهد ، فقد كان مترفعا عن حب التكسب بالشعر • ولقد رافقته هذه العزة النفسية من المهد الى اللحد •

اذا طالعنا القصيدة التي نظمها في رثاء والده عام ثلاثمائة وسبعة وسبعين

وهو ابن خمس عشرة سنة المدونة في ديوانه سقط الزند والتي مطلعها :

نقمت الرضى حتى على ضاحك المزن   فلا جادني الا غبوس من الدجن

ادركنا قابليته الفريدة بالشعر . واذا قرأنا له سؤاله عن حكمة الموت عرفنا انه يحب ان يتفلسف وهو بعد صبي يافع :

اذا غيب المرء استسر حديثه   ولم تخبر الافكار عنه بما يغني

وهكذا نرى في انتاجه الشعري في الدور الاول من حياته مسحة من الحكمة ، علها كانت تقليدا لأبي الطيب المتنبي ، ويظهر انه لم يتحرر منه الا بعد ان درس في بغداد وغب من بيوت الحكمة ما شاء له ان يغب . والقصيدة التي يفتتح فيها ديوانه السقط في مدح سيف الدولة ، من ذلك التأثير ايضا ، كذلك نستطيع اعزاء نظمه في الخيل وفي الدروع لنفس السبب . تمتع المتنبي في فكر أبي العلاء بسكانة ممتازة ، وفي سبيله تحمل كثيرا من الاهانات . ولعل السبب في تقدير المعري للمتنبي ناشيء عدا عن متانة الاسلوب عن شكوى الزمن ، ففي الشكوى يلتقي النابغتان العربيان ، فمن خلال الغيوم التي تلبدت في نفس المتنبي كمدحه الأمراء لقاء جزاء يناله والمغالاة في المدح احيانا ، ثم ذم من مدح مرة اخرى وغير ذلك ، رأى المعري في المتنبي طموحا الى العلا . ففي عدم الامتنان شوق الى عالم ارقى . وفي هذا الشوق يتلاقى عظيمان من عظماء الفكر العربي ، اذ لا يقدر العظيم حق قدره الا العظيم ، والارواح الجبارة التي تريد الاصلاح مملوءة انفسها بعدم الامتنان من الارض وساكنيها . ان عدم الامتنان هذا يدفعها لان تخط لنا طريقا جديدا . فاذا اغتبط مثل هؤلاء العظماء بعيشهم لما رأينا اصلاحا قط ولا تقدما ، ولو ان النفوس الكبار رضيت بما وجدت لما شاهدنا رقيا في كوكبنا الارضي ولكانت الاعمال مقتصرة على اعادة الماضي الممل .

لا نجد عند ابي العلاء ميلا الى الغزل وان ظهر في بعض الاحيان في شبابه صبا متيما ، فيغلب على الظن ، ان ما نظم في هذا الصدد كان متكلفا سلك فيه سنن من سبقه من الشعراء . حتى ولو سلمنا انه كان من بنات افكاره لا نجد له لونا جديدا ، فمن تقدم من الشعراء قد سبقه اشواطا في هذا المضمار . وكثيرا ما نكون في حيرة من امرنا لا نعلم هل المقصود الاهل والوطن ام هو غرام خفي

غيبه في قرارة نفسه حتى ليكاد ينساه ، ثم نطق به في شعره معبرا عن شوقه لبعض الاخوان ولكنه في الحقيقة لا يضمر الا الهيام بفتاة عرفها كقوله (ياقوت) :

ما بال داعي غرامي حين يأمرني ... بان اكابد حر الوجد ينهاك (١)

اما ما نسب في سقط الزند :

ولقد ذكرتك يا (امامة) بعدما ... نزل الدليل الى التراب يسوفه

وهواك عندي كالغناء ، لانه ... حسن لدي ثقيله وخفيفه

فهو يفكر بالغناء اكثر مما يفكر بحبيبته • اما قول ابي العلاء يسوف التراب اي يختبره وهذه هي عادة عربية قديمة ، فعندما يصل الركب الى ارض مضيعة ، يقوم الدليل باختبار التراب ليعلم اين هم الآن •

ويذهب ابعد من ذلك :

غرامك بالفتاة خنى وغم ... وليس يسر من يشتاق ، غب

او :

سبحان من الهم الاجناس كلهم ... امرا يقود الى خبل وتخبيل

لحظ العيوب واهداء العقوس واه ••• واء الشفاه الى لثم وتقبيل

وتوق النساء هو بلاء كبير :

توق النساء على عفة ... ليجزيك الواحد القيم

فأبكارهن ابتكار البلا ... وايمهن هي الأيم

(التفسير : الأيم الأولى هي المرأة التي لا زوج لها ، والثانية الحية)

---

(١) وهي قصيدة وردت في ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ص : ١٧٥ ـ ١٧٦ « انظر المصادر »

يا ظبية علقني من تصيدها ... اشراكها وهي لم تعلق بأشراكي

اعييت قلبي وما راعيت حرمته ... فلم رعيت ولا راعيت مرعاك

اتحرقين فؤادا قد حللت به ... بنار حبك عمدا وهو واراك

ما بال داعي غرامي حين يأمرني ... **بأن اكابد حر الوجد ينهاك**

او في القصيدة التي مطلعها (السقط) :

منك الصدود ومني بالصدود رضى   من ذا علي بهذا في هواك قضى

او :

ما سرت الا وطيف منك يصحبني   سرى امامي وتأويبا على اثري

لو حط رحلي فوق النجم رافعه   الفيت ثم خيالا منك منتظري

الى ان قال :

فالحسن يظهر في شيئين رونقه   بيت من الشعر او بيت من الشعر

او :

كم قبلة لك في الضمائر لم اخف   فيها الحساب لانها لم تكتب

وفي اللزوميات نجد ما يلي :

اما وفؤاد بالغرام قريح   ودمع بأنواع الهموم سريح

لقد عزت الدنيا بنيها بسذقها   وان سمحوا من ودها بصريح

مهما يكن من غموض في حياة ابي العلاء الغرامية فانها لم تكن اصيلة في ذاته ، بل ربما كانت كميل من جملة الميول صحبته برهة قصيرة ثم تلاشى امام الميول العظيمة التي كانت سائدة فيه ، كالحكمة التي كانت ضالته المنشودة في الحياة والسعي في تفسير اسرار هذا الكون المعقد ٠

ان ابرز صفة نشعر بها في شباب ابي العلاء اعتداده بالنفس ، وطموحه العظيم الذي نراه واضحا جليا في اشعاره وخاصة في تلك القصيدة التي مطلعها :

الا في سبيل المجد ما انا فاعل   عفاف واقدام وحزم ونائل

يطلق هنا ابو العلاء لنفسه الطموح التي لا ترتضي السماكين منزلا ، ما شاء له من الاندفاع نحو العلاء ، راغبا ان يكون مبتكرا لا مقلدا ، يأتي بشيء لا تستطعه الاوائل ٠ ان هذا الاعتداد بالنفس هو صورة مدهشة ، لا نظن احدا قبله اعتد اكثر منه ، ومع ذلك نرى فيه ميلا الى الامور الواقعية ، لان اغلب الناس يفضل

الجهل على العلم ، والنقصان على الكمال .

ولما رأيت الجهل في النـاس فاشيـا تجاهلـت حتـى ظـن انـي جاهـل
فوا عجبـا كم يدعي الفضـل ناقص ووا اسفا كم يظهر النقص فاضـل

واذا لم تتمكن من تحقيق ما تصبو اليه النفس ، وانعكست المفاهيم فمادر البخيل يعير الطائي بالبخل ،وباقل العيي يعير قس بسوء نطقه :

وقال السهى للشمس انـت خفيـة وقال الدجى يا صبح لونـك حائـل
وطاولـت الارض السـماء سـفاهة وفاخرت الشهب الحصى والجنـادل

عنـد ذلـك :

فيا مـوت زر ان الحياة ذميمـة ويا نفس جـدي ان دهرك هـازل

بعد هذا الاندفاع المتفاني يرجع الى الواقع بصورة مفرطة . واذا جاز لنـا ان نحلل محصلة فكرته كما يحلل الميكانيكي القوى الى عناصرها المركبة منهـا ، وجدناه تحت تأثير قوتين متباينتين في الاتجاه : قوة الدفع نحو السمو التـي لا تعرف حدا ، وقوة العقل التي تبغي التقيد بالواقع . من اجل ذلك نراه يختـم القصيدة بقوله :

فـان كنت تبغي العـز فابغ توسـطا فعنـد التناهي يقصر المتطـاول
توقـي البـدور النقص وهي اهلـة ويدركها النقصان وهـي كوامـل

فينتقل من ذلك الغلو المفرط الى ذلك الاتزان الحكيم . فنجد هنـا مـع الحيوية المفرطة والحركة النفسية سكون العقل الرزين الذي يلمع برقه في خـلال تلك الغيوم المتلبدة التي تتضارب ببعضها بعضا .

نستدل كذلك من كثرة القصائد التي نظمها في مدح الامراء ورثاء من مات ، وتبريك بمولود جديد ، او زفاف او اجابة على قصيدة بعض الشعراء على اتصاله الوثيق بالناس على عكس ما صار اليه وهو في زمن الشيخوخة ، ويظهر ان علاقته بالعلويين شديدة من مدحه بعضهم الا وهو ابراهيم العلوي :

ليت التحمل عن ذراك حلول — والسير عن حلب اليك رحيل
يا ابن الذي بلسانه وبيانه — هدي الانام ونزل التنزيل
عن فضله نطق الكتاب وبشرت — بقدومه التوراة والانجيل
مني اليك مع الرياح تحية — مشفوعة ومع الوميض رسول

لا نعلم من كلامه على مدى تأثير الاساتذة الذين درس عليهم ، فلا نجد اية اشارة في ديوانه الى ذلك • بيد ان النظرة المتشائمة لتتجلى لنا في كثير من قصائده التي نظمها في حياته الاولى ، فهو من هذه الناحية يشبه نيتشه ، فلهذا الشاعر الفيلسوف ديوان الفه في صباه ما اشبهه بسقط الزند ، لما فيه من شكوى الزمن ، وعلاقة شديدة بالخلان والاصدقاء ، وروح شعرية ملتاعة ، ثم بعد الشقة بين ديوان صباه وآثاره في زمن النضج • حتى انه احرق في كهولته ما نظمه في شبابه ، ولم يبق في ايدينا الا ما انقذته شقيقة الشاعر من النار • نعم ان المعري لم يحرق ديوانه ، حتى ان سقط الزند ليمتد به الى زمن الكهولة او بعدها ، ولكنه ان لم يحرق الاشعار الاولى فعلا فقد احرقها معنى لتلك الاحكام التي اصدرها التي تناقض تمام المناقضة ما قاله من قبل • غير ان النظرة الحزينة لتتراءى لنا في شاعرنا العربي اقرب الى الحكمة منها الى نزوة وقتية شخصية ، نرى ذلك جليا في قصيدته التي يرثي فقيها حنفيا والتي مطلعها :

غير مجد في ملتي واعتقادي — نوح باك ولا ترنم شاد

في هذه القصيدة نرى ميله الى التشاؤم ونظرته الشعرية الكئيبة الى العالم ، تلك النظرة التي رافقته الى آخر نفس من حياته • ويختلف التشاؤم عند كلا الشاعرين فينتهي الشاعر الغربي بحقد على البشرية وتقرير مشروعية ابادة الضعيف وسحقه ، ذلك المبدأ الظالم الذي جنى على العالم جنايات كبرى • اما شاعرنا العربي فهو وان حقد على العالم ، ونظر اليه نظرة ملؤها الحزن والتشاؤم ولكنه كان يبغي عالما اسمى ، والا فالعدم خير من الوجود ، لا يدعو الى التهديم كما دعا نيتشه مبدلا بذلك الرمد بالعمى بل دعا الى البناء •

٣ ــ رحلته الى بغداد :

ان اعظم انقلاب فكري حدث في نفس المعري كان على اثر رحلته الى بغداد،

تلك الرحلة التاريخية التي تركت اعمق اثر في حياته ، اذ اكسبته ثقافة واسعة ، وعلما غزيرا ، وصحبة للفضلاء واطلاعا على الكتب القديمة . اما رحلاته الى انطاكية وطرابلس واللاذقية فمشكوك فيها . فابن العديم يذكر انه لم يكن بطرابلس دار علم في ايام ابي العلاء ، وانما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك في سنة اثنتين وسبعين واربعمائة وكان ابو العلاء قد مات في سنة تسع واربعين واربعمائة، فليس من المعقول ان يكون قد زارها ويقال انه مر باللاذقية في طريقه الى طرابلس وتعرف بقس عرفه بالحكمة القديمة . كذلك لا نعلم مبلغ ذلك من الصحة ، يذكر لنا نفس المؤرخ عن انطاكية ان الروم اخذوها من ايدي المسلمين في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وولد ابو العلاء بعد ذلك بأربع سنوات . وبقيت في ايدي الروم الى سنة سبع وسبعين واربعمائة ، والمعري كما نعلم كان قد مات منذ زمن بعيد . ويعتقد هذا المؤرخ ان ما يقصد هو كفرطاب . غير اننا لا نستبعد زيارة ابي العلاء لانطاكية اثناء احتلال الروم اياها ولكن هل حدث ذلك فعلا ، وما هو تأثيره في تطور شاعرنا الفكري ؟ ذلك لا نستطيع الجواب عليه ، وما يورده الراجكوتي في كتابه القيم عن ابي العلاء وما اليه يقوي الظن بعدم زيارته المدينة (١) ورحلته الى حلب كانت حقيقة يدلنا على ذلك الشعر الذي ادرجناه في مدح احد العلويين .

ومن ترجمة ابي العلاء المعري للذهبي وهي ضمن الرسائل التي فسرها مرجليوث « رحل الى طرابلس ، وكانت بها خزائن كتب موقوفة فاجتاز اللاذقية ونزل ديرا كان به راهب له علم بأقاويل الفلاسفة ، فسمع ابو العلاء كلامه فحصل به شكوك ولم يكن عنده ما يرفع به ذلك ، فحصل له بعض الخلل .. »

ان الرحلة العلمية التي رحلها ابو العلاء فهي رحلته الى بغداد ، وكانت في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ودخلها في سنة تسع وتسعين ، واقام بها على رأي المؤرخين سنة ونصف . على ذلك يكون قد دخلها وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

اما سبب رحلته الى بغداد فيذكر الذهبي انه كان للمعري وقف غلته في العام نحو ثلاثين دينارا قدر منها لمن يخدمه النصف ، وكان اكله العدس والتين ولباسه القطن . واتفق انه عورض في الوقف المذكور من جهة امير حلب فسافر

(١) ابو العلاء وما اليه عبد العزيز الميمني الراجكوتي الاثرى الهندي القاهرة ١٣٤٤ ، صفحة ٣٠٠

الى بغداد ..

يخبرنا مؤرخو الادب عن ابي العلاء في العاصمة العباسية اخبارا كثـــيرة كاكرام اهلها له ، واقرارهم بفضله ثم مشاجراته . ودفاعه عن المتنبي ، ومقابلته لابـــي احمد عبد السلام بن الحسن البصري . ويبقى غامضا علينا مدى تأثير علماء بغداد عليه ، ولو علمنا ذلك اجمالا . و يذكر لنا ابو العلاء نفسه عن طربه من الموسيقى :

وغنت لنـا في دار سابـــور قينـة   من الورق مطراب الاصائـل مهيـال

رأت زهـرا غضا وناحـت بسزهـر   متانيه احشاء لطفـن واوصـــال

فقلت تغنـي كيـف شئت فانمــا   غناؤك عنـدي يـا حمامـة اعـوال

يذكر لنا المعري تردده على خزنة دار العلم ، فقد خلدهم في بعض قصائده في سقط الزند كما ذكر بعضا منهم في رسالة الغفران ، لكنه مع كل ما وجـــده في بغداد من متعة فكرية وروحية ، فقد حن الى الوطن .

اذا جن ليلي جـن لبـي وزائـــد   خفوق فـؤادي كلمـا خفـق الآل

باستثناء بعض المناقشات التي ذكرها لنا مؤرخو الادب ، ورثائه الشريف طاهر ، وتعزيته الرضي والمرتضي ، وتردده على ابن حسن البصري لا نعلم عن حياتــه في بغداد شيئا كثيرا ، ولكن مدى تأثير تلك الحياة في نفسه ليظهر لنا في شعره .

أودعكـم يا أهل بغـداد والحشـى   على زفرات ما ينين مـن اللـــدغ

فبئس البديل الشـام منكم وأهلهـا   علـى انهم قومـي وبينهم ربعـــي

ويمكننا ان نقول ان جميع الحكمة المتصلة بالاوائل قد استفادها المعري من بغداد ، فقد كان كما اثبت لنا الراجكوتي انه كان يحضر مناظـرات الفقهـــاء ، ومحاضرات العلماء والادباء بمحافلهم ، لاسيما بجامع المنصور . فكان يلاقي أهل الجدل ، وعلماء الاديان . فكل الذي ذكره عن المعتزلة وارائهم وأهل الجبر والقدر والشيعة واهل السنة والمحدثين ، والفقهاء والقرامطة والعبيديين واراء المجـوس وديانات الهنود وعاداتهم ، فمقتبس من تلك الرحلة العلمية . وعلى ما يظهر ان طه حسين اطنب في تأثير عقائد الهند فيه في كتابه تجديد ذكرى ابي العلاء . وقـــد نستدل ايضا على اتصاله بالافكار الايرانية .

٤ ـ دور رجوعه من بغداد الى ان قضى نحبه :

ان اكبر مرحلة من مراحل حياة شاعرنا هي هذه المرحلة التي تستغرق زهاء خمس واربعين سنة ، وهي تلك الفترة التي كان يسمي نفسه فيها رهن المحبسين • ان هناك لغزا معقدا في حياة شاعرنا ، فان هذه المدة الطويلة لا يمكننا ان نتصور انه امضاها دون ان يحدث في أفكاره تغيرا فالانسان العادي هو بتغير مستمر ، فما بالك بعبقرية فذة كعبقرية ابي العلاء ، فهل يعقل ان يكون الجمود عليها غالبا ، قطعت هذه المدة على وتيرة واحدة ؟ فهنا فراغ لمن يريد ان يبحث ، والمشتغلون بتاريخ حياة شاعرنا لا يذكرون لنا شيئا عن التطورات التي حدثت في هذا الزمن الطويل ، نعم ان نقاط الانقلاب في تطوره في هذا الدور منبثة في رسائله وفي ديوانه الفذ لزوم ما لا يلزم ، ولكن هذه الرسائل مفقودة اكثرها ، وقد عثر والحمد لله في الازمنة الاخيرة على ما كان يظن انه ضائع ، وسيكون ولا شك لتلك الاثار شأن عظيم في تسهيل دراسة ابي العلاء الفكرية • اما لزومياته فهي غير مرتبة على حسب الوقائع والزمن • ان اقرب الوثائق في دراسة تطور حكيمنا الفكري في رسالة الغفران ، ولكنها لا تفي ايضا بالغرض تماما ، لاننا لانعلم المدة التي استغرقها لتأليف هذه الرسالة ، ومتى بدأ فيها ؟ ومتى انتهى منها ؟ اننا لنرى فيها شيئا من التطور في تلك الحقبة التي مرت عليه في تأليفها • فمثلا في وسطها ثورة كبيرة على المتصوفة ورضاء عن تلك النزعة في آخرها في بطلها الشبلي الذي يرجو ان يكون بعيدا عن مذهب الحلولية ، فيترحم عليه ، وينشد اشعاره مترنما بتلك النزعة الصوفية التي تتخذ الغرام الأرضي رمزا للحب الالهي الخالد • ولكن متى يا ترى كان راضيا عن هذه النزعة ؟ وفي أي مرحلة من مراحل حياته اصبح ينظر اليها بعين الرضا بعد ان كان ناظرا اليها بعين السخط ؟ ذلك ما لا نستطيع الجواب عنه في الوقت الحاضر • واذا أتيح لاحد فك هذه العقدة العويصة فسوف يجلو غوامض جديدة في حياة ابي العلاء الفكرية ، فنتمتع بلذة نفسية عظيمة •

لا بد لنا من الاشارة ايضا الى ابن العديم ذكر لنا في رسالة عنوانها « كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري » نشرها الشيخ راغب الطباخ في كتابه عن تاريخ حلب من ان الفصول والغايات هي اول

رسالة نشرها المعري بعد رجوعه من بغداد واذا صح ذلك نكون اذن امام طريقة جديدة لحل هذه المشكلة الاخيرة ، ولا يعيق هذا الحل ما ذكره ياقوت في معجم ادبائه من ان تلك الرسالة بدأ بها قبل رحلته الى بغداد وأتمها بعد عودته الى معرة النعمان ، ان هذا الكتاب كان مفقودا وصل اخيرا الجزء الاول الى الخزانة التيمورية وقد طبع قسم منه في عام (١٩٣٨) في القاهرة وما تناولته من نزعة أبي العلاء الصوفية ومعارفه الطبيعية اكثره من هذه القطعة . ومن دراستنا لهذا الاثر نستدل انه يتكلم عن الحكمة بالسجع ، لا يدل على ذلك الالحاد الذي نسب اليه او على محاولته معارضة القرآن ، ويقول فيه انه بعد ان طاف الآفاق ، ووجد الدنيا نفاق مل من مداراة العالم بما يضمر غيره الفؤاد ، فاختار الوحدة على جليس السوء .

من العادات الهامة التي استفادها من زيارته لبغداد امتناعه عن اكل اللحم ، فقد بقي ممسكا عن تناوله بعد عودته الى ان مات . ولقد كاتبه داعي الدعاة الفاطمي كما دون ذلك ياقوت ، عن سبب تحريمه على نفسه اللحم واللبن وكل ما يصدر الى الوجود من منافع الحيوان ، موجها اللائمة عليه لعدم انتفاعه بما احل الله له ، واجدا مشروعية استيلاء الاقوى على الأضعف . فالقوة الحيوانية متولية على الحيوان ، مبرهنا على وجود السباع وجوارح الطير التي خلقها الله سبحانه على صيغة لا تصلح الا لنتش اللحوم وفسخها . فليس هو أرأف على الحيوان من خالق الحيوان . يجيب المعري بكتاب طويل مظهرا التواضع الزائد ، زاعما ان الله جلت عظمته رؤوف رحيم ، ولو رأف ببني آدم وجب ان يرأف بغيرهم ، ويظهر في كتابه شكه بالرحمة ويقول انه نظر في الكتب المتقدمة وما حكي عن جالينوس من اعتقاد يدل على الحيرة . واذا قيل ان الباري رؤوف رحيم ، فلم سلط الاسد على افتراس نسمة أنسية ؟ وكم مات بلدغ الحياة جماعة مشهورة ، وسلط على الطيور الوادعة البازي والصقر . يشكو ايضا ضيق ذات يده ولكنه مع ذلك لا يقبل جعلا ويعتقد ان عمله في ترك اكل اللحم لا عن تحريم بل اجتهادا في التعبد ، ورحمة للمذبوح ، رغبة ان يجازي عن ذلك بغفران خالق السموات والارض ، واذا قيل ان الله سبحانه يساوي بين عباده في الاقسام ، فأي شيء اسلفته الذبائح من الخطأ حتى تمنع حظها من الرأفة والرفق ، ويتمثل بقوله :

فــلا تفجعن الطـير وهي غوافـــل ... بمـــا وضعـت فالظلم شر القبائـــح

ويستدل من حديث نبوي وآية قرآنية على لزوم الرفق بالحيوان ، فنهـــي النبي (ص) عن صيد الليل : (أقروا الطير في وكناتها) ونطق القرآن : (يـــا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا ، فجزاء ما قتل من النعم) ، وهو يريد ايضا ان يجعل صيد الحل كصيد الحرام •

يعلل بعض من اشتغل في تاريخ الادب ان مفاجأة ابي العلاء بموت والدتـه حين عودته الى المعرة من بغداد هو جملة الاسباب في تشاؤمه ، قد يكون لهـذا الحادث الجلل الذي خلده بقصيدته التي مطلعها :

سمعـت نعيهـــا صمـى صمـام ... وان قـــال العوازل لا همـــام

وامتنـي الـــى الاجـــداث ام ... يعـــز علـــي ان ســارت امامـــي

واكبـــر ان يرثيـها لسانـــي ... بلفـظ ســالك طـرق الطعـــام

مفعولا عظيما ، ولكن هذا الحادث لا يشكل تأثيرا جوهريا اذا لم يكن في النفس ميل الى ذلك ، فكم نشاهد من اناس اناخ عليهم الدهر بكلكله فقـدوا ابصارهم كما فقده ابو العلاء ولكنهم مع ذلك يطربون الى الحياة ، ويجدونهـا لذة ومتعة نادرتين • وما اشبه التأثير الخارجي بتفجر الماء عند ضرب الفأس على صخرة قاسية ، طبعا ان هذه الضربة فجرت الماء ، ولكنها لا يمكنها ان تفعل ذلك ، لولا كمون ذلك الجسم السائل تحتها ، اما التأثير الخارجي غير المدعم بقابليـة باطنية فلا فائدة منه ، ولا يمكن ان يبرز شيئا الى الوجود • فمهما نفخنا على فحمة لا بصيص فيها لا يمكننا ان تأجج نارا •

لما رجع ابو العلاء من بغداد عزم على العزلة والابتعاد عن الناس ، ويذكر لنا ابن العديم انه كتب كتابا لاهل بلدته يخبرهم على عزمه على ذلك ، ليكونوا على بصيرة من امرهم كي لا يجمع بين سمجين سوء الأدب وسوء القطيعة •

رغم وجود آثار عديدة عن الفترة الاخيرة من حياته ، فانه لمن المتعذر رسم مخطط مضبوط ، فلا يزال هذا الدور مجهولا في معرفة تطور ابي العلاء ، واذا درسنا الآثار الموجودة لدينا ، نرى ان هذه المدة الطويلة من حياته قضاها فـــي

التفكير العميق ، وذلك بعزلة ناشئة عن رغبة اكيدة للرجوع الى النفس كي يغربل تلك المعارف التي حصل عليها في دار السلام ، ليبين لنا رأيه عن هذا الكون وهذه الحياة . نستنتج من رسالة الغفران نفسها انه انتقل من حياته الفكرية من الشك الى اليقين ، لانه ناقش الحساب مع جميع الفرق والمذاهب ، فمن حيرة مظلمة انتقل الى طمأنينة منيرة . نرى ذلك جليا في رسالة الغفران . اما في اللزوميات فان الافكار متداخلة ببعضها بعضا اختلاط الحرير بالشوك ، ومن الصعب جدا تفريق تلك الاجزاء المتشابكة لمعرفة المجرى الذي جرى عليه شاعرنا في تفكيره . ومن المستطاع تقسيم هذه المدة الطويلة من حياة مفكرنا الى ادوار ثلاث :

١ ـ دور الاعتزال التام يبدأ عقب رجوعه الى بغداد ولا ندري متى ينتهي.

٢ ـ دور استذة ابي العلاء وتوارد الطلاب عليه الذين اضطروه على الخروج قليلا من صمته وعزلته .

٣ ـ دور شهرته عند الامراء وتوسطه بالمهام السياسية .

ان مدة الاعتزال التام على ما يظهر هي قصيرة نسبيا ، فالدور الثاني امتد طويلا وتداخل ايضا حتى الدور الاخير . فاذا انطوى ذكر ابي العلاء كشاعر واديب وحكيم ، فانه لا ينطوي كمعلم له مثل اعلى في التعليم خالد على مدى الدهور . فلقد كانت المعرة كما وصف لنا بعض مؤرخي الادب كعبة يؤمها العلماء والادباء واللغويون يتعلمون علم ابي العلاء الغزير ، وقد افرد ابن العديم فصلا خاصا عن تلامذته وصلاته الطيبة بهم ، فقد كان يعلم ولا يريد تلقاء ذلك جزاء وشكورا اي يخدم العلم للعلم ، حتى انه كان لا يستخدم طلابه في نسخ آثاره ، ورغم ضيق ذات يده كان يقربهم ولا يضن عليهم بما يعلم .

في الدور الاخير من هذا الزمن يلزم ان يكون قد عرف الناس مبلغ طيب قلب ابي العلاء ورغبته في اماطة الأذى عن الناس ، فاشتهر عند الملوك والامراء وكبار العلماء الذين قصدوه في المعرة . فعلى ذلك يكون من عزلة دراسية الى تعليم من قصده ، الى شهرة عند الامراء والملوك .

في هذا المجرى الطبيعي يلزم ان يكون قد جرى المعري . وينقل لنا ابن العديم وياقوت حكاية عن مقابلته الامير اسد الدولة صالح بن مرداس صاحب

حلب ، الذي حاصر المعرة واعتقل كبار رجالها، وطلب اهل المعرة من المعري الشفاعة لهم عند صالح • ولولا ثقة الناس به وجاهه عند الامراء لما طلبوه في التوسط • ويذكر ابن العديم انه لما وصل الى صالح قال له : « مولانـا الامير السيد الاجل اسد الدولة ومقدمها وناصحها كالنهار الماتع اشتد هجيره وطاب ابراده وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حده • خذ العفو وامر بالمعروف واعرض عن الجاهلين »• فوهب صالح اهل المعرة لشيخنا الجليل • ويروي لنا ياقوت وابـن العديم عـن المعري نفسه وصف هذا الحادث شعرا كما ورد ذلك في اللزوميات :

تغيبـت فـي منزلـي برهـة ... ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل ... وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعـا الى صالح ... وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام ... واسمع منه زئير الاسد
فلا يعجبني هذا النفاق ... فكم نفقت محنة ما كسد

هذه القصة التي جرت عام ٤١٧ هـ كما قال ياقوت تدلنا على ان المعري لم يخرج من عزلته التي عزم عليها ، بل ان الناس قد عرفوا فضله وما تنطوي عليه نفسه الابية من نبل وشهامة ، فاكرهوه على الخروج ولا بد ان يكون هذا الاكراه قد حصل نتيجة دعاية الطلاب الآمين بيته ، المغترفين من معين علمه ، والمقتبسين اخباره ، والناشرين في اطراف العام سمو فضائله ، فاصبح في آخر حياته كما وصف نفسه •

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم ... باخفاء شمس ضوءها متكامل

هذا الاعتداد بالنفس الذي ظهر في صباه بشكل اعجاب وغرور يتجلى لنا في شيخوخته في آرائه المبتكره وفي نقده الفذ لافكار من تقدمه ، وفي محاولة ان يخط طريقا جديدا في الفكر لا علم للاوائل به • ويكاد يشكل مذهبا خاصا في العقل يذكرنا بمذهب « كانت » كما سنبين عما قريب •

عانى المعري على بينا تطورا عظيما في افكاره • بدأ بايمان ساذج يرافقه فخر بشخصيته ، الى ان ادى به الامر الى الحيرة في وجوب المعرفة ، الى ان تحكم الشك

فيه تحكما وثيقا ، ثم انتقل من هذا الشك ايضا الى ايمان ثابت قوي . انتقل بفكره اذن كما ينتقل كل كائن حي من البذرة الى البذرة ، تاركا في طريقه ثمارا يانعة تنفع العالمين .

مما يقوينا في هذا الزعم ما اورده الراجكوتي من الفصل الذي عقده عن تزكية ابي العلاء والقول بحيرته ناقلا عن الذهبي والقزويني انه شك ولكنه استغفر في آخر عمره وحسن اسلامه «١» ، ويذكر هذا المحقق نفسه في القول الفصل عن قضيته بعد بحث دقيق وتمحيص عميق انه كان في شبابه ممتريا ، ثم بقي طول كهولته مرددا ثم صدق في الشرائع في مشيبته «٢» .

ان كثيرين ممن ولعوا في دراسة ابي العلاء يزعمون ان آراءه تتقابل في امور الدين والدنيا ، حتى انه من المستطاع وضع قائمة عما اثبته ونفاه . ولو عمد من زعم ذلك الى طريقة التطور الطبيعية لحل كثيرا من المتناقضات .

على كل يظهر لنا ان نزعة التشاؤم رافقت شاعرنا الى آخر نفس من حياته ، ودليلنا على ذلك ما بيناه من قبل ، وما روي عنه انه اوصى حين يموت ان يكتب على قبره كما روى مؤرخو الأدب :

هذا جناه ابي علي وما جنيت على أحد

ويذكر الراجكوتي «٣» ان آخر كتاب الفه هو ضوء السقط اصلح فيه ما افسد ويروي عنه في اللزوميات :

ان ختم الله بغفرانه فكل ما لقيته سهل

اما ما يرويه ياقوت في معجم ادبائه انه مات منتحرا بالسم على اثر تهديد هدده اياه داعي الدعاة الفاطمي اما ان يحسن اسلامه او يقتل ، فقد نفاه طه حسين ونجده ايضا مردودا من الوجوه الآتية :

١ ـ ان مراسلة ابي العلاء مع الداعي بدأت عام ٤٣٨ كما ذكر ابن حجر ، ومات عام ٤٤٩ ، فالمدة اذن ليست بقصيرة خلافا لما بينه طه حسين في بحث

«١» ـ الراجكوتي ، ٢٨٩ .
«٢» ـ نفس المصدر ٣٠٠
«٣» ـ المصدر المتقدم ص ٣٠٠

الذكرى (ص ٣٠٦) فلا يعقل ان يسم نفسه بعد احدى عشرة سنة •

٢ ـ يدل اسلوب المراسلة على احترام داعي الدعاة للمعري احتراما زائدا ، فليس فيها ما يشتم منه هذا التهديد او هذا الاحراج •

٣ ـ زار ناصرخسرو الرحالة الايراني المعرة عام ٤٣٨ (كما حقق الراجكوتي) «١» وهو نفس العام الذي بدأت به المراسلة ، وكتب عن مكانته وكيف كان منزله يـؤم ويفتح للقادمين • ومن كان في هذه المكانة فليس من المعقول تهديده بالموت •

ويذكر ناصر خسرو في كتابه سفر نامه (زاد المسافرين) ، المترجم الى اللغـة العربية من قبل يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٤٥) عن المعرة عند زيارته لها من عهد المعري ما يلي : (وذلك في ١١ رجب ٤٣٨ هـ الموافق ١١ كانون الثاني ١٠٤٧) •

« وكان بهذه المدينة رجل اعمى اسمه ابو العلاء المعري وهو حاكمها • وكـان واسع الثراء عنده كثير من العبيد ، وكان اهل البلد كله خدم له • اما هو فقـد تزهد، فلبس الكليم، واعتكف في البيت، وكان قوته نصف من (٢) من خبز الشعير، لا يأكل غيره • وقد سمعت ان باب سرايه مفتوح دائما وان نوابه وملازميه يديرون امر المدينة ولا يرجعون اليه الا في الامور الهامة ، وهو لا يمنع نعمته احدا ، يصوم الدهر ويقوم الليل ، ولا يشغل نفسه مطلقا بامر دنيوي • وقد سما المعـــري في الشعر والادب الى حد ان افاضل الشام والمغرب والعراق يقرون بانه لم يكن مـن يدانيه في هذا العصر ولا يكون • وقد وضع كتابا سماه الفصول والغايات ، ذكـر به كلمات مرموزة وامثالا من لفظ عجيب ، بحيث لا يقف الناس الا على قليل منه ، ولا يفهمه الا من يقرأه عليه • وقد اتهموه (بانك وضعت هذا الكتاب معارضـة للقرآن) • ويجلس حوله دائما ، اكثر من مائتي رجل : يحضرون من الأطـراف ، يقرأون عليه الادب والشعر • سأله رجل : لم تعطي الناس ما افاء الله تبارك وتعالى عليك ولا تقوت نفسك ؟ ـ فأجاب : (اني لا املك اكثر مما يقيم اودى) • وكان هذا الرجل حيا وانا هناك » •

«١» ـ نفس المصدر ص ٢٤٤

«٢» ـ المن مقياس خاص في الوزن ، كان لكل قطر اعتبار خاص ، ففي سوريا كان المن ٢٦٠درهما والدرهم ٣،١٥غ ،فيكون المن = ٨١٩،٠غ

وفي الشرح ينقل المترجم عن الباخزري بانه قيل لأبي العلاء عـن الفصـول والغايات ، ما هذا الا جيد الا انه ليس عليه طلاوة القرآن، فقال حتى تصقله الالسن في المحاريب اربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون ؟ (نقـلا عـن مجلـة المستشرقين الالمانية ج ٢٩ ص ٦٤ ، جولد زيهر ١٨٧٦) ويغلب على الظن ان هذه منتحلة عليه • لان تأليف الفصول والغايات كان في دور ذروة ابي العلاء الفكريـة التي كان فيها مقرا بالشرائع •

٤ ــ اذا كان هذا الخبر صحيحا اي موته بالسم فلا بد من استغلاله من قبـل رجال السياسة ، وللفاطميين كما نعلم منافسون من آل مرداس الذين تم لهم الاستيلاء على المعرة ثانية بعد موت ابي العلاء •

من كل ما بيناه نستنبط ان المعري مات ميتة طبيعية • وقد رثاه كثيرون مـن جملتهم ابو الفتح بقصيدة مطلعها :

العلـم بعـد ابـي العـلاء مضيـع والأرض خاليـة الجوانـب بلقـع

☆☆☆

بين المعري وكانت (١)

صدقت يا عقل فليبعد اخو سفه   صاغ الاحاديث افكا او تأولها

ـ ابو العلاء ـ

قد يأخذ بنا العجب كيف يمكننا المقارنة بين مفكرين يختلفان كل الاختلاف عن بعضهما • فشاعرنا العربي كما علم ذلك كثيرون من المطلعين على آثاره لا يمت الى الفلسفة المدرسية بصلة ، حتى انه بعيد عن روح الترتيب والتنظيم ، يقذف افكاره كما يقذف البركان حممه ، فتطاير تلك الاحجار النارية ذات اليمين وذات الشمال ، وانه لمن الصعب جدا وضع افكاره ضمن سلسلة خاصة ، وكثيرا ما يتراءى للباحث تناقض عظيم في آراء الحكيم ، فما يقره اليوم عنه ، قد يضرب به في الغد عرض الحائط •

نشعر في هذه الحيوية وفي هذه الثورة الروحية في رسائل ابي العلاء في اشعاره سواء كانت المتقدمة او المتأخرة • نعم ، ان في افكار شاعرنا لتطورا عظيما، اذ هناك شقة واسعة بين ما نظمه ونثره اديبنا العبقري في زمان شبابه الغض وبين ما فعل ذلك في دور كهولته الناضجة ، وشيخوخته الحكيمة ، ولكن من الصعب علينا جدا رسم خط بياني لذلك التطور ، فهذه الحيوية الزائدة السائدة في نفس حكيم الشرق لا يمكننا ان نقيدها بنظام خاص • ان فيها انسجاما ، ولكن انسجامها اشبه بتناسق الكائنات الحية منها بالاشكال الهندسية الميتة على رأى هنري برجسون • فالناظر الى الشجرة يرى نظاما خاصا وتناسبا في الاعضاء ولكنه لمن الصعب عليه وضع ذلك النظام وذلك الانسجام ضمن قاعدة رياضية •

اما الفيلسوف « كانت » فهو على النقيض من ذلك ، ففي افكاره انسجام وترتيب ونظام هائل ، فقواعد المنطق تسود افكاره بصورة مدهشة ، وعندما تقرأ

«١» ـ كانت هو الفيلسوف الالماني الشهير الذي عاش في القرن الثامن عشر وله من الاثار : ١ ـ نقد العقل المحض ٢ ـ نقد العقل العملي ٣ ـ الدين ضمن نطاق العقل وغير ذلك من الكتب •

مؤلفاته كأنك تتابع حل مسألة رياضية في عالم الفكر المحض • فآراؤه محكمة ، متتابعة آخذة بعضها برقاب بعض ، وانه لمن السهل جدا ، وضع تطوره افكاره ضمن خط بياني خاص • ان من اشتغل في فلسفته ليجد صعوبة عظيمة في فهمها ، ولكنها كالسلسلة ذات الحلقات العديدة المرتبطة فروعها رباطا وثيقا ، فمتى اتيح لأحد حل حلقة واحدة ، سهل عليه الانتقال للاخرى الى ان يحل جميع الحلقات • فهذا الفيلسوف يعبر اذن عن التطور الهادىء الرزين ، رغم هدوئه الظاهر يعبر عن الثورة الفكرية الهائلة • اذن ما دام الامر على ما وصفناه فأين وجه التقارب بين هذين المفكرين البعيدين عن بعضهما من وجهة الزمان ، والمكان ، ومنبع التفكير وهدفه بعد الارض عن السماء ؟•

لو اننا قمنا بالمقارنة بين الشاعر والفيلسوف نيتشه وبين المعري لوجدنا شبها عظيما من وجهة التفكير اولا ، من النزعة الشعرية ثانيا ، ومن التشاؤم في الحياة ثالثا ، وكذلك الامر مع شبنهاور ايضا ، فهذا الفيلسوف الغربي ، وحكيمنا الشرقي يكادان يستقيان من ينبوع واحد •

فاين وجه التشابه بين حكيم ينظر للحياة نظرة شعرية كئيبة ، يرى العدم خيرا من الوجود ، يرى الجناية الكبرى التي جناها عليه ابوه ، في وضعه للردى غرضا ، يكاد يرى الحياة عبثا ، وبين فيلسوف متفائل لا يعبر عن افكاره بالشعر ، بعيدا عن الروح الفنية في كتاباته وان بحث في قواعد الفن وقيمته في الحياة ، يرى ايضا ان الخير كل الخير في هذا الوجود على الارض ، وان تبرم فترات قصيرات من شظف العيش ، يحث على اداء الواجب سواء رافق ذلك لذة ، بل يرى الرذيلة كل الرذيلة في انتظار اللذة من العمل الاخلاقي •

هكذا يتراءى للمدقق السطحي ، ولكن في اعمق اعماق الافكار الحرة صلة قوية بين النبغاء ، وان اختلف الزمان والمكان والبيئة والنزعة والاسلوب ، ففي كل نفس اعجوبة والحقائق عن البشر محجوبة كما يقول حكيم المعره نفسه • واي اعجوبة اعجب من الفكر البشري الحر الذي لا يعرف قطرا ولا عصرا ، يبحث عن الحقيقة المجردة مهما كانت مرة أليمة ، وفي هذا البحث تلتقي النفوس المشردة وتتقابل الارواح المتناكرة • بيد ان هذا الهدف الوحيد لا يكفي في تبيان وجه التشابه بين مفكرين مختلفين كل الاختلاف فلا بد من عوامل اخرى ، لان هذا

التقارب هو عام لجميع المفكرين على الارض ولا يمكن ان نخصصه لفرد من الافراد .

اول ما يجلب دقة نظرنا في هذين المفكرين سيادة روح النقد وان اختلف التعبير عند كليهما ، فـ « كانت » يعد من اكبر النقاد في الفلسفة الغربية ، فهو ينقد العقل الصرف ، والعقل العلمي ، والاحساس السامي ، ينقد الاديان ايضا في رسالة عنوانها (الذين ضمن نطاق العقل) تلك الرسالة التي قل من التفت اليها احد . وتكاد تكون مجهولة في الشرق العربي . واذا درسناها بامعان نجد القرابة الفكرية الموجودة بين هذين البطلين ، فنرى ما يرمي اليه الفيلسوف الاوروبي قد فكر فيه شاعرنا ايضا .

يبدأ الفيلسوف (كانت) في رسالته المنوه عنها في تقسيم عوامل الخير والشر في الانسان ، وتطاحن تلك العوامل والاسباب التي يظفر بها الخير على الشر ، وبالعكس . ثم ينتهي به البحث في نقد الدين الوضعي كما تسير عليه البشرية ، وفي هذا البحث صب على كثيرين من المتدينين ظاهرا جام غضبه لعدم رفع ذلك التدين سويتهم الخلقية ، وكثيرا ما يرى افكارهم واعمالهم لا تتفق مع العقل السليم ، بل ان كثيرا من تلك التعاليم تكون السبب في تعطيل العقل . واذا اردنا ان نحصي الاقوال التي سردها المعري في لزوم اتباع العقل ، وما هي الجريمة التي يرتكبها اصحاب الاديان في تعطيل ذلك العضو الشريف ، لضاق بنا الامر ولاحتجنا للقيام بدراسة جدية واسعة ، قد لا نغالي اذا قلنا انها تستغرق سنين ، فالعقل هو رائد هذين المفكرين ولا يقران لقاعدة دينية ظاهرية من شأنها ان تضحي بالعقل . هذا وان اختلف تمجيد العقل عند الاثنين ولكنهما يتفقان في الجوهر ، فعلى هديه يريدان السير ، وبه يريدان نقد الدين ايضا .

فـ (كانت) ناقش الاديان التي عرفها في زمانه كلها ذاكرا نواحي الضعف فيها ، معتقدا انها لم تكن السبب في تهذيب الوجدان لغرسها الاعتقاد في البشر بلزوم القيام بالتعاليم الشكلية فقط لا في محاسبة النفس الحقيقية وبرفع مستوى الانسان، والمعري يرى رأيه فالحنيفة قد هفت ، والنصارى ما اهتدت ، ويهود حارت ، والمجوس مضللة :

اثنان اهل الارض ذو عقل بلا ... دين وآخر دين لا عقل له

وفي محل آخر يقـول :

سواء على النفس الخبيث ضميرها ... امكة زارت للمناسك اووجا

ويصرح اكثر من ذلك بقوله :

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ... ولا صلاة ولا صوف على الجسد

وانما هو ترك الشر مطرحا ... وتفضك الصدر من غل ومن حسد

ما دامت الوحش والانعام خائفة ... فرسا فما صح امر التسك للأسد

نكاد نراه هنا يهدم جوهر الدين ، ولكنه في الحقيقة لا يهدم الا الطلاء الكاذب ، او الثلج المرتفع على ذرا الجبال الذي ان رأته الشمس ذاب • ويقول في رسالة الاخرسين :

« قال رجل من الصالحين لان يدعو لي رجل اخرس ، احب الي من ان يدعو لي الف خطيب على الف منبر ، لان ذلك يومىء الى الله سبحانه بلسان ما أفك ولا قال البهتان ، اولئك جديرون ان يكونوا كما قال سبحانه : (يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم) • »

ان هذه الفكرة هي التي ارادها « كانت » في رسالته ، فهو لا يسمح بهدم العقل من اجل تعاليم ورثناها عن السلف واخذناها على علاتها دون نقد وبصيرة منيرة ، مستسلمين استسلام الاعمى • فأين مفعول الفكر الحر غير المقيد الذي خلقه الله فينا ، وهو الرسول الاعظم منه الينا ؟ •••

اما سبب ثورة المعري على المعتزلة فيمكننا ان نعللها لانهم يفترضون النصوص اولا والمحاكمة المنطقية ثانيا، فالمعري لا يرضى انيتقدم على العقل شيء • من اجل ذلك لا يقنع باسلوب المعتزلة ابدا ، فنقمته عليهم نجدها في رسالة الغفران وفي لزوم ما لا يلزم ، كذلك كان « كانت » ، فانه كان لا يعطي لمنهج التأويل في نصوص الاديان قيمة كبرى ، فرغم تفضيله اتباع هذا الاسلوب على من يستسلم استسلاما تاما ، ينقدهم ايضا انتقادا مرا ، لان العقل في عرفه ايضا هو رأس الادراكات كلها، فيتفق بذلك وحكيمنا العربي •

ينقم « كانت » على من يعبد الله تجاه جعل يؤمله او خوف عذاب يريد تجنبه ،

اذ هو يرى هذه النفعية تحط من كرامة الانسان ، ولا تجعل نيته خالصة ، فعــدم الاخلاص يكبر وينمو في القلب الى ان تسود فيه سيطرة الأنانية الكبرى • اذن ما نريد الابتعاد عنه ، الا وهو التيار الشخصي قد وقعنا فيه ايضا • والمعري يقصــد ذلك في رسائله واشعاره ايضا ، ويرى المثل الاعلى في العبادة الخالصة التي نجدها بصورة موضحة في هذا الشعر المنسوب اليه :

واعبــد اللــه لا أرجــو مثوبتـــة   ولكــن تعبــد اعظــام واجــلال
اصون دينــي عــن جعــل اؤملــه   اذا تعبــد اقـــوام بأجعــــال

نعم ، كان السابق لفكرة العبادة الخالصة رابعة العدوية ، وما نسب للامــام علي ، ولكن اقران ذلك بالاحترام فهو مبدأ دان به المعري و « كانت » ايضا •

ان الرياء في الاديان كما يجد هذان الحكميان ، قد وضع نسيجا كثيفا حــول جوهر الدين ، جعله عند بعض اهل الابصار لا يؤدي الرسالة التي ارسل من اجلها ، وهذا الرياء كما يراه (كانت) هو سر الرذائل والضلالات البشرية • والمعري ينوه كثيرا بذكر الرياء عند اهل الاديان اولئك الوعاظ الذين يحرمون الصهباء صبحـــا ويشربونها على عمد مساء ، او كما قال :

طلــب الخسائس وارتقــى في منبــر   يصف الحساب لأمـــة ليهولهــــا
ويكــون غــير مصــدق بقيامــــة   امسى يمثل في النفوس ذهولهـــا

اما مجابهة التصوف ، فهو ظاهر عند الحكيمين ، وكيف لا يكون ذلـــك ، وكلاهما اقرا بسيادة قواعد المنطق ، فكيف يعتمدان على مذهب التصوف الــذي يمشي في طريق القلب والعاطفة ، و (كانت) يرفض كل المعجزات والكرامات وهي عند المتصوفين لا بد منها ، والمعري ايضا يهزأ من كرامات المتصوفة كما ذكر لنــا ذلك في رسالة الغفران وخاصة عند الكلام عن الحلاج المصلوب • هذه ناحية يتفق فيها حكيم المشرق والمغرب وسواء اكانت الصوفية على حق ام على باطل ، فهما قد شنا غارة شعواء عليها ، لانها لا تهتدي بالنجم الذي يهتدي به كلاهما ، وكل نجــم سواه في نظرهما لا مشروعية للهداية به • هذا وان رأينا نزعة صوفية عند المعري فيمـــا بعــــد •

مع هذا النقد المر الصادر من هاتين الشخصيتين ، نرى ميلا عظيما الى دين عالمي ، دين يمكن ان يقره كل فرد من افراد البشر ، دين يهذب الضمير ، ويكرم جوهر الانسان ، ويرفع سويته ، ويحقق السلام ، فيحرر النفس من قيودها والتفكير الحر من سلاسله ، فيعيش الناس اخوانا متحابين لا تقودهم المطامع الى المعامع . هذا الدين الفطري الذي يتطلبه كلاهما عبر عنه (كانت) في الرسالة المذكورة ، بانه دين العقل لا علاقة له بالاشخاص، قد نقش في قلب الانسان الطاهر، بعيد عن القواعد الظاهرية ، يستمد قوته من الوجدان الباطني الحي ، يود سيادة الفضيلة والقضاء على الرذيلة ، فنراه يؤمن بالله ويأتينا بمحاكمات منطقية عن سبب ايمانه ، وذلك عن ضرورة مستمدة من العقل العلمي الذي اقر به قضايا ما وراء الطبيعة ، بعد ان كان بعقله الصرف منكرا لها ، لانه لم يستطع ان يقيم عليها برهانا قطعيا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ورغم ذلك فانه رآها ضرورة من اجل السلوك الاخلاقي ، وكأنه قد قال بلسان ارسطو :« اذا لم يكن هناك بعث كانت الحياة غنيمة للمجرم » او كما عبر السهروردي صريع الفكر :

لو علمنا اننا ما نلتقي   لقضينا من سليمى وطرا

عن مسوغ آخر يعتقد ابو العلاء بوجود اله عادل في هذا الكون ، فهو يعجب بالطبيب الذي ينكر الخالق بعد درسه التشريح ، ويرى ان الفلك الدوار لا بد له من مدير يديره ، فهذه العوالم بنظامها توصلنا الى الله :

فلك يدور بحكمة   وله بلا ريب مدير

او :

هو الفلك الدوار اجراه ربه   على ما نرى من قبل ان تجرى الفلك
له العز لم يشركه في الملك غيره   فيا جهل انسان يقول لي الملك
وايامه منظومة في حياته   ولا نظم يبقى حين يستليء السلك
خلقنا لشيء غير باد وانما   نعيش قليلا ثم يدركنا الهلك

اذن ان ضرورة الايمان قد استمدها المعري من ضرورة المنظم لهذه الخليقة التي حارت الافكار بها ، فانكار المبدع للكون ناشيء عن عدم الفهم العميق لمعنى

النظام السائد فيه ، نعم انهما قد اختلفا في مبدأ الاعتقاد ولكنهما اتفقا في منتهاه • وهكذا اتفقا ايضا في الاعتقاد بيوم الآخرة ، فـ (كانت) يرى ضرورة عقلية لذلك، لمناقشة الحساب في عالم غير عالمنا • اماالمعري فيرى اننا خلقنا لشيء ، وليست الخليقة لهوا ولعبا وعبثا ، ولكن تفصيل ذلك مجهول في عقلنا المحدود • فهو بمناسبات عديدة يبين لنا اعتقاده القوي في الحياة الاخرى ، لا في ديوانه سقط الزند عندما كان شابا يافعا بل في دور النضوج ايضا ، تقرأ ذلك في رسالة الغفران وفي الفقرات التي نشرت حديثا عن الايك والغصون والفصول والغايات ، وفي اللزوميات نجد ما يلي :

وقدرة الله حق ليس يعجزها : حشر لخلق ولا بعث لاموات
فاعجب لعلوية الاجرام صامتة فيما يقال ومنها ذات اصوات

وصاغني الله من ماء وها أنا ذا كالماء اجرى بقدر كيف جريت
بريت للامر لم اعرف حقائقه فليتني من حساب الله بريت

وهذا المثال الاخير حديث لمقارنة جريان الحياة بجريان الماء ، لان فلاسفة الطبيعة تعتقد اليوم ان الحياة وكل ما في الكون يدور دورة الماء ، اما الحقائق النهائية فهي كما يقر بذلك البحث العصري وكما يراها « كانت » في العقل الصرف لا نعلمها علما يقينا :

يقولون ان الجسم ينقل روحه الى غيره حتى يهذبها النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة اذا لم يؤيد ما اتوك به العقل

يتضح لكل من اشتغل في فلسفة الاخلاق ان لـ (كانت) مذهبا خاصا عرف بمذهب الواجب ، فهو بعيد عن العواطف ويقول في مقال له عن دوافع السلوك الاخلاقي انه يعمل عن شعور في الواجب واحترام للقانون (ويقصد بالقانون الباطني منه لا الظاهري) ، لا عن حب وميل وهوى • فان الحب في نظره من متعلقات الاحساسات لا من متعلقات الارادة، والارادة هي من متعلقات العقل وهو لا يقدر ان يحب لانه يريد • ان ربط الارادة بمذهب «كانت» العقلي ضرورة لا بد منها ، فالارادة كما نعلم تكون نتيجة ترو وبصيرة ، فالاعمال غير المتعلقة لا يمكننا

ان نسميها اعمالا ارادية بل اعمال طيش وحماقة ، فلا اللذة هي هـــدف السلوك الاخلاقي بل الواجب وان كان مرا •

كذلك لم يكن عند المعري ميل غرامي ، وان احسسنا بشيء طفيف من ذلك في دور الشباب في ديوانه سقط الزند ولكن غالب الظن ان ذلك كان متكلفا • نعم ، اننا لا نرى مذهب تمجيد الواجب لـ (كانت) بعينه عند المعري ، ولكننــا نرى بعض تصريحات في اللزوميات تذكرنا بفكرة (كانت) في ذلك •

فاجتناب الشر في زعمه لحرمان صعب على الانسان كما في اتيانه للذة ، ولكن طريق المجد يتطلب اقتحام الصعاب •

والشر اغلب عصبــة جمعـــت لنــا   اقـــذاء دنيانــا وفــذ غــاســـل
عسلـــت قنــا وخوامــع وثعالـــب   اعقـت جنا واطـاب نحـل عاسـل
والنفع لـم يكمـل به ولكن لـــه   ضير وكـم اردى الغريق سلاسـل
نهـج العلا يضني الركـاب وكلنــا   كسلان دون المجـد او متكاســل

فاتباع العقل الذي يعقل الشرور اي يمنعها لصعب جدا ، والسير مع الميول سهل ولكنه يؤدي الى الحضيض • هذا المذهب الكانـتي يقول به المعري ايضا :

يتحارب الطبع الـذي مزجت بـــه   مهـج الانـام وعقلهـم فيفلـــه
ويظـــل ينظـر ما ســناه بنافـــع   كالشمس يسترها الغمام وظلـــه
والعقل فـــي معنـى العقال ولفظـه   فالخـــير يعقل والسفاه يحلـــه

وفي محل آخـر يقـول :

بـين الغريـزة والرشـاد نفـار ،   وعلى الزخـارف ضمـت الاسفـار
واذا اقتضيـت ، مع السعادة كابيـا   أوريته نـــارا ، فقيـل عفــار (١)

فهو اذن بعيد عن الابيقورية خلافا لما يدعيه صاحب « تجديد ذكرى ابـي العلاء » و « مع أبي العلاء في سجنه » •

ولا يكتفي المعري كما فعل « كانت » ايضا بالمدد مـن العقل الصرف بـل

---

(١) العفار : شجر يتخذ منه الزناد ، وسيأتي ذكره في بحث النبات من المعارف الطبيعية لابي العلاء

نظر ايضا الى الواقع والى الجماعة البشرية في احوالهم المختلفة فرأى كل منهما في السلوك الطيب سعادة وفي العاطل شقاء مميتا ، ولكي نعرف تأثير الشيء فلنعد الى المشاهدة والقياس المنطقي او كما قال شاعرنا :

ميز اذا انكل الغمام وميضه — فالبرق يخبر اين يسقط للـه

لا نجد عند حكيمنا العقل والتجربة منبعي المعرفة فحسب ، بل نكاد نلمس فكرة العقلين ايضا :

هي غربتان فغربة من عاقل — ثم اغتراب من محكم عقله

نحن اذن هنا امام كشف جديد في عالم تاريخ الفكر، واذا اتيح لنا ايصال صوتنا الى عالم الغرب ، فسيكون لهذا الكشف شأن عظيم ، فتزيد بذلك قيمة شاعرنا العالمية • ان كثيرين من الغربيين مع الاسف لا يزالون يحطمون من قدر شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ، فترى دي بور الهولندي في كتابه الشهير عن تاريخ الفلسفة في الاسلام يهزأ بالمعري ظنا منه ان بعض الناس قد غلا في رفع شأنه وجعله شاعرا فيلسوفا ولكنه على زعمه لم يأت بشيء جديد ، وان افكاره مبتذلة ومتكلفة ، ومن الغريب ان ابو ريدة المصري احد اساتذة كلية الاداب بجامعة فؤاد الاول مترجم الكتاب الى العربية لم يعلق على ذلك بشيء •

اذا علم الغربيون ان شاعرنا سابق للفيلسوف الكبير الذي احدث انقلابا في عالم الفكر الاوروبي ، او لو عرفوا ان كثيرا من مبادىء « كانت » موجودة عند ابي العلاء لنظروا اليه بغير النظرة التي نظروا اليها ، ولانكبوا على دراسته ولم يتفوهوا بحكم جائر في حقه •

لم يتح طبعا لابي العلاء ان يحدث انقلابا فكريا كما اتيح للفيلسوف «كانت»، ولكن ذلك لا يقلل من قدر شاعرنا ، فالبذور التي غرسها لم تجد حظا في النمو كما وجدت بذور الفيلسوف في الغرب • ولعل المعري سابق بافكاره لزمنه بعصور لم يفهمه احد فهما جيدا • وعلى ضوء دراسة مذهب « كانت » في الدين ضمن نطاق العقل ، سوف يخرج حكيمنا العربي الى العالم برسالة جديدة قام بها ، لا اظن احدا قبله قام بذلك • فكما فرق « كانت » الدين الى قسمين : الفطري والتعليمي يكون الاول بالايمان بالله واليوم الآخر والسلوك الحسن في الحياة ،

والثاني بالقيام بالطقوس الظاهرية التي هي في زعمه مـن القشور ، كذلك فعل ابو العلاء • طبعا ان المعري لم يعمل مثل هذه التقسيمات ظاهرا ، حتى انه عند الكثيرين يناقض نفسه ، تارة يعتقد واخرى يلحد ، ولكن لدى دراسة آثاره بامعان وتبصر نرى هذه المتناقضات تتلاشى في حياته الفكرية ، ويظهر انه لا يعلن حربا شعواء الا على سفاسف الدين وقشوره التي شوهت الضمير وافسدته ، ولا يحب الا جوهر الدين ، الدين الفطري او كما يقول :

وذكرت ربـي في الضمائر مؤنسـا ... خلـدي بذاك فأوحشـا خلديكما
وبكرت في البرديـن ابغي رحمـة ... منـه ولا ترعـان في برديكمـا
ان لـم تعـد بيدي منافـع بالـذي ... آتي فهل مـن عائـد بيديكمـا
برد التقـى ، وان تهلل نسجـه ... خـير بعلـم الله مـن برديكمـا

او كما قال في الايك والغصون : (من يذكر بلسان ، ويفعل افعالا غـير حسان ، فبعد ذلك من انسان) • جريا على هذا التفسير نستطيع ان نحل لغـزا معقدا ، وهو ما سر التناقض في ابي العلاء ، ولماذا كان ينفي تارة ، ويثبت اخرى ؟ او كمـا يقول في لزومياته :

ويعتـري النفس انكـار ومعرفـة ... وكـل معنى لـه نفي وايجـاب

اذا سألنا « كانت » عن توضيح ذلك اجاب ان انكار المعرفة هي في العقل الصرف ، واثباتها في العقل العملي لضرورة الحياة ، كما ذكرنا ذلك على لسـان ارسطو والسهروردي ، فشك المعري بعالم الغيب آت عن ضيق مدركاته بالاحاطة بالمعميات الخفية ، وهذا الرأي ينطبق مع ما ورد عن « كانت » بانه عاشق لمـا وراء الطبيعة ، ولكن محبوبته لم تبح له عـن سر جمالها وكما يقول المعري :

امـا اليقين ، فـلا يقـين ، وانمـا ... اقصى اجتهـادي ان اظن واحدسـا

او :

العقـل يخـبر انني في لجـة ... مـن باطـل وكذاك هـذا العالـم

ويصرح اكثر من ذلك :

سأرحل عـن وشك ولست بعالـم ... علـى أي أمـر لا أبـالك اقـدم

نجد عند كلا الحكيمين جبرية محضة ، مستمدة من العقل المجرد اقام عليها « كانت » برهانه في نقده للعقل الصرف وذكرها المعري غير مرة في اللزوميات :

لعل نجوم الليل تعمل فكرها ... لتعلم سرا فالعيون نواهد
خرجت الى ذي الدار كرها ورحلتي ... الى غيرها بالرغم والله شاهد

وقدرية مستمدة من العقل العملي ، تقر بحرية الارادة اذا سمح لا تقسنا استعمال لغة « كانت » هنا :

نشكو الى الله انا سيئو شيم ... نحن العبيد وفي آنافنا عبد
والمرء ظالم نفس تجتني مقرا ... يظنه الشهد والظلمان تهتبد

او :

نشكو الزمان وما أتى بجناية ... ولو استطاع تكلما لشكانا

وفي هذا الصدد نجد عند المعري مصدر ادراك الزمن من النفس او كما يقول « كانت » انه سابق للتجربة ومن ايجاد العقل ، فيشهد المعري في رسالة الغفران بقوله ابي صخر على تفسية الزمن :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ويذهب المعري هنا مذهبا جديدا فيحدثنا عن الزمن الوجودي الحديث الذي تكلم لنا عنه عبد الرحمن بدوي في الاديب (ايلول ١٩٤٤) مؤداه ان الوجود هو زماني في جوهره وطبيعته ، وتبعا لهذا فان كل ما يتصف بصفة الوجود لا بد ان يتصف بالزمانية ، فلا شيء فوق الزمان او خارجه ، فصفة الزمانية تطبع كل موجود بطابعه ، ويعبر المعري عن ذلك اجلى تعبير في رسالة الغفران : (الزمان شيء اقل جزء منه يشتمل على جميع المدركات) .

نحن اذن هنا لا امام مقارنة جديدة بين شاعر الشرق وفيلسوف الغرب ، بل امام دراسة لناحية جديدة من نواحي الحكمة العلائية ، غفل عنها الباحثون ، والسبب في ذلك أنها مبعثرة بين طيات اشعاره ورسائله تحتاج لأن تضم الى بعضها بهدوء واناة بعد نبذ الغثاء واخذ ما ينفع ، ومن يفعل ذلك تبين له ، ان شاعرنا الفذ لا يود الا نبذ قشور الدين الزائفة والتمسك بجوهره .

من اعجب ما في هذين النابغتين اتفاقهما في ظواهـــر الحياة ، في المـــرأة فـ « كانت » لا يرى لزوما في ولوج المرأة معضلات العلم والمعري يرى ضرورة بقائها في منزلها وتعليمها الغزل والنسيج ، اما عدم زواجهما فكما بين من اعتنـى بتاريخ حياة « كانت » هو لعجز ، وكذلك بين لنا امين الخولي الاستاذ في كلية الآداب في جامعة القاهرة (الاديب عدد المعري الخاص) ان سر عدم زواج المعري هـو عن العجز ايضـا .

كان المعري يحب العزلة ، و « كانت » كان يحب العزلة ايضا ، ولم يخرج عن المدينة التي ولد فيها الا لمسافات قصيرة . فكان يهرب من الاختلاط هروب الحمل الخائف من الذئب الوحشي . ولكن يجب ان نعلم ان هذا الهروب مـن كليهما غير ناشيء عن بغض للناس ، و « كانت » كتب عدة رسائل اجتماعية لخير البشرية ، وهو الذي دون فكرة عصبة الامم وانهاء الخلافات بالتفاهم لا بالحروب الدموية ، والمعري يقول ايضا في الأيك والغصون : « اذا كان جليس الرجل يعينه على طاعة الله فالمجالسة افضل من التوحيد ، واذا كان الجليس يغمسك في المعصية فبادر الاخلاء ، او كما يقول في سقط الزند :

ولو انـي حبيـت الخلـد فـردا ... لمـا احببت بالخلـد انفـرادا
فـلا هطلـت علـي ولا بارضـي ... سـحائب ليس تنتظـم البـلادا

ويقول في اللزوميات :

لـو كـان لـي او لغيري قيد انملة ... من البسيطـة خلـت الامر مشتركـا

كان المعري كـ « كانت » محبا للشعب ثائرا على الظالمين من الامراء ، يريد سيطرة العقل والاصلاح :

مـل المقـام فكـم اعاشر امـة ... امرت بغـير صلاحهـا امراؤهـا
ظلمـوا الرعية واستجازوا كيدهـا ... فعدوا مصالحهـا وهـم اجراؤهـا

او :

لم ارض رأي ولاة قـوم لقبـوا ... ملكـا بمقتدر وآخـر قاهـر
هذي صفات اللـه جـل جلالـه ... فالحق بـين هجـر الغواة مظاهـرا

اما ثورته على الظالمين من الحكام فنقرأ عنها في اللزوميات :

يسوسون الامور بغير عقل فينفذ امرهم ويقال ساسة
فأف من حياة واف مني ومن زمن رئاسته خساسة

فيرى الناس اكفاء لولا النفوس المختلفة لا للحسب والنسب ، فيقول في الأيك والغصون : (لولا تفاضل نفوس البشر وجدوا اكفاء) •

ومن يقرأ هذه الاشعار والمثل المضروب بامعان يتأكد ان المعري كان نصيرا لفكرة الثورة الفرنسية التي كان يتحمس اليها « كانت » ايضا ، فهما رغم القرون متفقان بالفكرة • حتى ان المعري قد تفوه بافكار اشتراكية في لزومياته :

ويا بلادا مشى عليها اولو افتقار واغنياء
اذا قضى الله بالمخازي فكل اهليك اشقياء

اما قضية الامر المطلق التي قال بها « كانت » وهي : (يجب ان تعمل بصورة يكون الدافع على عملك يمكن ان يتخذ قانونا عاما لجميع البشرية) وان لم يقلها المعري حسب اطلاعنا حرفيا ، ولكنه قد عمل بها ، والا فأي دافع من دوافع اعماله لا نلمس فيه النية الطيبة ، ولا نستطيع ان نتخذه قانونا ؟ •

قد يطرق على الفكر ان فلسفة « كانت » قد اقتبست منهجها من بذور الحكمة العلائية لأسبقية المعري ، والفضل لمن سبق • غير انه يظهر ان « كانت » لم يقتبس فلسفته من ابي العلاء او بالاحرى ان رسالة « كانت » عن الدين ضمن نطاق العقل لم تتأثر من حكيم المعرة للاسباب الآتية :

١ ــ لم يخبرنا احد من مدوني تاريخ حياة « كانت » عن اهتمامه بالشعر وان تعمق في الفن وقوانينه •

لم نعرف للفيلسوف اي اتصال بالشرق ان رأسا او بواسطة المترجمين ، او عن طريق الرحالين • ان من دون لنا حياته يحدثنا بانه كان له ولوع بمحادثة الاجانب الآمين (كونيغسبرغ) وخاصة البريطانيين منهم الذين يصفهم بخبرتهم باحوال الامم ، ولكن ليس ثمة حديث عن الشرق اصلا•

٣ ــ عاش « كانت » في ابان النهضة الاوروبية فلم يعد يرى الغربيون في الآثار الشرقية نبراسا يهتدون به ، كما كان من قبل من تأثير الاداب الشرقية على الغربية حسب ما نوه به المستشرق الانكليزي « جيب » في مقاله الممتع عن الادب الشرقي وتأثيره في الغرب ، من ضمن كتاب شهير عنوانه « تــراث الاسلام » الشهـير •

٤ ــ مما يحكيه لنا الفيلسوف عن الشرق اثناء حديثه عن طبائع الامم او في رسالة الدين ضمن نطاق العقل المتقدمة الذكر ، نستدل دلالة واضحة على ضعف معلوماته عن الشرق وخاصة الاسلامي منه ، اما عن العربي فتكاد تكون معدومة •

كل هذه الادلة تبين لنا ان « كانت » لم يقتبس افكاره عن ابي العلاء لكنه تابع سير الفلسفة باسلوب محكم ومنظم كما بينا دون ان يعلم عن الادب العربـي شيئا ، وجل ما في الامر رغم تشاؤم احدهما وتفاؤل الآخر ان هناك قرابة روحية، قرابة في النزعة العقلية ، ،والقناعة التامة في النظر الى الكون بمنظار العقـــل ، المقياس الذي اتخذه كلاهما في تفسير عالم الشهادة والغيب ، ولو صح ان للتراكيب الجسمية دخل كبير في سلوك الانسان وتفكيره للزم ان يكون هناك تقارب فـي تركيب الدماغ وباقي العضويات •

لما بينا نرى انه لا غرابة بوجود التشابه الشديد بين هاتين الشخصيتين ، اذا قلنا التشابه فلا تقصد بذلك التطابق التام ، لان هناك نزعات اخرى عند ابي العلاء كما بينا في مقدمة بحثنا تشبه غيره من المفكرين ، على كل فالمعري حكيم عقلي وان استخدام الشعر في التعبير عن اغراضه ، ولو لم يستعمل تلك اللغة الفنية لما تركنا في حيرة من امره ، ولكننا اذا تتبعنا آثاره بدراسة جدية ، نجد عنده كما عنـــد الفيلسوف المقصود في البحث ، الدين في اطاعة النهى والالحاد في عصيانــه ، او كمـــا يعبــر شاعرنـــا :

ايهــا الملحـــد لا تعصـــي النهـــى فلقـــد صـــح قيـــاس واســـتمر

يتلخص معنا ان اتفاق « كانت » والمعري في تفسير الدين تفسيرا عقليـــا ، فهما يؤمنان بالله واليوم الآخر ، ويكرهان الرياء في الدين، ويريدان العمل الخالص لوجه الله ، نابذين الرياء والغش ، مع تحرير العقل من جميع القيود ، جاعلانه اماما

في كل شيء (رغم ضيق حدوده في ادراك المغيبات) ، ناقدين بنفس الروحية كل ما وصلت اليهما من اخبار ، متتبعين جوهر الدين ، نابذين قشوره ، متهكمين بالطقوس والظواهر ، ساعيين لخير البشرية والثورة على الظلم . فشيئان يملأان قلبيهما بالاجلال والاحترام : القانون الاخلاقي في صدريهما والسماء المزينة بالنجوم فوق رأسيهما ، كما صرح بذلك « كانت » في نقده للعقل العملي وكما اومأ الى ذلك المعري في اللزوميات ، فيقول مشيرا الى الكواكب :

ولهن بالتعظيم في خلدي ... اولى واجدر من بني فهر

او :

سراجك في الدجنة عين ضار ... والا فالكواكب خير سرج
متى كشفت اخلاق البرايا ... تجد ما شئت من ظلم وحرج

فنور معرفته يستمدها من الكواكب الساطعة ومن صدره ، لا من أخلاق الناس :

وانظر الى تفسك اللومي بمنظرها ... ولو غدوت اخاملك وتتويج

او :

بني زمني هل تعلمون سرائرا ... علمت ولكني بها غير بائح

فيا رجال الفكر في اطراف العالم ، ارفعوا الحواجز والسدود التي بنيتموها حول الاشخاص ، وازيلوا الستائر الكثيفة التي وضعتموها على اعينكم ، عند ذلك تبصرون ما هو جدير بالاعجاب والاجلال ، فتتزعزع نفوسكم الدهشة ، عندما تعلمون بالاخوة الحقيقية بين الرجال العميقي التفكير ، وان بعدت بينهم اواصر الدم والزمن والمكان .

حول الاشخاص التي بنيتموها حول الاشخاص ، وازيلوا الستائر الكثيفة التي وضعتموها على اعينكم ، عند ذلك تبصرون ما هو جدير بالاعجاب ولاجلال ، فتزعزع نفوسهم الدهشة ، عندما تعلمون بالاخوة الحقيقية بين الرجال العميقي التفكير ، وان بعدت بينهم اواصر الدم والزمن والمكان .

أبو العلاء المفكر الحر

اللب قطب والامور له رحى فيه تدبر كلها وتدار

حينما يسير السائح في صحراء قاحلة يطير فرحا عندما يهتدي الى واحة يانعة يتدفق فيها نبع صاف زلال ، فيستريح من وعثاء السفر ويروي ظمأه من مائه العذب ، دون ان يكلف نفسه عناء البحث عن اصل ذلك الماء الذي تجمع في هذا المكان النائي • ولعل من يفكر تفكيرا سطحيا يزعم ان الماء قد انبجس فجأة دون مصدر سابق، وهو كامن في بطن الارض منذ الازل وسيبقى فيها الى الابد ، ولكن عالم الطبيعة لا يعرف هذا الجمود ، فالتحول المستمر هو سنة الكون ، وكل نبع نراه امامنا لا بد له من اصل استقى منه ، فذرات هذا الجسم البراق الصافي قد اتت من محل بعيد ، من البحر الواسع ، فتجمعت في الجو كغيوم ، ثم هطلت كامطار وعلى حسب كميتها وما احتملته من غاز الفحم جرفت معها بعض ذرات الاتربة وحملت بعض اقسام الصخور ، فتعكر الماء واضطرب في سيره الى ان استقر في مكان معين ، فالمواد الترابية المختلطة بالماء ترسبت في قرار الينبوع رويدا رويدا وما انحل بها سكن حيث سكن الماء • وكذلك الفكر البشري فانه لا ينبجس فجأة الا بعد ان يستقي من خضم بعيد ، وعندما يهطل في الشخصية يضم معه ما تهضمه النفس وما لا تهضمه ، فتتجمع في قراراتها نزعات عديدة ، فتضطرب المشاعر وتتعكر النزوات فما لا يمتزج بالروح يترسب ببطء ويبتعد عن الذات ، وما تمثله العقل امتزج تمازجا قويا ، وهكذا في دور النضوج تتكون الشخصية ذات الميزة الخاصة •

لا ادري هل يحق لي هذا التشبيه المادي في عالم الفكر ، العالم المجرد عن المادة ام لا ؟ ام اني استوحيت هذه الصورة من عالم الشهادة ، لاني ما ولجت الى مملكة العقل الا من باب العالم المحسوس • وبزعمي ان هذه الطريقة صائبة في كوننا الارضي ، اما ما فوق ذلك فما اوتينا من العلم به الا قليلا •

انه لصعب جدا على ضوء هذه القاعدة ان نحلل عبقرية فذة انبجست امامنا

فجأة كعبقرية ابي العلاء الخالدة على مدى الدهور ، فاذا كنا عاجزين عن تحليل شخص عادي يعيش بين ظهرانينا ويريد ان يصدقنا الخبر بما يعانيه من ازمات نفسية ، فما بالك بنابغة يود ان يكتم لنا الخبر ، فيثمير ويرمز ، وتفصلنا عنه مسافة الف عام من عالم الزمن الماضي الذي لا رجوع له •

ان ما يجلب نظرنا في حياة هذه الشخصية التشاؤم ، لربما كان لذلك مبرر مما انتابه من العمى ومن قساوة البشر التي شاهدها ، ولكن ذلك لا يشكل سببا جوهريا اذا لم يكن هناك دافع نفسي يحمل على هذا الامر • ويمتاز حكيمنا الى جانب ذلك بتهكمه على هذه البشرية وعقائدها ومذاهبها واديانها ونحلها ، وعلى اطلاعه على الحركة الثقافية التي كانت في عصره • ومن دواعي الابتهاج ان نرى انه لم يتأثر بفلسفة يونانية رغم انه علم شيئا عنها ، فقد بقي عربي النزعة نقادا للاخبار بصورة هائلة ، لا اعرف اديبا عربيا غيره جاراه او قاربه ، ومن سخرية الاقدار اننا لا نقيم له وزنا في النقد الادبي • فان كنا نفخر به فانما نفخر بالنبوغ العربي باجلى مظاهره ، فهو يمثل الفكر العربي الصافي البراق •

حتى ان بعض من ادعى الادب قد ضرب صفحا عن كثير ما تفوه به المعري ، فعندما نشر رسالته الفريدة بدلا من ان ينشرها كاملة ، حذف منها اشياء كثيرة ، ولا اظن ان الجرأة في عدم التقدير تصل الى هذا الحد ، وما يدريك لعل فيما حذفته ايها الاديب قيمة عظيمة ، فالحكم لا يبنى على نص ابتر ، بل على نص كامل ودراسة جدية •

من الخطأ جدا الغلو في تشبيه رسالة الغفران للمعري بالألعوبة الالهية لدانتي ، فان كان هناك تشابه فبالموضوع فقط اما من جهة المعالجة ، فهناك فرق كبير • تمتاز اناشيد دانتي بالصور الخيالية التي ابدعها مثبتا بذلك عقائد عصره ، اما ابو العلاء وان كان لا يجاري دانتي بسمو خياله وابداعه الفني ، ولكنه يفوقه بالاستقلال الذاتي والحكم الشخصي على النزعات السائدة في عصره ، فهو في هذه الرسالة ينادي بالرجوع الى العقل والى حياة البساطة ، كما ينادي بذلك في « لزوم ما لا يلزم » • فهو مفكر واديب ومصلح ، ويشبهه بعض المستشرقين من هذه الناحية بتولستوي الاديب الروسي الشهير • ومهما يكن من غموض في مذهب ابي العلاء فهو قد انتقل اخيرا من الشك الى اليقين • وبالرغم من كثرة تلاميذه

والمعجبين به ، فان مدرسته قد تلاشت ، ولم يتح لاحد من تلاميذه النجباء ان يحمل الجذوة المتقدة التي اشعلها المعري كما اتيح لافلاطون الفيلسوف الالهي ان يتابع حمل شعلة استاذه سقراط وان في هذا الامر لعجبا ولسرا غامضا .

لم يكن المعري مبتكرا الا بعد ان قام بدراسات واسعة ، ولولا هذه الدراسات لما اتانا بشيء يستحق الخلود ، ومن العبث ان يحاول الانسان ابداعا قبل ان يتعلم من غيره تعليما جديا . وان في حياة ابي العلاء دليلا كبيرا وحجة بالغة على هذا الزعم فانه من الخطأ الاعتقاد بامكان الابتكار دون الالتفات الى من سبق ، واذا نظرنا الى ابي العلاء باعتباره مفكرا ظهر لنا انه مطلع على مشاكل زمانه اطلاعا مدهشا ، ولا يكتفي بالاطلاع بل يحاول ان ينقد ويناقش بجرأة وحرية ، فهو من هذه الناحية يؤلف بين ما تعلمه من غيره وبين ما ابدعه من ذاته . لقد كان الناس قديما يسعون الى تبيان مصادر الشخصية حتى اذا اثبتوا ان جل ما قاله مفكر قال به الاقدمون انكروا عليه كل حق مكتسب ، اما اليوم فلم تعد طريقة بيان الافكار المأخوذة والآراء المستمدة في البحث الادبي طريقة عصرية ، لان ذلك لا يبين لنا خصائص طابع الشخصية وميزاتها فالمعول اليوم على طريقة فهم الشخصية لهذه الآراء والافكار المتعلمة من جهة وما فعله الشخص المبدع لهذه الاشياء المقتبسة من جهة اخرى .

جريا على ما قررناه لا بد لنا ان نطالع امهات المذاهب التي عالجها المعري ورأيه الخالص في ذلك ليتضح لنا جليا اننا هنا امام شخصية لا تقبل الاشياء على علاتها بل تدقق وتمحص مبينة بذلك الرأي الخاص كما وصل اليه العقل السليم والفطرة التي لم تهدمها عوامل التقليد الاعمى .

ان اول ما يجلب نظرنا في ابي العلاء نقده لرجال الدين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ، فتراه يقول :

رويدك قد غررت وانت حر ... بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا ... ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء ... وفي لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهي ... فمن جهتين لا جهة أساء

اما ما ينسب اليه من الشعر : (في اللاذقية ضجة .. الخ) فان صحت النسبة اليه فهو يتعجب من تقاتل اهل الاديان مع ان الحقيقة العميقة الغامضة واحدة . اما التدين الظاهري فهو في نظره رياء : (ويحتمل ان يظهر الرجل بالقول تدينا وانما يجعل ذلك تزينا . يريد به ان يصل الى ثناء ، او غرض من اغراض الخالبة ام الفناء . ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون) .

رسالة الغفران

ومن ذلك قوله :

اجاز الشافعي فعال شيء — وقال ابو حنيفة لا يجوز
فضل الشيب والشبان منا — وما اهتدت الفتاة ولا العجوز
اقد نزل الفقيه بدار قوم — فكان لامرهم فيهم يجوز
ولم آمن على الفقهاء حبا — اذا ما قيل للامناء جوزوا

ويعمم في محل آخر ويقول :

مذاهب جعلوها من معايشهم — من يعمل الفكر فيها تعطه الارقا
وكلنا قوم سوء لا اخص به — بعض الانام ولكن اجمع الفرقا

ويقول ايضا :

متى كشفتم عن حقائق دينكم — تكشفتم عن مخزيات الفضائح

يضيق المجال عن ذكر جميع الآراء التي ذكرها في هذا الصدد وما اتهم به جميع اهل الاديان والمذاهب .

وكذلك :

لا تبدأوني بالعداوة منكم — فمسيحكم ، عندي نظير محمد
ايعيث ضوء الصبح ناظر مدلج — أم نحن ، اجمع في ظلام سرمد

الى ان يقول :

ان كنت من ريح ، فيا ريح اسكني — او كنت من لهب ، فيا لهب اخمد

وينسب اليـه :

هفـت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ... ويهـود حارت والمجوس مضللـة

اثنان اهـل الارض ذو عقـل بـلا ... ديـن وآخـر ديـن لا عقـل لـه

فاذا صح نسبة مثل هذه الاشعار اليه ، فهي يمكن تفسيرها من دور قلقـه او ان الواقع كذلك ، خلافا للرسالة الدينية السامية التي يلزم ان تكون • وكل شيء على رأي المعري له نفي وايجاب •

ويعتـري النفس انكـار ومعرفـة ... وكـل معنـى لـه نفي وايجـاب •

وفي كل تطوراته الفكرية لا ينكر سلطان العقل ، وان وجد قدرة فوقها :

سأتبـع مـن يدعو الى الخير جاهدا ... وارحل عنها ما امامي سـوى عقلي

ولا يوجد اي مبرر في تكذيب العقل :

تستروا بأمـور فـي دياتهـم ... وانما دينهـم ديـن الزناديـق

نكذب العقل في تصديـق كاذبهـم ... والعقل أولـى باكـرام وتصديـق

والعقل اوصله للاقرار بوجود الله ، فهو يعجب من الطبيب الـذي ينكـر الخالق بعد درسه التشريح ومن ناحية واحدة يجد ان كسر الاجسام لا يمكن جبره

ضحكنـا وكـان الضحك منا سفاهة ... وحـق لسكان البرية ان يبكـوا

تحطمنـا الايـام حتى كأننـا ... زجاج ولكـن لا يعـاد لـه سبـك

ومن ناحية اخرى لكن يقـول :

قـال المنجم والطبيب كلاهمـا ... لا تحشر الاجسـام قلـت اليكمـا

ان كـان رأيكمـا فلسـت بخاسر ... او صح قولـي فالخسار عليكمـا

اما تماسكه مع الفلاسفة فنستدل عليه بقوله (رسالة الغفران) : (فلما ضرب الاسلام بجرانه واتسق ملكه على اركانه ، مازج العرب غيرهم من الطوائف ، وسمعوا كلام الاطباء واصحاب الهيئة واهل المنطق ، فمالت منهم طائفة كثيرة •) • وينقل لنا خبرا عن خادمة كانت تخدم في دار العلم ببغداد على زمان ابي منصور محمد بن علـي

الخازن الذي مدح في سقط الزند بقصيدة ستية وقد ذكر ابن الحسن البصري كما مر معنا في بحث التطور الفكري • ولم نجد اي ذكر لفيلسوف اسلامي او يوناني الا ذكر ارسطوطاليس والرد عليه :

لو صح ما قال رسطاليس من قدم — وهب من مات لم يجمعهم الفلك
ومذهبي في البرايا كونهم شيعا — كالثلج والقار منه الجون والحلك
ان تسأل العقل لا يوجدك من خبر — عن الاوائل الا انهم هلكوا!

ويأتينا برأي آخر عن الفلاسفة :

زعم الفلاسفة الذين تنسطوا — ان المنية كسرها لا يجبر
كذب يقال على المنابر دائما — افلا يميد لما يقال المنبر

ويذكر لنا ياقوت في مراسلات داعي الدعاة الفاطمي ان المعري قال له انه لو ناظر ارسطو لجاز ان يفحمه وافلاطون لنبذ حججه خلفه • ويذكر ايضا ان نظره في الكتب القديمة وما حكي عن جالينوس اورثه حيرة ، وفي اللزوميات يقول :

وادواء ثرى بقراط ميتا — وجالينوس فاد وما دواها

او :

بقراط عمري وجالينوس ما سلما — والحق انهما في الطب فذان

وعنهما يقول ايضا :

ايمن بقراط والمقلد جالي — نوس ؟ هيهات ان يعيش طبيب

وعن سقراط وابقراط يقول :

ولم يدفع ، ردى سقراط ، لفظ ، — ولا بقراط حامى عنه طب

وكذلك عن العناصر الاربعة :

الخلق من اربع مجمعة — نار وماء وتربة وهواء

ويرى طه حسين في (تجديد ذكرى ابي العلاء) ان رأي حكيمنا بسكون الله بجانب حركة العوالم توافق ارسطو خلافا للمتكلمين :

اما ترى الشهب في افلاكها انتقلت　　　بقدرة من مليك غير منتقل

ومن رأي هذا الاديب ان حكيمنا يتردد بين المذهب الافلاطوني للروح وبين المذهب المادي ، اما مذهب افلاطون كما يرويه لنا ، فقد عرف في الشرق منذ زمن طويل ، وعلى رأيه ايضا ان للمعري تنويهات عن قدم المادة والعوالم والزمان والمكان ويزعم انه اقتبسها من قدماء اليونان .

نستغرب عدم ذكر المعري للفلاسفة الاسلاميين ، سواء الذين تقدموه كالكندي والفارابي والرازي والجاحظ ، ولا عن البيروني وابن الهيثم المعاصرين له (ويذكر الجاحظ مرة واحدة ، انظر المعارف الطبيعية) . ولم يذكر لنا غير ابن زرعة وابن سمح :

واصحاب الشريف ولا تساو　　　كأصحاب ابن زرعة وابن سمح

وللمعري تفسير خاص للزمان والمكان فينتقد اولا قول القائل ان المكان ثابت والزمن يجري ويتحول :

اما المكان فثابت لا ينطوي　　　لكن زمانك ذاهب لا يثبت

قال الغوي لقد كبت معاندي　　　خسرت يداه بأي امر يكبت

والمرء مثل النار شبت وانتهت　　　فخبت وافلح في الحياة المخبت

وحوادث الايام مثل نباتها　　　ترى ويأمرها المليك فتنبت

واذا الفتى كان التراب مآله　　　فعلى م تسهر امه وتربت

ان كانت الاحبار تعظم سبتها　　　فأخو البصيرة كل يوم مسبت

هذه الفكرة الفلسفية العميقة اذا صحت نسبتها اليه يكون حكيمنا العربي دان لمذهب هرقليط بالجريان الدائم والتحول المستمر ، واذا لم يقتبسها عن احد فيكون فيها مبتكرا الى حد بعيد . ومما يؤيد هذه الفكرة ايضا ما نسب اليه في رسالة الغفران : (وقول بعض الناس ان الزمان شيء كما تشتمل عليه الظروف) . فاما الكون على رأيه فلا بد من تشبثه بما قل وما كثر . ويتمثل باشعار كثيرة من جملتها قول ابي صخر :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها　　　فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

ولكن يفكر في علاقة الخالق بالزمان والمكان فيقول :

قلتم لنا خالق حكيم | قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان | ولا زمان الا فقولوا
هذا كلام خبيء | معناه ليست لنا عقول

ويظهر لنا نقادا لمذاهب الهنود ، ويعتقد الراجكوتي ان الحكاية التي ذكرت في رسالة الغفران من تحريق الهنود موتاهم وان كان فيها تهكم ولكن حسب هذا المحقق الهندي ليس فيها ذرة من المبالغة «١» •

اما باقي المشكلات الفلسفية المحضة على النهج اليوناني القديم فلا وجود لها في تفكير المعري ، فهو حكيم عربي اكثر من ان يكون فيلسوفا يتتبع خطوات الاقدمين من بني الاغريق • ومن الغريب في تفكيره ان نجد له رأيا يذكرنا باخوان الصفاء «٢» لا ندري ايهما اقتبسه عن الآخر :

يجوز ان تطفأ الشمس التي وقدت | من عهد عاد واذكى نارها الملك
فان خبت في طوال الدهر حمرتها | فلا محالة من ان ينقص الفلك
مضى الانام فلولا علم حالهم | لقلت قول زهير اية سلكوا
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا | منه فكيف اعتقادي انهم هلكوا ؟

فاذا كان المعري هو المبتكر لهذه الفكرة فقد سبق لافوازيه بقانون بقاء المادة بعصور ، اما نقصان نور الشمس الذي يعلل اليوم تعليلا ينطبق على نظريات الراديو الفعال فيجوز ان يكون اقتبسها المعري عن القرآن (اذا الشمس كورت)، اي تناقص نورها • وما يوجب اعجابنا ايضا تشبيهه للروح بالطير بكيفية تذكرنا برسالة الطير لابن سينا :

رب روح كطائر القفص المسـ | ـجون ترجو بموتها التسريحا

ويتعجب من الطبيب الذي يلحد في الخالق :

«١» الراجكوتي ، ١٤٩ ، رسالة الغفران « هندية » ١٥٣

« ٢ » راجع مقالي العلوم الطبيعية عند اخوان الصفاء : مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ايلول ــ تشرين الاول عام ١٩٣٢ •

عجبـــي للطبيـــب يلحـــد في الخا　　لـــق مـــن بعد درســـه التشريحـــا

يخال للانسان بعد ما ذكرنا ان المعري كان مـــن المعتزلة ، لانه ايضا يعتمـــد على العقل في تفسير الدين ولكننا اذا درسنا رسالة الغفران نراه يهاجم هـــذه النزعة مهاجمة عنيفة : (.. ان شيخ المعتزلة غير طاهر الردن ولا الذيل ، قـــد صير الجدل مصيدة ، ينظم به من الغي قصيدة ، وحدثت عن امام لهم يوفر ويتبع ، وكأنه من الجهل ربع ، انه كان اذا جلس في الشرب ، ودارت المســـكرة ذات الغرب ، وجاءه القدح شربه فاستوفاه ، واشهد من حضره على التوبة لما اقتفاه) . ويقـــول شـــعرا :

وجدت الناس فـــي هـــرج ومـــرج　　غـــواة بـــين معـــتزل ومرجـــي

والمرجئة هي التي لا تعطي كبير اهمية للاعمال وترجىء للايمان .

ولا يكتفي في مهاجمة رجال المعتزلة بل يهاجمها كمبدأ ايضا : (كم متظاهر باعتزال ، وهو مع المخالف في نزال ، يزعم ان ربه على الذرة يخلد في النار ، بلـــه الدرهم وبله الدينار ، وما ينفك يحتقب من المآثم عظائم ..) .

ومعتزلـــي لـــم اوافقـــه ساعة　　اقـــول لـــه في اللفظ دينك اجـــزل

او :

الـــــه قـــادر وعبيـــد ســـــوء　　وجـــبر فـــي المذاهـــب واعتـــزال

ولم يكتف بذم مذهب معين مـــن المعتزلة بل هاجم ايضا خصومهم الاشاعرة مؤيدي السنة : (والاشعري اذا كشف ظهر نمي ، تلعنه الارض الراكدة والسمي . انمـــا مثله مثل راع حطمة ، يخبط الاعماق الدهماء المظلمة ...) ويتعدى تهكمه حتى على ابي الهذيل العلاف : (ويحكي عن ابي الهذيل العلاف انه كان يمـــر في الاسواق على حمار ويقول يا قوم احذروا توبة غلامي ، وكان له غلام يعد نفسه للتوبة فسقطت عليه آجرة فقتلته ...)

اما المتصوفة فلا تسل عن نقده اياها ، وخصوصا في صورة بطلها الحسين ابن منصور الحلاج : (فاما الحسين بن منصور فليس جهله بالمحصور ، واذا كانت الامة ربما عبدت الحجر ، فكيف يأمن الحصيف البجر) وتهكم مذهب الحلوليـــة

ذاكرا بان الحلاج قال للذين قتلوه ، اتظنون انكم اياي تقتلون انما تقتلون بغلة المادراني ، وان البغلة وجدت في اصطبلها مقتولة • ويتعجب ابو العلاء بوجود من يرفع شأنه ويجعل النجم مكانه ، وقد بلغه ان ببغداد قوما ينتظرون خروجهم وانهم يقفون بحيث صلب على دجلة يتوقعون ظهوره ، ويعلق على ذلك (وليس ذلك ببدع من جهل الناس) • ويروي المعري شعرا لاحد الفتيان الذين عاصروا الحلاج :

ان يكن مذهب الحلول صحيحا … فالهي في حرمة الزجاج
عرضت في غلالة بطراز … بين دار العطار والثلاج
زعموا لي امرا وما صح ولكن … هو من افك شيخنا الحلاج

ويزعم ابو العلاء ان هذه المذاهب قديمة تنتقل من عصر الى عصر • ومما يرويه ايضا ان فرعون كان على مذهب الحلولية فلذلك ادعى انه رب العزة ، ويحكي شاعرنا عن رجل منهم انه كان يقول في تسبيحه ، سبحانك سبحاني وغفرانك غفراني ، ويعتقد ان هذا هو الجنون الغالب ومن يقول هذا القول معدود في الانعام ، وما عرف كنه الانعام ، ويروي لنا بيتا دونه دون ان يذكر مصدره :

انا انت بلا شك … فسبحانك سبحاني
واسخاطك اسخاطي … وغفرانك غفراني
ولم اجلد يا ربي … اذا قيل هو الزاني

ويرى ايضا ان الحلولية قريبة من مذهب التناسخ ، ويحدثنا فيما يحدثنا في رسالته عن رجل من رؤساء المنجمين من اهل حران اقام في بلد الشاعر زمانا ، فخرج مرة مع قوم يتنزهون فمر والثور يكرب فقال لاصحابه لا شك في ان هذا الثور رجل كان يعرف بخلف بحران وجعل يصيح به يا خلف ، فاتفق ان خار الثور ، فقال لاصحابه الا ترون الى صحة ما خبرتكم به • ويقص لنا حكاية اخرى ذكرها على قبيل التهكم ان رجلا رأى في منامه كأن ابوه يقول له يا ابني ان روحي قد نقلت الى جمل اعور في قطار فلان واني قد اشتهيت بطيخة ، قال فأخذت بطيخة وسألت عن ذلك القطار ، فوجدت فيه جملا اعور ، فدنوت منه بالبطيخة

فأخذها اخذ مريد مشيته • ومن الغريب ان المعري لا يعير ادنى اهتمام لمذهب وحدة الوجود مع انه حسب المصادر التي بين ايدينا قد توغل في مذهب الحلولية توغلا لا بأس به •

لا يقف المعري على مهاجمة شواذ الصوفية ، بل يهاجمها كمذهب :

صوفية ما رضو للصوف نسبتهم   حتى ادعوا انهم من طاعة صوفوا
تبارك الله دهر حشوه كذب   فالمرء منا بغير الحق موصوف
ان اثمر الغصن فامتدت اليه يد   تجنيه ظلما فليت الغصن مقصوف

او :

صوفية شهدت للعقل نسبتهم   بأنهم ضأن صوف نطحها يقص
لا ترقصن مهيرات مكرمة   فللمهاري قديما يعرف الرقص

وعلى ما يظهر انه في اخريات حياته قدر مذهب الصوفية ، فقد ذكر لنا في رسالة الغفران : « وأما ابو بكر الشبلي رحمه الله فلا ريب انه من اهل الفضل وارجو ان يكون سالما من مذهب الحلولية » وانشدني له منشد :

باح مجنون عامر بهواه   وكتمت الهوى ففزت بوجدي
واذا كان في القيامة نودي   اين اهل الهوى تقدمت وحدي

غير ان المعري يستمر في نقده اللاذع لفكرة المهدي والقرامطة والاسماعيلية، ومن يعتقد بالتنجيم وسيطرة الفلك وغير ذلك ، مع تبيان مذاهبهم واظهار نقاط الضعف فيهم ، معتقدا ان لا هادي سوى العقل :

يرتجي الناس ان يقوم امام   ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل   مشيرا في صبحه والمساء

وهو يزعم ايضا ان هذه المذاهب المتعددة ما هي الا لجذب الدنيا الى الرؤساء :

انما هذه المذاهب اسبا   ب لجذب الدنيا الى الرؤساء

ويذكر المعري عن الاسماعيلية ما يلي :

ايـــا شـــيعة اســـماعيـــ ـــل ان الصـبر قـــد عيــلا
كيــف لــي يــا عيــش لـــــو اصبــح مـــولاك مقيـــلا
قـــد حملنـــا مـــن رزايـــا دهرنـــا عبئـــا ثقيـــلا
وملننـــا منـــه مفـــــدي ومبيتـــــا ومقيـــــلا
واطلنـــا في بنـــــي ايـــ ـــامنـــا قـــالا وقيـــلا
صـــديء العقـــل بـــه مـــن بعـــد مـــا كـــان صقيـــلا

ويذكر عن الجفر (في اللزوميات) :

لقـد عجبـــوا لأهـل البيـت لما اتاهـم علمهـم من مسـك جفــر
ومـــرآة المنجـم وهي صغـــرى تريهـــم كـل عامـــرة وقفـــر

وفي نفس الديوان يذكر :

يقولــون مسك الجفــر اودع حكمة اذا كتبـت اطراسهـا ملأت جفـرا

وتذكرنا مرآة المنجم(كما سبق لنا وبينا ذلك في كتابنا عن الامام الصادق ملهم الكيمياء) هي من القضايا المألوفة في عهد المعري وتستعمل ايضا للفأل :

خـذ المــرآة واستخبـر نجومـا تسـر بمطعـم الأري المشــــور
تـدل على الحمـام بـلا ارتيـــاب ولكــن لا تــدل علـــى النشــور

وتظهر نزعة ابي العلاء في التشيع بما ورد في سقط الزند :

وعلـى الدهـر مـن دمـاء الشهيدين علـي ونجلــه شـــاهـدان
فهمـــا في أواخـر الليـل فجـــرا وفـي اوليـــاتـه شـــفقـان
يا ابـن مستعرض الصفوف ببـــدر ومبـدد الجمـوع مـن غطفـــان
احـد الخمسة الذيـن هم الاغـــراض في كل منطـق والمعانـــي
والشخوص الذي خلقنــا ضيـــاء قبـل خلـق المريـخ والمـــيزان
قبل ان تخلـق السمـوات اوتـــؤمـــر افلاكهـــن بالـــدوران

ولكن هل بقي لهذه النزعـة أمينـا ؟ ذلك لا نستطيع البرهان عليه .

اذا درسنا رسائله بامعان نجده يثور على فكرة التنجيم : (والمشتري والزهرة وان نأيا يبلغان المحارب توليا في زعم المنجمين ، وبعض الفلاسفة المتقدمين نعوذ بالله من هذه المقالة ونستكفيه الايغال في طرق الجهالة) .

ويذكر ذلك في رسالة المنيح التي كتبها ابي القاسم الحسين بن علي المغربي «١» ، وقد قال فيها ايضا : « وتضيء بما اهدى اليها من الشعاع ، اضاء الصفر بما قابل من النيران الزهر ، وقد يرى خيال الجوزاء على رفعتها في اضاءة المرآة مع صنعتها » . وعلى ما يظهر ، انه كان يعرف نظرية انقلاب العناصر في الكيمياء : « فكأنما رفعتي الفلك او ناجاني الملك ، جدلا بما لو جاز تبدل الغريزة ، وتحول النحيزة ، ونقلني من العامة ، الى عالي السامة نقل الكيمياء ، مما خالط من المزابق الجائز ، الى جملة النضار المايز » .

وعن النساء يذكر :

وان جئن المنجمات سائلات ... فلسن من الضلال بمنجمات
وابعدهن عن ربات مكر ... سواحر يفتدين مغرمات
يقلن نهيج الغياب حتى ... يجيئوا بالركاب مزممات
ونعطف هاجر الخلان كيما ... يزول عن السجايا المسئمات
زعمن بان في مغنى فقير ... كنوزا للملوك مصممات
فلا يدخلن دارك باختيار ... فقد الفيتهن مذممات

والمعري في الحقيقة ضد تعليم المرأة :

فحمل مغازل النسوان اولى ... بهن من اليراع مقلمات
سهام ان عرفن كتاب لسن ... رجعن بما يسوء مسممات
ويتركن الرشيد بغير لب ... اتين لهديه متعلمات

وثورته الكبرى على المنجمين تظهر لنا في شعره الاتي :

لو كان لي امر يطاوع لم يشن ... ظهر الطريق يد الحياة منجم

«١» انظر المعارف الطبيعية عند ابي العلاء .

اعمى بخيل او بصير فاجر   نوء الضلال به مرب منجم
يغدو بزخرفه يحاول مكسبا   فيدير اسطرلابه ويترجم (١)
سألته عن زوج لها متغير   فاهتاج يكتب بالرقان ويعجم
ويقول ما اسمك واسم امك انني   بالظن عما في الغيوب مترجم
يولي بان الجن يطرق بيته   وله يدين فصيحها والأعجم

هذا وان رأينا عند المعري بعض افكار تمت الى التنجيم بصلة مثل :

لقد ترفع فوق المشتري زحل   فاصبح الشر فينا ظاهر الغلب
وان كيوان والمريخ ، ما بقيا ،   لا يخليانك من فجع ومن سلب

(المشتري هنا كوكب سعيد ، وزحل كوكب نحس ، كيوان : زحل ، والمريخ كوكب معروف بالجدة والحرب ، السالب : الحداد)

فهذه من قبيل التشبيه والتمثيل ، لا من قبيل الاعتقاد والتنجيم .

وكذلك نجد ثورته على السحر :

وهاروت وكيف عصى ربه   بتعليمه السحر في بابل ؟

ظن كثير من المدققين ان ابا العلاء زنديق ملحد ، ولكننا اذا تعمقنا في افكاره نراه لا يهاجم شيئا بشدة وعنف كما هاجم الملاحدة والزنادقة والدهرية الذين يعتقدون بمنطوق الآية الكريمة « وما يهلكنا الا الدهر » ويقول : (.. ولكن الزندقة داء قديم ، طالما حلم به الاديم) ، وقد بلغت ثورته على الزندقة والالحاد اقصى درجتها في حملته على ابن الراوندي (واما ابن الراوندي ، فلم يكن الى المصلحة بمهدي . واما تاجه فلا يصح ان يكون نعلا ...) ولا يرى مخرجا من تلك المآزق الحرجة الا باتباع هدى العقل ، ويروى ان رجال الاديان جميعهم قد نبذوا العقل جانبا . واننا لنرى تشابها عظيما بين شك المعري فيما ورث وبين شك الغزالي الذي اوضحه لنا في المنقذ من الضلال . ولا اريد في هذا الصدد ان ابخس الغزالي حقه ، فالحكماء هم بشر ايضا يتعلم بعضهم من بعض . اما رسالة المعري في تحرير الفكر فهي :

---

(١) يتكلم بالغيب

(•• والذين يسكنون في الصوامع ، والمتعبدون في الجوامع ، يأخذون ما هم عليه كنقل الخبر عن المخبر ، لا يميزون الصدق من الكذب لدى المعبر ، فلو ان بعضهم الفى الاسرة من المجوس لخرج مجوسيا ومن الصابئة لاصبح لهم قريبا سيبا • واذا المجتهد نكب عن التقليد ، فما يظفر بغير التبليد • واذا المعقول جعل هاديا ، نقع بريه صاديا • ولكن اين من يصبر على احكام العقل ، ويصقل فهمه ابلغ صقل • هيهات عدم ذلك فيمن تطلع عليه الشمس ، ومن ضمنه في الرمم رمس • الا ان يشذ رجل في الامم يخص من فضل بعمم • ربما لقينا من نظر في كتب الحكماء ، وتبع آثار القدماء ، فالفيناه يستحسن قبيح الامور ، وينكر بلب مغمور ان قدر على فظيع ركبه ، وان عرف واجبا نكبه • كأن العالم سعوا في افقاد ، فهو يعتقد شر اعتقاد ، ان اودع امانة خان ، وان سئل عن شهادة مان ، وان وصف لعليل صفة فما يحفل اقتله بما قال ام ضاعف عليه الاثقال، بل غرضه فيما يكتسب وهو الى الحكمة منتسب • ورب زار بالجهالة على اهل ملة وعلته الباطنة ادهى علة • وان البشر لكما جاء في الكتاب العزيز : « كل حزب بما لديهم فرحون » •)

وقد انتقد المثنوية (ذات الاعتقاد بالهين اثنين) :

الا تتقــون اللـه رهط مسلــم !	فقــد جرتــم فــي طاعة الشــهوات
ولا تتبعــوا الشيطــان في خطواتــه	فكم فيكــم مــن تابــع الخطــوات
عبدتــم لــرأي المثنوية ، بعدمــا	جرت لذة التوحيد فــي اللهـــوات

الى ان يقول :

رجوتم اماما فــي القــرن مضلــلا	فلمــا مضى قلتــم الــى ســنوات
كــذاك بنــو حــواء بــر وفاجــر	ولا بــد للايـــام مــن هفــوات

وفي نقده للمجوسية :

سألنا مجوســا عــن حقيقة دينهــا ،	فقالت نعــم لا تنكــح الاخـــوات
وذلــك مــن اصل التمجس جائــز	ولكن عددنــاه مــن الهفـــوات

ونأبى فظيعات الامــور ، ونبتغـــي سجودا لنور الشمس في الغـدوان

ان مطرقة النقد التي حملها شاعر المعرة يريد بها بلغة نيتشه ان يحطم الالواح القديمة ليبني على انقاضها الواحا جديدة تكفل لبني البشر سعادة خير من هــذا الشقاء الذي يرسفون تحت نيره .

اما صلته بالشعراء والادباء فهي قوية جدا ، فبجانب ما خلفه لنا المعري كأدب مبتكر ، نقد ادبي واسع يعرفنا الاصل يمن المنتحل حسبما وصلت اليه خبرته . ولربما كانت رسالة الغفران اقدم اثر عربي في النقد الادبي ، يبين لنا فيها الطبيعة البشرية ، جالبا دقة نظرنا الى قضيتين هامتين من تلك الطبيعة ، وهي الكذب في الروايات لترويج الآثار الادبية ، والنسيان وهما لعمري عاملان جديران بالاهتمام ، ولا يبعد ان يكون ابن خلدون استقى مذهب النقد التاريخي مـن مذهب النقد الادبي للمعري ولو اعار عالمنا العربي اهتمامه لمذهب المعري في النقد لما جـــرى وراء الخرافات والتضليلات بل لاهتدى به الى ما هو خير وابقى ، ولتمكن بالفكر النقاد المحص ان يتابع سير المدنية .

ولم يسلم الادباء من نقد ابي العلاء ، بل قال فيهم :

بنــي الآداب غرتكـــم قديمـــا زخـارف مثـل زمزمـة الذبـــاب
ومـــا شـعراؤكـم الا ذئـــاب تلصص في المدائـح والسـباب
اضر لمـــن تــود مــــن الاعـــادي واسرق للمقـال مـن الزبـــاب
اقارضكـم ثنـــاء غـــير حـــق كأنـا منـه في مجرى شـباب
أأذهـــب فيكـم ايـام شـيبي كمـا اذهبـت ايـام الشـباب
معـاذ اللـه قـد ودعت جهلـي فحسبي مـــن تميـم والربـــاب

يستشهد المعري بآية قرآنية على غريزة النسيان في الانسان : (وحسبـــك شهيدا على ذلك الآية المتلوة في قرآن محمد (ص) ولقد عهدنا الى آدم مـن قبل فنسي ولم نجد له عزما) ، وقد ذكر عن بعض العلماء ان الانسان سمي انسانـــا لنسيانه ، واحتج على ذلك بقولهم انيسيان وفي الجمع اناسي ، وقد روى عن ابن عباس قول الطائي :

لا تنسين تلك العهود وانما ... سميت انسان لانك ناس

يذكر لنا المعري القول المأثور عن آدم لما قتل قابيل هابيل :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الارض مغبر قبيح

وأودى ربع اهليها فبانوا ... وغودر في الثرى الوجه المليح

ويعلق شاعرنا على ذلك بقول آدم لما صودف في الجنة (.. ابني انكم في الضلالة منهوكون ، آليت ما نطقت هذا النظم ولا نطق في عصري ، وانما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة الا بالله ، كذبتم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم ابيكم ثم على حواءامكم ، وكذب بعضكم على بعض ، ومآلكم في ذلك الى الارض ...)

رغم هذا التهكم اللاذع والنقد المر فهو يرى في اعجاز القرآن آيات لأولي الالباب : (واجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن الحجة ومقتد ، ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد (ص) ، كتاب بهر الاعجاز ، ولقي عدوه بالارجاز ، ما حذي على مثال ولا شبه غريب الامثال ، وما هو من القصيد الموزون ، ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ذوي الارب ، وجاء كالشمس اللائحة ، نورا للمسرة والبائحة . لو فهمه الهضب والراكد لتصدع ، او الوعول المعصمة لراق الفادرة والصدع . وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .) وينتهي اخيرا الى نزعة صوفية عميقة كما بينا لا تتضارب مع العقل السليم .

حارب ابو العلاء الخمر والميسر محاربة شديدة ، معتقدا ان السكر محرم في كل الملل ، حتى انه ذكر عن بعض الهنود بانهم لا يملكون عليهم رجلا يشرب مسكرا ، لانهم يرون ذلك منكرا .

على اننا يجب ان لا نفهم بان المعري يحب الفوضى في المجتمع البشري بل يريد ان تسود في العالم روح المحبة والاخاء والوئام . نعم كان منتقدا للاديان لانه لم ير في معتنقيها المثل الاعلى الذي تصبو اليه نفسه ، ولكن مما يدلنا على تبجيله للاديان ما رواه : (.. وما عنيت بالكتاب من نسب الى توراة وانجيل دون من نسب الى القرآن البجيل . على انه لا بد من امانة مفترقة في البلاد ، تكون للخير من التلاد ، وانها في الآخرة لاشرف ..)

بعد مضي الف سنة على ولادة المعري نجد انفسنا امام شخصية فذة جديرة بالتذكر ، وهذه الذكرى يجب ان توقظ فينا روح المعري الوثابة الحرة الطليقة العربية الصميمة والتي ترى رغم ذلك العالم كله وطنها ، نجد انفسنا بحاجة الى ان نقتبس من روح ذلك الانساني الكبير المعروف اسما والمنبوذ فعلا من قلوب البشر حافزا يدفعنا الى الاخاء والانسانية ، اني اقول ذلك لما نراه من البغضاء والشحناء المتأججة في قلوب البشر ، والا لرأينا صورة الكون اليوم غير الصورة الحزينة ، ولتلاشت العداوة بين الناس كما يتلاشى الثلج اذا سطعت عليه اشعة الشمس الحارة •

والخير يهمس بينهم ويقام للسوآت منبر

مع كل اختيار في تفكيره وعمله يرى قدرة فوقه تسيطر عليه :

ما باختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي فهل لي بعد تخيير
ولا اقامة عن يدي قدر ولا مسير اذا لم يقض تسيير

ويقول في محل آخر :

كيف احتيالك والقضاء مدبر تجني الأذى ، وتقول انك مجبر
ارواحنا معنا ، وليس لنا بها علم ، فكيف اذا حوتها الاقبر ؟ (١)

«١» وفي هذا المعنى لقد تواتر عن عمر الخيام (حسب ترجمة الصافي)

سر الحياة لو انه يبدو لنا لبدا لنا سر الممات المبهم
لم تعلمن وانت حي سرها فغدا ، اذا ما مت ماذا تعلم ؟

هل كان أبو العلاء أبيقوريا

قرأنا بمناسبات عديدة تصريحات لبعض الادباء بان ابا العـــلاء ابيقوري • وبما أنه ثبت لدينا خلاف ذلك ، فقد سبق لنا وبينا رأينا على صفحات الاديـــب (كانون الاول ١٩٤٤) وها نحن نعيد مــا بيناه هناك :

١ ــ ان الايبقوريين يرمون الى اتخاذ اللذة كغاية في الاخلاق ، مبتعديــن طبعا عن اللذة الجسمية الوقتية التي تسبب اليهم ، باحثين عن اللـــذة الدائمـــة الا وهي اللذة النفسية ، والمعري كما عرفنا لا يتخذ اي غاية مـــن عمله الاخلاقي ، فقد صرح في اللزوميـــات :

فلتفعـــل النفس الجميـــل لانـــــه   خـــير واحســـن لا لاجـــل ثوابهـــا

٢ ــ ان حياة ابي العلاء هي حياة زهـــد وتقشف وازدراء باللذة ، ولا يمنع ذلـــك قولـــــه :

ولـــــم اعـــرض عـــن اللـــذات الا   لأن خيارهـــــا عنـــي خنســـــــة

او :

وقـــال الفارســـون حليف زهـــــد   وأخطـــأت الظنـــون بمـــا فرســـته

فلدى التأمل ومقارنة اقواله ببعضها بعضا مستعينين بذلك في سلوكه فـــي الحياة ، نجـــد انه لا يريد ان يسمي نفسه زاهدا لانه لا يوجد ثمة شيء يطمع فيه • فخيار اللذة التي يقصدها هي اللذة الحقيقية التي لا وجود لها ، فالضحك حـــين نقدم الى الدنيا هو برق خلب • والبكاء عند الموت هو الحقيقي :

قدمنا والقوابـــــل ضاحكـــــــات   وسرنـــــا والمدامـــــع ينبجســـــنه

٣ ــ يرى المعري كـ (كانت) بلزوم اتباع الواجب وان وجد فيه مشقة وان لم يجد اية لذة :

« واي دين لآبي الحق ان وجبا » •

وفي الفصول والغايات (ص ٢٨٠) يصرح اكثر من ذلك بقوله :

« وقد تفسك الى الواجه ولو بجرير » •

٤ ـ ان النزعة الايبقورية الحقة لا تفكر في حكمة الموت ، فابيقور يقول : «ان الحكيم لا يخاف الموت ولا يحسب له حسبانا ، فعندما نموت لا نشعر بشيء وعندما نكون احياء فلا موت يعترينا » •

هذا القول يدل دلالة واضحة بلزوم ابعاد فكر الموت عن الانسان ما دام حيا ، والمعري في كل ما نظم ونثر لا يشغل نفسه بشيء كما يشغل بحكمة الموت• وجدت الموت للحيوان داء وكيف اعالج الداء القديما

٥ ـ لا يصرح أبيقور بشيء عن غاية الحياة ، ولكنه يبتغي اجرا من وراء اعماله ، وهذا الاجر هو الطمأنينة النفسية ، اما المعري فانه لا غاية يتخذها بل يريد ان يعمل خالصا للخير نفسه كما بينا •

٦ ـ ما يقوي زعمنا في ذلك ما صرح به المستشرق الانكليزي غيوم في مجلة (العالمان) (٢ تشرين الاول ١٩٤٤) : « ان المعري لا علاقة له بفلسفة مدرسية تمت الى الاغريق بصلة ومن ظن غير ذلك فقد تغالى وكان نصيب ارائه من الصحة ضعيفا » •

فقد كان شعور المعري شعورا شخصيا غير استمدادي (وهذا التصريح مما يزيد في الاعتقاد باستقلال حكيمنا) ، وكانت رغبته مسألة مزاجية محضة لا علاقة لها مع اية فلسفة اخرى •

٧ ـ ان التشابه الموجود بين لوكراس او بين آثار جالينوس عن الايبقورية وبين شاعرنا هي لا بد ان تكون في الفروع لا في الاصول • فمهما ناقض ابو العلاء نفسه ، فهو لا يؤمن باية راحة ولا سعادة نفسية ، ولا يعمل اعماله من

اجلها ، وهذا المبدأ في زعمنا هو اساس الفلسفة الابيقورية • اما ما عدا ذلك فان اتفق مع المعري فلا قيمة له ولا اهمية •

٨ ــ يذكر صاحب « مع ابي العلاء في سجنه » ان اتيان المعري في تقسيمه للنفس البشرية الى ثلاثة اقسام : نفس وجسم وعقل يشبه في ذلك ايضا الابيقوريين • ولكن هذا الشبه كما بينا في المعري المفكر الحر لا يشكل وجه شبه قطعي ، لان الابيقوريين وحدهم لم يكونوا اول القائلين بذلك ، بل قد سبقهم غيرهم من الحكماء والفلاسفة • فضلا عن ذلك فصاحب الدعوة نفسها يرى في جحد المعري لخلود النفس ابتعادا عن هذا المذهب • وعلى كل فالتشابه في ذاته غير تشابه جوهري •

٩ ــ اما ضبط النفس عند المعري فقد اشرت اليه لدى مقارنتي هذا الحكيم ببوذا الهندي ، وان هذه الصفة ليست خاصة بحكيم او فيلسوف معين ، بل اننا نجدها عند اكثر الحكماء ، فلا تشكل ايضا وجه شبه خاص •

فالخلاصة ان المعري بعيد عن الروح الابيقورية بعدا عظيما وان رأينا بعض آراء تتفق مع تلك النزعة فهي كما ادلينا بحججنا تتوافق بالفرع لا بالاصل ، هذا وان كان يمت المعري بصلة فكرية الى مذاهب تتراءى متناقضة في ظاهرها ولكنه بعيد عن الابيقورية بعد الارض عن السماء •

بين بوذا وأبي العلاء

الديـن انصافـك الاقوام كلهـــم وأي ديـن لآبي الحـق ان وجبـا
والمرء يعييــه قــود النفس مصحبة للخـير وهــو يقـود العسكر اللجبا

توطئـــة :

يا لله . ما اصعب حظ الانسان على الارض ؟ ولد بين الالام والاوجاع ، وتقلب بين الحرمان والمصاعب ، وذاق العذاب اشكالا والوانا ، وهو لا ينفــك يتقلب بين الاوجاع الممصة والاسقام المهلكة ، والجروح النفسية الخفية مـــن فراق حبيب ، وموت قريب ، وجفاء صديق ، وحب فاشل ، وخيانة خليل ، وسراب الامال الكاذبة ، واكثر ما يدمي الفؤاد تنازع البقاء وسفك دماء الابرياء طمعا في المجد الزائف . وآخر ما يتجرعه المرء كأس الموت الحنظل . فأي شيء يدعو الى التفاؤل ؟ اتلك اللذات القليلة التي يتمتع بها البشر من طعام وشراب وغير ذلك ؟ ام بهرج الانوار اللامعة الآن التي ستنطفىء عما قريب ، فيصبح الانسان جثـــة هامدة ، لا فرق بينه وبين ذلك الحجر الجامد الملقى على قارعة الطريق والـــذي لا حس فيه ولا حياة ؟ .

ها هو الانسان ، وها هي كرامته . نعم حظه وكرامته ، فالحيوان بحسب ما يظهر لنا لا يفقه من امر الموت شيئا ، ولا يؤثر فيه الالم هذا التأثير ، وكرامتــه ، لأن من فقد الاحساس ،فقد فقد الصفة البشرية ، ومن اضاعها ، فقد خسر الكرامة .

لتخفيف هذا المصاب ولتلطيف وقعه ، بعثت الأنبياء والحكماء ، فوعـدوا الانسان خيرا بحياة مقبلة ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ، وجسر لتلـــك الابدية التي لا تعرف الموت ولا الاسقام ولا الآلام ، فاستبشر بذلك خلق كثيرون .

اما المؤمنون الحقيقيون فهم قليلون ، والسـواد الاعظم من الناس آمنـــوا ظاهرا وكانوا باطنا مـــن الكافرين لان الفساد لا يزال يطغى على البر والبحـر ،

ولو كانوا من المؤمنين حقا لتبدلت الارض غير الارض ، ولرضي كل انسان بما قدر له من الرزق والمجد ، بل لزهد كثيرون عن متاع الحياة الدنيا وغرورها لان الآخرة في عين المؤمن لخير وابقى .

لعل اعمق الحكماء والشعراء بين البشر هم المتشائمون الذين يصورون الحياة ألما وشقاء لازما وفاجعة مؤلمة ، فمنهم اعظم الشعراء في العالم ؟ اليسوا الذين وصفوا لنا الالم بصورة يدمى له الفؤاد ؟ . اي نظم من شعراء هوميروس (هومر) اليوناني كان اشد اثرا على النفوس ؟ اليس وصفه للحروب الدامية والمغامرات المخيفة ؟ اليست حياة امرىء القيس وعنترة وغيرهم من الجاهليين ، والمتنبي مداح الامراء ظاهرا ورقيق الشعر باطنا وشاعرنا المعري هي سلسلة من الآلام ؟ ولماذا لا تزال فاجعات سوفوكليس اليوناني الخالدة تؤثر فينا ؟ لولا انها وجدت صدى في نفوسنا مستحبا . للمأساة روعة خاصة في النفوس نعلم ذلك من قطع شكسبير وغوته وراسين وكورني وغيرهم ، وللهزليات تفاهة يزدرى بها . الا تجد ايها الانسان الرقيق الشعور لو انك ذهبت الى رواية هزلية مهما كان فيها من فكرة قيمة انك اضعت وقتك سدى ؟ واي شيء يهزنا مثل المأساة والكوارث الانسانية المؤلمة ؟ والرسامون من هم الخالدون ؟ اليس الذين هم صوروا لنا الالم على جليته ، فمن آلام المسيح في القرون الوسطى ولد فن خاص غذى الفنون الاوروبية قرونا عديدة ، ولا يوجد مؤسس مذهب على الارض ، مهما كان اتباعه قليلون لم يعرف الألم بعمقه او لم تكن فيه مسحة من تشاؤم .

الألم هو اكبر الدعاية في اتباع المذاهب ، فكم ادمى الصليب قلوب كثيرين من اتباع عيسى المخلص . وكم بكى المسلمون لضرب النبي واذاه ، واي شيء كان اكبر دعاية للشيعة مثل تعذيب الحسن والحسين . ولو ان شاه العجم ترك مؤسس البهائية وشأنه ولم يصلبه لما قام لمذهبه قائمة .

من الغريب ان نرى انتشار الديانات العالمية الثلاثة من اسلامية ومسيحية وبوذية يتناسب مع شدة المروي عن المؤسس من الألم ، فآلام محمد كانت اقل من آلام عيسى لذلك نجد اتباع الاول اقل عددا ، وآلام بوذا اقل من عيسى ، فأتباع الاول نقصت عن اتباع الثاني ، الالم يحرك العاطفة العميقة ويجعل في

النفس قوة انجذاب الى المتألم شاءت ام ابت كانجذاب الحديد نحو المغناطيس .

لا أدري هل الصدفة جعلت ذلك التناسب بين عدد التابعين والألم (حسب مصادر التي وصلت الينا) ام ان هناك عوامل اخرى لعبت دورها ايضا . على كل ففي حياة المتألم الكبير بوذا وفي مقارنتها بآلام حكيم المعرة لعبرة لأولي الالباب .

مقارنة بين حياة بوذا وحياة المعري

تختلف حياة بوذا عن المعري اختلافا كليا ، فبوذا كان اميرا وولي عهد لملك عظيم من ملوك الهند بذل والده كل ما في وسعه ليجعله سعيدا منعما مترفا ، وكانت كل اسباب السرور والفرح تحيط به : قصر شامخ وعز باذخ ، وثروة طائلة من ذهب وفضة وحلى ، وخدم مطيع وبساتين غناء ، وجنات تسر الناظرين وشعب محب ، ووزراء مخلصون ، وأهل يريدون للامير كل خير ، ومجالس انس لا تنقطع وحفلات غنائية رائعة ، ونجاح في حياة الغرام لانه (حسب المصادر) تزوج الامير الفتاة التي عشقها وهام وجدا بها ومع ذلك بين احضان تلك النعمة التي يحسدونه عليها آلاف من الناس كان متشائما . هجر قصر والده مرتديا ثوب المتسولين ، زاهدا في الثروة والمجد ، هائما على وجهه في الغابات والبراري ، مفكرا في ألم البشر ، باحثا عن الحقيقة ، ضاربا لنا اكبر المثل بان التأثيرات الخارجية فقط لا تكون شخصية الانسان ، فلو كان ذلك كذلك لكان بعيدا عن روح التشاؤم ولعاش كما عاش اجداده بين عز الملك ولذة الثروة ، نعم ان حادثا بسيطا قد قلبه من انسان طروب الى رجل متشائم ، وذلك عند رؤيته ميتا ورجلا مريضا ، وطيرا قد ضرب بالقوس وهو يتخبط بدمائه . ان هذه المناظر كانت السبب في تفكيره العميق وفي انقلابه الفجائي . وكم يمر الناس على مناظر هي اشد فاجعة مما رآه هذا الامير دون ان تترك في نفوسهم اثرا .

اما المعري فكما يعرف كل من اطلع على تاريخ حياته ، فقد عرف الألم بنفسه فيفقده نور البصر وهو طفل وبموت ابيه وهو صبي يافع وضيق ذات يده وموت امه وهو في شرخ الشباب وغير ذلك من الامور ، اصبح متشائما . ومع ذلك فهناك تشابه في المبدأ ، رأى بوذا الالم في غيره فتألم على البشرية جمعاء ، ورأى

المعري الألم في نفسه فتألم لا من اجل ذاته بل من اجل العالم ايضا . ولولا تلك النزعة التشاؤمية ، لما وجدناهما يتألمان من اجل كل الناس .

كان بوذا في نعمة عظيمة ، والمعري بعكس ذلك ، فماذا يهم بوذا غيره ؟ واذا بكى المعري فليبك على نفسه ما شاء له البكاء ، وما شأنه وشأن الناس . كان بوذا ايثاريا (اي يؤثر غيره على نفسه) ، وكان المعري اجتماعيا رغم انفراده وعزلته عن الناس ، فجوهره الكريم دل على ان المصيبة ليست مصيبته ، بل هي مصيبة العالم اجمع ، فالوجود هو مأساة في نظره ، وفي الحقيقة فان كلاهما كانا اجتماعيين . نعم ان بوذا رأى الألم في غيره ولكن استقراءه اوصله الى معرفة الالم المنتظر كفرد من افراد البشر ، فتألم على الانسانية ، وان ظهر بوذا ارق احساسا وابعد نظرا من المعري ولكنهما في الحقيقة متفقان في الجوهر ، وما يدرينا لعل المعري لو كان من ابناء النعمة والسعادة كما كان بوذا لانتهى الى ما انتهى اليه ذلك الحكيم الهندي فنفسيته تدل على نفسية تبغي الايثار ، وبمظلة قليلة تدرك امورا جمة ، كما ادرك بوذا ايضا .

هذه هي في الحقيقة نفسية النبغاء والعباقرة في العالم ، فهي تلعو فوق نفسها ، متجردة عن انانيتها ، حادث بسيط ينقلها الى الولوج في سر العالم ، وسواء أكان المعري متأثرا فعلا من البوذية ام لم يكن فان كثيرا من اقواله وافعاله تشبه مؤسس تلك الديانة .

التشاؤم

ان اول ميزة يمتاز بها هذان الحكيمان هي التشاؤم ، فبوذا كان متشائما من الحياة ، والمعري بمناسبات عديدة اظهر تشاؤمه القاتم :

عيش وموت واحداث تبدلها ... ينوبننا ومهبود بين ارحام
امر حمى النوم بعد الفكر صاحبه ... ومثله لرقاد وارد حمام

فالمعري منذ شبابه كان متشائما ففي سقط الزند نرى ذلك عنه ما يجد الحياة كلها تعبا « تعب كلها الحياة » وعندما صار كهلا وشيخا زاد تشاؤمه :

متى انا للدار المريحة ظاعن ... فقد طال في دار العناء مقامي

وقد ذقتها ما بين شهد وعلقم ... وجربتها من صحة وسقام

وانا لنرى التشاؤم البوذي يظهر جليا :

سيت نجلك مسعودا فصادفه ... ريب المنون فامسى غير مسعود

وما دام الموت هو آخر ما نلقى فما قيمة الحياة ؟

هبيني عشت عمر النسر فيها ... وكان الموت آخر ما لقيت ؟

فرغبة الحياة اذن ناشئة عن جهل :

رغبنا في الحياة لفرط جهل ... وفقد حياتنا حظ رغيب

ان هذا التشاؤم من كليهما لمصير كل شيء الى الزوال :

ما احسب الكوكب المريخ او زحلا ... الا اميرين ان طال المدى عزلا .

فالشباب هو السكر وفي الشيب اليقظة :

وقد لاح شيب في الذرا فصحوتم ، ... وصح لكم ان الشباب هو السكر

الالم

هذه الروح التشاؤمية ناشئة عن الم مضن كما ذكرنا ، وانا لنرى الالم كأصل هذا الوجود عند كلا الحكيمين ، فمذهب بوذا مؤداه ان الحياة ألم ، والمعري يقول :

سلي الله ربك احسانه ... فانك ان تنظري تألمي

وهذا الالم كما يعتقده كلاهما لا شفاء منه ابدا ، فبوذا يشير الى ام لا تعرف معنى الموت فقدت وحيدها : يعطيها عزاء لذلك ، الحصول على حبة خردل من بيت لا يعرف الموت لمداواة ابنها ، والمعري يقول :

كل يحاذر حتفا ... وليس يعدم شربه

ويتقي الصارم العضـ ... ـب ان يباشر غربه

والنزع فوق فراش ... أشق من الف ضربه

الشـــر

ما اكثر شرور العالم وما اعظم الخبائث فيها ؟ واي شاعر مـــن الشعراء او حكيم من الحكماء لم يحدثنا عن شرور هذه الدنيا وآثامها التي لا تنقطـــع ؟ وما الشرائع الموجودة في العالم على اختلاف نزعاتها وتباين اغراضها الا سدود شيدت لتوقف سيول الشرور من ان تطغى •

اذا حدثنا المفكرون عن الشرور ، فقد اتخذ المتشائسون خيوطا جديدة لنسج ثوب تشاؤمهم الاسود الحزين • لذلك وصف بوذا او بالاحرى البوذيون الذيـن يتكلمون بلسان امامهم ، شرور العالم المخزية وصفا شائقا • ولعل اجمل وصف ما ورد في وصف (آسيا اللامعة) لمؤلف بوذي مجهول الهوية والمترجم الى الانكليزية من قبل (اروين ارنولد Irwin Arnold) لندن ١٨٨٤ ، من ان مدبر هذا الكون قد تعب من شرور العالم متمنيا ان يقلع الناس عن بغضهم لبعضهـم بعضا قائلا : (ما اجمل هذا الكون لو ان جميع مخلوقاته من ذوي عقول وبهائم تحابوا وتصادقوا واقتربوا من بعضهم بعضا دون سفك دماء » • وشاعرنا المعـري المتشائم اكثر في شعره ونثره من ذكر شرور هذا العالم ، فلقد قال في لزومياته :

ان الشرور لكالسـحابـة اثجمـــت ... لاك السرور كأنـه بـــرق خلـــب

وهي لا تقف عند حد بل تشتعل ولا تهمـــد :

الخـير كالعرفـــج المطـــور ضرمه ... راع ، ثيط (١) ولمـــا ان ذكـــا خمدا

والشر كالنار شبـــت ليلهـــا بغضـــا ... يأتـــي علـــى جمرهـــا دهر وما همدا

فالشر في نظريهما طبيعة في الانسان لا مندوحة من القضاء على هذا الداء الدفين الكامـــن في الجبلة الانسانية ، فاذا اردنا القضاء عليه يلزم القضاء علـــى الانسانية نفسها ، او كما يقول شاعرنا في رسالة الغفران : (واذا اللبيب انعـم النظر لم ير الحياة الا تجذبه الى الطير ، وتحث جسده على السير ، فالمقيم كالخير ارتجال لا تبث الاقضية به على حال ، صبح يبسم ومساء لا يلبث معها النساء ، كأنها سيد اضراء ، والعمر ثلة في افتراء ، وهما على السارح يغيران ، فيفنيـــان

(١) ثيط : يصوت

السائمة ويبران) ويقول في اللزوميات :

أري امـراء الناس يسمـون شرهم ... اذا خطفـوا خطف البـزاة اللوامـع
وفي كـل مصر حاكـــم فموقــق ... وطـاغ يحابـي في أخس المطامـــع
يجـور فينفي الملـك عـن مستحقه ... فتكسب اسراب العيون الدوامـــع
ومـن حوله قـوم كأن وجوههـــم ... صفـا لـم يلـين بالعيوث الهوامـع
عدول لهم ظلـم الضعيـف سجيـة ... يسمون اعراب القـرى والجوامـــع

فالشرور هي طبيعة هذا المخلوق :

متمجســون ومسلمـــون ومعشر ... متنصرون وهائـــدون رســـائس
وبيـوت نيران تـــزار تعبـــدا ... ومساجـد معمـورة وكنـــائـس
والصابئـون يعظمـون كواكبـــا ... وطباع كـل فـــي الشرور حبائس

او :

قـد فاضت الدنيـا بادناســـهـا ... علـى برايـاهـا واجناســـهـا
والشر في العالـم حتـــى التـــي ... مكسبهـا مـن فضـل عرناســـها
وكـــل حـي فوقهـــا ظالـــم ... ومـا بهـــا اظلـم مـن ناســـها

اذن فان الشر طبيعة هذا الوجود :

وجدت الشر ينفـع كـــل حــين ... ومـن تفـع بـه حـل الحســام
وليس الخـير في وسـم الليالـــي ... فكيـف نسومهـا ما لا يســـام

او :

تخـــير خلقنـا والشر طبـــع ... فمـا تحتـاج فيـه الـى اختــلاف

فالشر في نظر حكيمنا المعري كمـا عند بوذا قد عم العالمين :

هـو الشر قد عـم في العالمـــين ... اهـل الوهـود واهـــل الــذرا

او :

ظلم الحمامة في الدنيا ، وان حسبـت ... في الصالحات كظلم الصقـر والبـاز

او :

والخلق شتى ، ولكن ضمهم خلق للشر ، لم يلق بين الناس افرازا

او :

اما هدى ، فوجدته ، ما بيننا سرا ، ولكن الضلال جهار

التعلل بالامال

نعم ان الدنيا لألم مرير ، ولكن اي شيء يزيد هذا الالم في المتشائسين غير التعلل بالأمال ، لأن وراء هذه الآمال لا يوجد شيء حقيقي ، وهذا ما يسمى بلسان البوذية بعطش الوجود ، والمعري يقول في الفصول والغايات : (لو انصفت يا ابن حواء ولمن تنصف ، لاعز الناس عليك اعني نفسك ، اذن لازجر قلبك ، وقصر املك ، وشغلك الحق عن الاباطيل) • ويقول في محل آخر (غفرانك اللهم، عرفت الدنيا لو نفعت المعرفة ، وعلمت انها اخون من الورقاء ، وشر العلم علم لا ينتفع به) وفي اللزوميات نقرأ :

تعلل الناس حتى بالمنى وسما ذو الغور يهدي الى التجدية القبلا

ارى الطريقين من ميت ومن ولد لا يخلوان كلا نهجيهما سبلا

فلا تبن لمجرى السل اخبية فالحزم ينزلك الاخياف والقبلا

بلى لجسم وبلوى حلف مصطحب ان قلت لا عند امر عن قال بلى

فكل وعد ، وعد كاذب :

سحائب مبرقات مرعدات لمهجة كل حي موعدات

وكيف يقام في امر مهم ليفعل والمقادر مقعدات

فالحنين الى الأمل يزيد ويفسد الفكر كما اعتقد بوذا وكما صرح المعري :

احن الى امل فاتني كما للشبوب وعيش القرا

متى قرقر الهاتف العكرمي هيج شوقا الى قرقرى

وقد يفسد الفكر في حالة فيوهمك الدر قطر السرا

او :

وكيف اقضي ساعة بمسرة   واعلم ان الموت من غرمائي

او :

وكل يؤمل صفو الحياة   وذلك في فلك لم يدر

الزهد

ينتج من ترك التعلل بالآمال الزهد ، فكلا الحكيمين ، زاهدين الى اقصى حدود الزهد ،نرى ذلك في اعتزالهما عن الناس ، وحثهما العالم الى ذلك ، هكذا زهد بوذا وهكذا فعل ابو العلاء :

فجنب الزهو في الدنيا فلو زهيت   غر الغمام لذم القطر اذ نزلا

فاعجب لعود الغواني لم يخف هرما   ولا يراه زمان في السرى هزلا

او :

وان قناع النفس من احسن الغنى   كما ان سوء الحرص من اقبح الفقر

فرغد العيش ظل زائل ، صرح بذلك بوذا ، وقال المعري في محلات كثيرة من الفصول والغايات ، وفي ما نشر عن الايك والغصون وفي اللزوميات :

وكيف للجسم ان يدعى الى رغد   من بعد ما رم في الغبراء او أزلا

فالدنيا اذن غرور تغش الجاهل فقط :

ودنياك غربها جاهل   فتبت على كل حال وتب

ويقول في محل آخر :

الروح تنأى ، فلا يدري بموضعها   وفي التراب ، لعمري يرفت (١) الجسد

وقد علمنا بأنا ، في عواقبنا   الى الزوال ، ففيم الضغن والحسد

فكلاهما يحبان الاخشوشان في العيش والابتعاد عن زخرف الدنيا ، اما ترك

---

(١) يرفت اي يصير رفاتا

الغناء فقد كان من مذهب بوذا ولا ندري هل سلكه المعري بعد رجوعه من بغداد؟ •• اما في بغداد نفسها (فتذكر المصادر) انه قد سمع قينة تغني في دار سابور ، وعلى كل فله في الغناء (كما سنرى) باع طويل •

الجد

هذه الاوضاع الكونية ، وهذا الحظ العاثر للانسان المنكود يفضيان به اخذ الحياة بصورة جدية ، فالالم على زعمهما هو الاصل ، وما الشرور الا لتخدير الاعصاب من جراء عدم الانتباه • ان هذه الحقيقة المرة لكل من حكيمينا المتشائمين جعلهما يميلان الى الجد تاركين الهزل وكل ما يبعدهما عن الحقيقة جانبا • كرم جوهرهما فكرمت معه سيرتهما ، فلا غرابة من اجل ذلك ان نرى عند كليهما ثورة عظيمة على الخمر والمخدرات ، لان التمويه في نظريهما شأن النفوس الصغيرة ، والجري وراء الحق شأن العظماء من الناس • الدنيا الم وشرورها كثيرة ، ومع ذلك فتخدير الاعصاب غير جائز :

رعى الله قوما مضى دهرهم   وما فيهم احد يهزل

ويوضح اكثر من ذلك في بغضه للتدليس :

اطلبتم ادبا لدي ولم ازل   منه اعاني الحجر والتفليسا
ما كنت ذا يسر فاجمعه ولا   ذا صحة فأحالف التغليسا
واردتموني ان اكون مدنسا   هيهات غيري آثر التدليسا

فالمعري كبوذا او غيره من الحكماء الخالدين ، بعيدين عن التدليس يودون البحث عن الحقيقة وان كانت مرة •

ضد النسل

الدنيا شرور في نظر الحكيمين ، او ليس الاوفق ترك الزواج والهرب من المرأة مهما خدعتنا ببهرج جمالها • هكذا فعل بوذا، وهكذا فعل ايضا ابو العلاء واتخذ ذلك مبدأ له :

وجدت الموت للحيوان داء — وكيف اعالج الداء القديما
وما دنياك الا دار سوء — ولست على اساءتها مقيما
ارى ولد الفتى عبئا عليه — لقد سعد الذي امسى عقيما
اما شاهدت كل ابي وليد — يؤم طريق حتف مستقيما
فاما ان يربيه عدوا — واما ان يخلفه يتيما

ان اشعار حكيمنا في هذا الصدد كثيرة وجديرة بأن يخصص لها بحث خاص مستفيض :

نصحتك لا تنكح فان خفت مأثما — فاعرس ولا تنسل فذلك احزم

او :

انسل واعقم فالتوحد راحة — سيان نجلك والخبيث الناسل

او :

دع آدما لا شفاه الله من هبل — يبكي على نجله المقتول هابيلا
ونحن من حدثان نمتري عجبا — ومعشر يقفون الغي تسبيلا

السلبية

ان هذه السلبية عند بوذا والمعري لا تقف عند افكار النسل بل تتعدى الى سلبية في الحياة الآخرة وفي المدبر لهذه الاكوان • هذه هي سلبية واضحة عند بوذا وغامضة عند المعري ، او بالاحرى فان بوذا لم يذكر شيئا واضحا عن حياة الآخرة حسب ما تواتر عنه • وجل ما نعلم عن النيرفانا ، ما هي الا فناء للروح على ما يظهر كي لا تعود الى الشقاء الارضي ، والمعري لا يذكر لنا من ذلك شيئا • وجل ما في الامر اننا نجد فيه سلبية من عدم المعرفة الحقيقية بالكيفية ، لا من عدم الاقرار بالوجود • اذن رغم اتفاق المعري وبوذا في الماهية في هذه القضية ، بقي شاعرنا العربي امينا للشرائع السماوية ، او بتعبير آخر انه الف بين دينه الموروث والفكرة البوذية •

اما الاله فأمر لست ادركه — فاحذر لجيلك فوق الارض اسخاطا

لان كل الاقاويل التي نسمعها ما هي الا هذاء :

كأن خطيبا موفيا رأس منبر يبث هذاء بالكلام المسجع
اذا كان جسمي في الثرى غير عالم فلحدي خير من ميتي بمهجع

اننا ولا شك نعلم ان المعري انتقل من شك مبرح الى ايمان عميق، ولكن مضى عليه حين من الدهر ، كان فيه من الشكاكين ، وقريب من السلبيين يدلنا على ذلك كثير من رسائله ، وكثير من اشعاره ، ولكن متى كان كذلك ؟ ومتى انتقل من حيرة الشك الى برد اليقين ؟ ذلك لا علم لنا به ، وعلى كل تدلنا وصيته التي اوصاها في الكتابة على قبره :

هذا جناه ابي علي وما جنيت على احد

بان مسحة من سلبية في هذا الوجود قد صحبته الى الراحة الابدية .

اما حياتي فمالي عندها فرح فليت شعري عن موتي اذا قدما

ويوضح اكثر من ذلك بقوله :

حياة وموت وانتظار قيامة ثلاث افادتنا الوف معان
فلا تمهر الدنيا المروءة انها تفارق اهليها فراق لعان

وكذلك قوله :

اسير عن الدنيا ولست بعائد اليها وهل يرتد قطن الى دجن ؟

او قوله :

فهل قام من جدث ميت فيخبر عن مسمع او مرأى

فكل شيء في زعم المعري مثل بوذا فمصيره الى الزوال :

نزول كما زال اجدادنا ويبقى الزمان على ما نرى
نهار يضيء وليل يجيء ونجم يغور ونجم يرى

وتتجلى لنا فكرة العدم المطلق او النيرفانا التي قال بها بوذا :

فيا ليتنا عشنا حياة ، بلا ردى بدهر ، او متنا مماة بلا نشر

كنا هنا نرى بعض اقوال تتفق مع ابيقور ، ولكن شاعرنا بعيد بروحه عن الابيقورية لعدم توخيه سعادة وان كانت سعادة نفسية «١» والذي يتوخاه على ما يظهر من كثير من تصريحاته هو العدم المطلق ، وذلك الهدف الذي يرمي اليه بوذا من قبل ، ان فترة الشك عند ابي العلاء تذكرنا بمذهب الشكاكين في شتاء الفكر اليوناني ـ كما عبر عبدالرحمن البدوي ـ ولكن المعري لم يكن شكاكا وانما اتخذ الشك مطية للوصول الى اليقين الى ان استقر في العقل كما صنع ديكارت واخيرا انتهى بالصوفية على ما يظهر .

ضبط النفس

ان دنيا كلها ألم وشرور ، لا تسمح بقتل النفس ولا الاسترسال الى مخدرات ، لاننا لا نريد التمويه ، بل معرفة الحقيقة تحتاج الى ضبط النفس بصورة هائلة ، وتوصلا لذلك فقد وضع بوذا في تعاليمه ضبط النفس ويروي عنه القول المأثور عن سليمان الحكيم (ضبط النفس اصعب من فتح اسالك) . نجد ذلك القول عند المعري ايضا ، كما اوردنا ذلك في الشعر الثاني الذي افتتحنا فيه مقالنا هذا او بتعبير آخر ايضا :

اذا المرء لم يغلب من الغيظ سورة   فليس وان فض الصفا بشديد

طبعا لم تكن فضيلة ضبط النفس عند هذين الحكيمين فحسب ، بل هي ايضا عند اكثر الحكماء ومؤسسي الشرائع ، حتى انها عرفت عند قدماء البراهميين قبل ان يعرفها بوذا نفسه ، وعلى كل فهي تنضم ايضا الى وجه التشابه بين الحكيمين وان اتفق ايضا غيرهما معهما بذلك ، فكلاهما يدعوان الى اصلاح الذات قبل اصلاح الغير ، صرح بوذا في تعاليمه وقال المعري في لزومياته :

زع نفسك اليوم واندبها الى حسن   فان اطاعت فأدب غيرها وزع

لذلك فتفقد العيوب من الضروري :

عيوبي ان سألت بها كثيرا   وأرى الناس ليس له عيوب ؟

وللانسان ظاهر ما يراه   وليس عليه ما تخفي الغيوب

«١» ـ ويؤيدنا في زعمنا المستشرق غيوم ، انظر مقاله في «العالمان» عدد المعري الخاص دمشق ١٩٤٤

فالاتزان النفسي يتطلبه بوذا والمعري :

لا تفرحن بفأل ان سمعت به ولا تطير اذ ما ناعب نعبا
فالخطب افظع من سراء تأملها والامر ايسر من ان تضمر الرعبا

هذه الشجاعة الادبية هي التي تنفي خوف الموت :

وجدتك اعطيت الشجاعة كلها غداة لقيت الموت غير هيوب

عمل الخير

ان مفهوم الخير عند المتشائمين يختلف عما لدى المتفائلين ، فالمتفائل يعمل الخير تجاه يؤمله ، والمتشائم اما ان يهجر عمل الشر لانه لا يؤمل اجرا على عمله ، واما ان يعمل الخير لاجل نفسه ، لا يتخذه واسطة لغاية ، هذا الاعتبار الاخير يعلي قدر الفضيلة وهكذا يقول المعري :

واعبد الله لا ارجو مثوبته ولكن تعبد اعظام واجلال
اصون ديني عن جعل أؤمله اذا تعبد اقوام باجمال

اذا امعنا النظر في فكرة الخير عند بوذا نجدها الى حد ما عند المعري فبوذا لا يقول لك افعل الخير ، بل يقول تجنب الشر ، فلا يقول لك كن عفيفا ، بل يقول دع الشهوة ، فتعاليمه كلها سلبية ، وانما كانت كذلك لعقيدة قائمة في النفس ، هو ان العمل الايجابي يزيد التكالب على حطام الدنيا وهذا يزيد الشقاء على زعمه • اما الامور السلبية فهي تنقص الحياة مصدر الالم في الكون ، وبنقصانها تتخفف الآلام •

لا ندري هل ان فكرة السلبية الرياضية هي من اصل هندي ولكن مما لا شك فيه ان فكرة الفراغ او بالاحرى الفناء الهندي (اللا وجود) هي التي اوجدت الصفر وحلت لغزا كبيرا من الفكر الرياضي ، اذ بدونها لا يمكننا ان نعقل الاسلوب العشري في الحساب الذي ساد العالم اجمع ، ونقله علماء العرب عن

الهند الى العالم المتمدن «١» •

ان مفهوما من هذا القبيل لا نجده عند المعري بتمامه ، ولكن وصيته بالكتابة على قبره بان الوجود جناية يجد مثله الاعلى في اللاوجود ، المثل الاعلى البوذي • رغم ان المثل الاعلى في اللاوجود • فعمل الخير لا يقرنه المعري بشيء :

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير واحسن لا لأجل ثوابها

فشيخنا لا يريد فعل الخير تجاه اجرة يتقاضاها ، ولا يترك الشر خوفا من عذاب يلقاه ، فليس هو بتاجر يبتغي الربح ، ولا بعبد يخاف الضرب ، وسيان عنده آكان بعد عالمنا المادي عالما آخر ام لم يكن ، فهو كبوذا يحب السلم ، يحب الوئام ، يحب الراحة ، اما الغاية القصوى التي يسعى اليها فهي لا شيء •

هذه العاطفة الفياضة في عمل الخير ، لا خوفا من عقاب ولا حبا في نيل الثواب ، تسوق كلا من الحكيمين المتشائمين لاكرام الضعيف وتفضي الى تساوي الطبقات والرفق بالفقير والمسكين وابن السبيل ، نرى ذلك جليا عند بوذا والمعري ايضا •

اكرم ضعيفك والآفاق مجدبة ولا تهنه ولو اعطيته القوتا

وما ثورة بوذا على البراهميين من اجل المنبوذين الا من روح اكرام الضعيف ، وهذه الروح نجدها عند حكيم المعرة كما ذكرنا ذلك عند مقارنتنا له بـ (كانت) في رسالتنا هذه •

لا يقف هذا الاكرام عند الانسان العاقل ، بل يتعداه الى الحيوان الاعجم ، من اجل ذلك كره كل من بوذا والمعري الذبح ورفض لحوم الحيوان وكل ما يخرج منهما غذاء لهما ، فلم يسمحا اكراما للضعيف باراقة الدماء ، وهكذا وضع بوذا في اول بند من تعاليمه العشر ، عدم القتل ، وهكذا فعل المعري ، قائلا في لزومياته :

«١» ـ راجع بحث التراث الهندي في الرياضيات العربية ، من كتاب شمس الله في الغرب الذي ظهر اخيرا في اللغة الالمانية : ولاجل الدلالة على الفراغ بوضع نقطة ، او دائرة ويسمى هذا الفراغ بـ ـ سونيا او سونيابندا ـ والصفر هو الثقب اي خا . (المصادر الاعجمية ١٦) .

غدوت مريض العقل والدين فالقني لتسمع انباء الامور الصحائح

فلا تأكلن ما اخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ولا بيض أمات ارادت صريحة لأطفالها دون الغواني الصرائح

ولا تفجعن الطير وهي غوافل بما وضعت فالظلم شر القبائح

ودع ضرب النحل الذي بكرت له كواسب من ازهار نبت فوائح

فما احرزته كي يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح

مسحت يدي من كل هذا فليتني ابهت لشأني قبل شيب المسائح

وانا لنجد ايضا في اللزوميات عمل الخير في ترك الشر وهي فكرة بوذية ايضا :

تجنب الوعد يوما ان تفوه به فان وعدت ، فلا يذممك انجاز

واصمت فان كلام المرء يهلكه وان نطقت فافصاح وايجاز

وان عجزت عن الخيرات تفعلها ، فلا يكن دون ترك الشر اعجاز

خلاصة البحث :

ان وجوه الشبه اذن ليست بقليلة بين بوذا والمعري ، فهي في نظرة التشاؤم الى هذا الكون والاحساس بالالم في هذا الوجود الارضي ، ورؤية الشرور في العالم والتعلل بالامال والزهد الشديد في الحياة ، وترك الهزل واتباع الجد ، واعلان حرب شعواء على مواصلة الحياة من التكالب على حطامها ومتابعتها بالنسل، والفلسفة السلبية ، سلبية في عالم الشهادة وسلبية في عالم الغيب التي وان اختلف المعري مع بوذا في فروعها فيتفق في اصولها ، فعند بوذا تكاد تكون نفيا مطلقا ، وعند المعري تظهر جهلا في المصير عقلا ، وان كان قلبا من المؤمنين ، ويتفقان ايضا في ضبط النفس ، ويقتربان في فكرة الخير والثورة على الظلم والتساوي بين الطبقات واكرام الضعيف بما فيه الحيوان ، ونقد ما سلف .

خاتمـــــة :

لا نعلم هل ان هذا التوافق كان صدفة واتفاقا من باب توارد الخواطر ام ان ابا العلاء درس المذهب البودي فأخذ منه ما راق له ان يأخذ ونبذ منه مـا شـاء ان ينبذ كما درس غيره مـن المذاهب ، وان اعترض معترض ان هذه السلبيـة اقتبسها من المسيحية فنجيب على ذلك بان السلبيـة المسيحية تختلف عن البوذية ، فتبدأ الاولى بنفي وتنتهي الى ايجاب ، ولكن الثانية فمن نفي الى نفي •

كانت المذاهب الهندية على ما يظهر قد تسربت الى العالم الاسلامي ويـرى المستشرق ماكس هورتن اتفاقا كبيرا بين فكرة الفناء الصوفية والنيرفانا الهندية ، وان اختلف الفرع فانها متفقة في الاصل ، فالصوفي الاسلامي كان يريد الفناء في الله والمتأمل البوذي كان يبغي الفناء دون الاتحاد بمدبر هذا الكون خلافا للراهب المسيحي ، ويقال ان قصة ابراهيم بن ادهم الذي عاش في القرن الثامن الميلادي ، والذي قيل انه ترك الامارة والعرش وصار صـوفيا هي قصة بوذا نفسه منقولة «١» (كما سبق لنا وبينا ذلك «٢») •

من اجل ذلك فلا يبعد ان يكون المعري قد درس البوذية وتأثر بها ولعـل ذلك قد حدث حين دراسته للصوفية وان كان لها من الناقدين وحين زيارته بغداد،

«١» ـ راجع عبد اللطيف طيباوي ، التصوف الاسلامي ، بيروت ١٩٢٨ ص ٤٠ ، وما بعدها .

«٢» ـ راجع مقالنا (اقوال بوذا) دلهي الجديدة ، ابريل ١٩٦٢ . مجلة ثقافة الهند .

النزعة الصوفية عند أبي العلاء

الحمد لله الذي صاغني اطعمني رزقي واحياني
شخصي هذا عرض للردى ولم يزل معدن عصيان
من كل فن فيه اعجوبة كأنه جامع سفيان

الموضوع الذي عالجناه من قبل والذي حاولنا فيه اثبات توافق الآراء بين المعري و (كانت) لا في سيادة سلطان العقل فحسب ، بل في وجوه ثنائية عقلية من عقل صرف وعقل عملي ايضا ، ولا نقصد في ذلك اننا برهنا على تطابق افكار فيلسوف الغرب وحكيم الشرق ، انما بينا وجود بذور الفلسفة الكانتية عند ابي العلاء . فالاشادة بالعقل وسلطانه كما اظهر لنا احمد امين في موضوعه الفذ الذي القاه بمناسبة مهرجان ابي العلاء «١» يلعب دورا كبيرا في تفكير شاعرنا ، فعلى هديه يريد ان يفسر كل الامور من فردية الى اجتماعية الى كونية ، زاعما ان اكثر الضلالات البشرية آتية من الابتعاد عن جادة المعقول .

بيد ان عقل ابي علائنا الجبار يخفق في ادراك المغيبات ، كما اخفق عقل (كانت) بعد قرون عديدة ، وهذا الاخفاق في زعمنا هو سر حيرة المعري وتصريحاته «٢» من اجل ذلك اكتفى من ناحية واحدة في الفضائل العملية كما فعل (كانت) ، لان شاعرنا علم ايضا ان المغيبات ومشاكلها المعقدة ابعد من ان يستوعبها العقل البشري ، ولهذا السبب اتخذ له مبدأ بعيدا عن اللذة منقادا الى الواجب (كما فعل بعد ذلك خلفه الغربي المار الذكر) ، ولم يكتف المعري بالتصريح بلزوم اتباع الواجب ولو ادى الى العذاب والشقاء ، بل قام بذلك عمليا من تعليم اطلاب الآمين بيته او الدفاع عن كرامة من اعتقد فيه النبوغ كالمتنبي وان اهين في سبيله او كدفاعه المجيد عن المعرة اثناء حصار صالح بن مرداس لها ، وصرح بلزوم

«١» ـ القيت هذه المحاضرة في دمشق ، ايلول ١٩٤٤ ونشرت بين محاضرات المهرجان المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٤٥ .

«٢» بحث بين المعري و (كانت) .

اتباع الواجب في اللزوميات :

وأي دين لآبي الحق ان وجبا ..

وفي الفصول والغايات يقول «١» (ص ٢٨٠) : « وقد تمسك الى الواجب ولو بجرير » ومهما تزعزع سلطان العقل عنده فلا ينبذه جانبا ، لانه ضروري من اجل المسئولية وتعلق الاعمال بالناس ، ويقصد بذلك نسبة الشرور اليهم ، فيضرب لذلك مثلا بحجر موضوع على قارعة الطريق . فاذا عثر به احد فلا ذنب للحجر وانما الذنب للواضع (٢٧٩) . فالتبعة خطرة وهي التي تنغص عليه العيش وتدفع الحياة مريرة (٣٦٠) : « لو امنت التبعة لجاز ان امسك عن الطعام والشراب حتى اخلص من ضنك الحياة ، ولكن ارهب غوائل السبيل . ان فعلي غيري جميل ، والغاب مظنة «٢» من الاسد ، والعشرة مكمن الجان ، «٣» « ولعل الارقم راقد في الهشيم » .. »

اقر بسلطان العقل للزوم التبعة الاخلاقية ، ولكنه رآه ضيقا من ان يعرف كنه هذا الوجود والسر الخفي . فشك اولا ، ثم اطمأن به ثانيا ، ثم عاد فشك في سلطانه على كل شيء مرة اخرى .

يعيش الفتى ما عاش كالظبي لم يفد ... بدنياه الا ان يعال ويكبرا

ولم يدر لما ان اتاها ولا درى ... الى اين يمضي فاستكان مدبرا

في هذه الحيرة المظلمة اضاء في قلبه نور ايمان جديد هداه سواء السبيل ، فحدث معه كما حدث للأديب المعاصر (توماس مان) الذي يقول في كتاب ارسله الى عميد كلية الفلسفة في جامعة بون ما يلي «٤» : « رغم اني خارج عن نطاق الدين ، ولم اجز ذكر الله على لساني وقلمي ، ففي هذه الاوقات العصيبة ، وفي هذا الهيجان النفسي انهي تحريري بهذا الدعاء : اللهم اسعف وطننا من الخروج من هذه

«١» ـ الفصول والغايات ، القاهرة ، ١٩٣٨ وجميع الاستشهادات ورد ذكرها هي من هذا الكتاب، وقد اكتفينا فقط في ايراد رقم الصفحة فكل رقم يرد في هذا المقال يقصد به رقم صفحات الفصول والغايات .

«٢» ـ مظنة من الاسد كما تفسر في الفصول والغايات اي يظن ان فيه الاسد (والتفسيرات هي من الفصول والغايات ما لم يذكر غيرها صراحة) .

«٣» ـ الجان ، الحية ، ويقال جان العشرة .

«٤» ـ نشر هذا الكتاب في جريدة مانجستر غارديان الانلكيزية ١٢ شباط ١٩٢٧ ص ١٢١ .

الظلمة المدلهمة ، وعلمه ليحقق السلام مع العالم ومع نفسه » فهذه الازمة الروحية اما تنتهي بايمان كما حدث لهذا الكاتب او باليأس من روح الله والانتحار كما حدث لكراوس الاخصائي في الدراسات السامية ومدرس هذا الفرع في جامعة فؤاد الاول سابقا . «١» .

العقل يوصلنا الى الشك والاضطراب ، وفي مراحل شكوكنا اما ان نصل الى حد نقف عنده والجبن الى اعماق قلوبنا مكونين عقيدة راسخة لنا في هذا الكون من عاطفتنا او نستسلم الى اليأس . واليأس احدى الراحتين . فرغما عن نظرة المعري السلبية في هذا الكون التي قام محرر المقال في البرهنة عليها اثناء مقارنة هذا الحكيم ببوذا الهندي ، فاننا نرى لمعان نور الايمان العميق في قلب المعري الحساس (٢٠٨) : « العقل نبيء «٢» ، الخاطر خبيء «٣» ، والنظر ربيء «٤» ، ونور الله لهذه الثلاثة معين » ، فعلى ذلك يكون لولا نور الله لما اهتدينا ، ولما اطمأنت قلوبنا، وهكذا بينما نرى المعري في اللزوميات في اماكن عديدة يعظم العقل ولا يقبل الا بالمعقول ، مبرهنا على الضروريات العقلية ، نجده في الفصول والغايات في كثير من المواضيع يسخر بالضروريات العقلية ، حتى انه يجد مجالا للمعجزات (١٨) : « الجسد بعد فراق الروح كما قص من يدك وقصر من فودك ، اذا القي فسيط «٥» في النار لم تباله ، واذا غرق قليل في اللج فكذاك ، هكذا يقول المعقول ، ولله نظر في العالم دقيق ، لا يمتنع ان يكون جسد الصالح اذ قبر في جحيم وجسد الكافر في عذاب اليم ، لايعلم به الزائرون وعابد الله ليس بغبين ... » وقد ذكر مخاطبا الانسان (١٤٩) « غير كمغير الانام ، لا يتغير القديم انما ذلك من شأن المحدثات » ويظهر تهكمه بالعقل او بالاحرى بالضرورات السببية اكثر من ذلك بقوله (٥٧) : « ان شاء الملك قرب النازح وطواه ، حتى يطوف الرجل في الليلة الدائية بياض الشفق من حمرة الفجر طوافه بالكعبة حول قاف ، ثم يؤوب الى فراشه . والليلة ما همت بالاسحار ، ويسلم بمكة فيسمعه اخوه بالشام ، ويأخذ بالجمرة من تهامة فيوقد بها ناره في بيرين وقاصية الرمال ... »

«١» ــ الاديب ، تشرين الثاني بيروت ١٩٤٤ « باب البريد » .
«٢» ــ نبيء : المنبيء (ناشر الفصول والغايات) .
«٣» ــ خبيء : المخبوء (ناشر الفصول والغايات) .
«٤» ــ ربيء : الحارس المطلع (ناشر الفصول والغايات) .
«٥» ــ فسيط : قمع التمرة (ناشر الفصول والغايات) .

ان هذا الاعجاب في آيات الخالق البديعة تدع المرء مشدوها غرقا في تأملات او بالاحرى باعتبارات وانابه الى المبدع الاعظم ، هذا ما حدث فيما بعد للغزالي وديكارت «١» و (كانت) «٢» ، غير ان الوقفة العاطفية على ما يظهر كانت قصيرة عند الفيلسوفين الغربيين وطويلة عند حجة الاسلام وشاعر التشاؤم • ويفترق المعري عن الغزالي في هذا الصدد كون الاول (وفقا لاشعاره في اللزوميات) جدب العقل مدة طويلة فما نبذه الا بعد ان اختبره وفي الحقيقة فان المعري لم ينبذ العقل وان اقر بسلطان فوقه ، ولكن على ان لا يتضارب مثل هذا الاقرار مع العقل السليم ، اما الغزالي فنبذه دون خبرة كافية كما دون لنا ذلك في المنقذ من الضلال • لانه اتهم العقل على سبيل الظن «٣» ولكن الظن لا يغني عن الحق شيئا ، فلم يقل انه اثبت لديه عدم الثقةبالمعقولات بل صرح بضيق حدود الحس فقاس العقل على ذلك دون ان يبرهن على الضرورة المحتمة ، فاذا خدعنا زيد فما المسوغ ان نعتقد بان عمروا سوف يخدعنا مع اننا لم نجربه ، في فرص متعددة برهن المعري على ضيق نطاق العقل ، فعلى رأيه ان العلم يدرك بثلاثة اشياء : بالقياس الثابت والعيان المدرك والخبر المتواتر ، فاما الحسن عنده (٤٦٨) « فزجر الطير هي خليقة بالكذب وان صدقت فباتفاق ، والعلم لله كملا » •

كذلك يصرح المعري برأي صرح الغزالي بـه «٤» والفيلسوف الانكليزي هيوم «٥» من بعده ، ان ربط الاسباب بالمسببات لا من الضرورة بل عادة واتفاقا، وما فعل المعري ذلك الا ليثبت قدرة الله التي لا يعجزها شيء ولا يسوغ تقيدها مطلقا (٣١) : « يقدر ربنا ان يجعل الانسان ينظر بقدمه ، ويسمع الاصوات بيده، وتكون بنانه مجاري دمعه ، ويجد الطعم باذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشي على الارض على هامته •• سبحانك ملك الملوك وعظيم العظماء » وفي التقليل من اهمية المحسوسات نزعة صوفية ظاهرة تود الرجوع الى الباطن لتستمد منها الهامها ، فالحواس لولا قدرة الله لا شيء • ولا يقف اتهامه عند الحس بل يتعدى ذلك الى العقل :

«١» ـ التأملات (التأملة الرابعة) .

«٢» ـ كانت : (نقد العقل العملي الفصل الاخير)

«٣» ـ المنقذ من الضلال ، دمشق ١٩٢٨ ص ٧٢

«٤» ـ المنقذ من الضلال ص ٣٥ .

«٥» ـ تاريخ الفلسفة لشفلفر (بحث هيوم) .

هي النيران تحسن من بعيـــد وتحرقن الأكف اذا لمسنه

اخذن اللب اجمع ظاعنـــات فعدن وما ربحن وما خسرنه

ويصرح اكثر من ذلك في الفصول والغايات (١٠٩) : « اما في المعقول فلا ، واما في القدرة فبلى ، العادات باذن الله متغيرات » .

بعد ما بيناه لا نرى صعوبة في تبيان المواضيع التي يتفق بها المعري مع النزعة الصوفية ، وان ظهر في كثيرمن الاحيان وخاصة في اللزوميات من اكبر الثائريـــن عليها ، فالثورة على الشيء لا يبرهن على البراءة منه . قد يكون وقع ذلك حينا من الدهر ، او تكون روح الثورة منبعثة عن رغبة اكيدة في الرجوع بالفكرة الـــى ينبوعها الاصلي الصفي الزلال ، او من تضافر التيارين او لعوامل اخرى، وكثيرا ما يكون الانسان ثائرا اشد الثورة وفي القول والعمل باشياء عديدة مع ما هو ثائـر عليه . وسواء أكان المعري مقرا ام رافضا للصوفية ظاهرا او باطنا فاننا نجد كثيرا من تصريحاته وسلوكه في الحياة يتفق مع النزعة الصوفية اتفاقا كثيرا .

اول ما يتفق المعري مع المتصوفة كما بينا شكه في الحواس ولجوءه الى الله الذي ينير ظلمات القلوب (٢٥٩) : « ادعوك وعملي سيء ليحسن ، وقلبـي مظلم لكي ينير ، وقد عدلت عن المحجة الى بنيات الطريق ، وانت العدل ، ومن عدلـــك اخـــاف » .

الزهـــــد :

لا نحتاج الى كثير عناء لاثبات زهد ابي العلاء ، وقد بينا ذلك اثناء مقارنتنا لـه ببوذا الهندي ، فليست اشعاره واقواله التي ملأت الدنيا تشير الى الزهد فقط ، بل ان حياته تكاد تكون كلها حياة زهد وتقشف وازدراء باللذة ولا يمنع ذلك قوله في اللزوميـات .

ولـــم اعـــرض عـن اللذات الا لان خيـارهـــا عنـي خنسنـه

او :

وقـال الفارسون حليـف زهـــد وأخطـأت الظنون بمـــا فرسنه

فلدى التأمل ومقارنة اقواله ببعضها مستعينين في سلوكه في الحياة تجده وان رفض ان يسمي نفسه زاهدا ، فهو زاهد الى اقصى حدود ذلك . نعم انه ينكر على نفسه هذه التسمية لانه لا شيء يطمع فيه ولا لذة جديرة بالتمتع بها ، فحياة اللذة التي يقصدها هي اللذة التي لا وجود لها ، فالضحك حين تقدم الى الدنيا هو برق خلب ، والبكاء عند الموت هو الحقيقي ، لانه نهاية كل شيء ، والامور بعواقبها . قدمنا والقوابل ضاحكات وسرنا ، والمدامع ينبجسنه .

فاذا كان صاحب كتاب التصوف الاسلامي في الاخلاق والآداب «١» يرى في ابي العتاهية نزعة صوفية لقصيدة من نظمه غناها الملاحون لهارون الرشيد والتي مطلعها :

خانك الطرف الطموح ايها القلب الجموح

والتي تختم :

نح على نفسك يا مسكين ان كنت تنوح
لتموتن ولو عمرت ما عمر نوح

فما باله يقول في زهديات المعري ومواعظه (٢٥٥) ، « اذا اصبح النصح ثقيلا ، والمساجد قالا وقيلا ، وصارت الامارة غلابا ، والتجارة خلابا ، فالبيت المحفور ، ومجاورة الفور «٢» خير لك من مشيدات القصور ، والفقير اربح صفقة من ذي التاج » فاذا كان المرء جاهلا مصيره فما هي لذة الحياة . هذا السؤال العميق يردده دوما ابو العلاء ولا يجد له مجيبا (١٦٢) . « اين اكون بعد البيت المسكون ، احل بالصعيد ، لا اشعر بمجمع ولا عيد ، وذلك منزل المنفرد الغريب ، والله مؤنس المستوحشين ... » اما الطمع بالبقاء فمن خرق الرأي ، (٤٤٣) . « ما البقاء الا طول شقاء والحياة ظلمة ليس فيها اياة «٣» ، ومن السعادة ان يموت القوم كراما .. » وبتعبير آخر (٢١٨) « يا جواب الارض هل مررتم بقطر ، لا يصوب فيه القطر ، نعم في الارض بلاد لا تجودها الامطار ، فهل احستم

«١» ــ تاليف زكي مبارك القاهرة ١٩٣٨ ج ٢ ص ١٠٧ .
«٢» ــ الفور : الظباء (في شرح الفصول والغايات نفسها) .
«٣» ــ الاياة : ضوء الشمس (في النص نفسه ٤٤٧) .

بعطرة ليست بذات مقطرة «١» .. اجل ان كل روضة كذلك ، فهل سمعتم بمكان ليس فيه للموت استمكان . هيهات هيهات . ان الموت نزل على الجبل والبراث «٢» فالدنيا حقيرة كما بينا لا مطمع فيها (٣٣١) : « غفرانك اللهم . عرفت الدنيا لو نفعت المعرفة ، وعلمت انها اخون من الورقاء ، وشر العلم علم لا ينتفع به » فان زهد في الناس فهو بهم لا زهد (٢٦٦) « ان زهد في الناس فاني فيهم لأزهد ، وان القوم لزهاد . لو كنت عبد الغير الخالق ، لم يجزىء عتقي في الكفارة . ولو كنت ضائنة لم أجزىء به في الاضحية .. ايها الهلال الناحل ، هل اضنتك المراحل ، ليس لبحرك ساحل ، ولا بلدك ماحل . قعدت والناس قيام ، وسهرت والركب نيام ، كل من شام البارق يضمه الشيام «٣» .. »

الاعتراف :

من اهم ميزة المتصوفين عدا عن ذكر الله في الغدو والآصال ، الاعتراف بالذنوب والتقصير ومحاسبة النفس محاسبة عسيرة ، ونحن اذا دققنا في الفصول والغايات لوجدنا المعري يكثر من ذكر الله ويرى ذكر الله احسن ما نطق به الناطقون (٢١٤) ، ويتعجب كيف غسلت الذنوب وقد صار لونها كلون اللابة والغداف (٢١٥) «٤» . ويعترف اكثر من ذلك بقوله (٢١٥) : « اني وغد واظن انني سمغد «٥» ، وقد عرفت نفسي بعض العرفان وحقرتها وهي جديرة باحتقار . خلقتني كما شئت واعطيتني ما لا استحقه منك ، ولعل في عبيدك من مثلي او شر في خزائنه بدر اللجين والعقيان «٦» ، لا يطعم منها المسكين ، ولا يغاث الملهوف . والطف بي ولا تجعل خطاي في وعاث «٧» » . فدوما يؤنب نفسه طالبا التواضع مبتعدا عن الغرور والكبرياء (٣٤٤) : « اف لك يا نفس ما اسرع فراقك لهذا الشخص ، انظر

«١» ـ المقطرة : المجمرة ماخوذة من القطر وهو العود الذي يتبخر به (في النص نفسه) .

«٢» ـ البراث : الاراضي السهلة واحدة برث (النص) .

«٣» ـ الشيام : التراب (النص) .

«٤» ـ اللابة : لغة في اللاتبة وهي الاحجار السود البركانية ، راجع نخب الذخائر للاب انستاس ماري الكرملي ، القاهرة ١٩٣٩ ص ١٤ الغداف : الغراب « تاج العروس » .

«٥» ـ السمغد : المجنون (النص) .

«٦» ـ اللجين : الفضة العقيان ، الذهب « الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني ، حيدر اباد ١٣٥٥ » بحث الفضة والذهب .

«٧» ـ وعاث جمع وعث وهو المكان السهل الكثير الدهس الذي تغيب فيه الاقدام « الناشر » .

اليك بعين النقص ، وفيك الخيلاء والكبر واليك يكر العتب » •

هذا الاعتراف وهذا الشعور بالتقصير هو من صميم الحياة الصوفية ، واذا عرفنا ان المعري كان يحاسب نفسه حسابا عسيرا ويرى ذنوبه عظيمة ، لتأكدنا من نزعته الصوفية التي لم يدخلها حتى الان احد ضمن التفكير الصوفي الاسلامي وان كانت فريدة في ذاتها او جديرة بان تسمى بالصوفية العلائية •

رغما عن هذا التواضع والاعتراف بالذنوب الكثيرة فلا نجد المعري ييأس من روح الله (١٧٩) : « لا آيس من رحمة الله ولو نظمت ذنوبا مثل الجبال سودا كأنهن بنات جمير «١» ، ووضعتهن في عنقي الضعيفة كما ينظم صغار اللؤلؤ فيما طال من العقود ، ولو سفكت دم الابرار حتى استن «٢» فيه كاستنان الحوادث في معظم البحر ، وثوباى من النجيع كالشقيقين والتربة منه مثل الضربة «٣» لرجوت المغفرة ان ادركني وقت للتوبة قصير •• لو بنيت بيتا من الجرائم اسود كبيت الشعر يلحق باعنان السماء ويستقل عموده كاستقلال عمود الوضح «٤» ، وتمتد اطنابه في السهل والجبل كامتداد الشمس ، لهدمه عفو الله حتى لا يوجد له ظل من غير لبـاث » •

القناعة بالقدرة الالهية :

ان الله عند المعري لا يحصره مثال وجل عن التشبيه والقياس (٦١) وهو قانع القناعة كلها بالقدرة الالهية ، فيسجد قدرة الله التي حارت البرية فيها والتي يراها آية الآيات (٢٥٢) : « نحن نكفر النعم والله يكفر السيئات ، فويح الكافر وسبحان المكفر : نغفر في مرض المعصية والله صاحب الغفر الاعظم ، وان حيوان الارض في قدرته اهون من المتخيلة في خيط باطل • لو شاء جعل نطق عباده ثناء عليه ، وكذلك هو ولكنهم لم يعقلوه » ، وقد ضرب لنا عن القدرة الالهية مثلا في نفس التصريح قائلا : « لو كانت صخرة صماء طولها مسيرة الف عام لذكاء في وسطها اصغر جسم متحرك ، نمت تلك الصخرة الى الله بحركات ذلك الجسم نمية

«١» ـ بنات جمير : واحدها ابن جمير وهو الليل المظلم (النص) •

اسن فيه : اي امضى فيه على شق من النشاط « النص » •

الصربة : صمغ احمر ويقال انه صمغ الطلح ، يقال في المثل تركوهم على مثل مقرف الصربة ، اذا اخذت اموالهم لم يبق لها اثر « النص » ، والقرف ، موضع القرف وهو القشر «الناشر» •

الوضح عمود الصبح «النص» •

الزجاج الصافية بالخمر القانية الى عين الشارب وهي في يده ، على انه في النظر كزرقاء او احد منها عينا ، بل تلك الصخرة الى الله انم في النظر من صافي الزجاج » .

فقدرة الله هي التي تتحكم (٨٤) : « ويرسل الله السارية والغادية من الامطار فيأمر الارض باداء ما استودعته فتبرزه باذن الله وقد راع » ، وبتعبير آخر ولغة تكاد تشابه القرآن (٣٤٢) : « وصيح بالارض اقبلي رهنك ، وبالنزيل فاغدري ، وحيز الماء ونسي العهد ، وانتوى على الانسان انيسه ذو الود القديم . لا تعجبك زهرة الربيع فترى مختالات الزاهرية ، فان القيظ من وراء الرياض ، كانت الارض ولا وادي بها ، والوادي ولا سمرة فيه ، واحدثت السمرة حبلة في كل عام ، ولو شاء المنشيء لجعل الحبلة سمرة ، والسمرة واديا ، والوادي شاهقا ، والشاهق خضارة ، وخضارة ودفة ، فيحي فياح » . ان الايمان بالله وقدرته جعلت المعري رجلا جبريا محضا بعدما كان متوسطا :

لا تعش مجبرا ولا قدريا واجتهد في توسط بين بينا

اما في الفصول والغايات فيجد قدرة الله وحدها هي المسيطرة في الكون (٢٣٧) . « واذا حضر القدر لم يغن القنا عن المشرعين » او (٢٥١) « قد فررت من قدر الله فاذا هو اخو الحياة وهل اطأ على غير الارض او ابرز من تحت السماء » ، (٣٢٨) . « ولا يعجز قدرتك المستصعبات ... واي معجز لست عليه بقدير » .

ويذكر ايضا (١٢٦) ، « اينما تسيروا يصحبكم الله كما صحب من كان قبلكم ، وله من العلم عين عليكم ، وان تصبحوا وراء شق الثعلب فالقدر معكم ، لا فرار من قضاء الله ، فاصروا على ما حكم انه واعي الكلمات » .

ويفسر المعري نفسه شق الثعلب بموضع بنواحي عمان يضرب به المثل في البعد .

الحب الالهي :

ان القناعة بالقدرة الالهية وسيطرتها في هذا الوجود افضت بالمعري الى حب الهي عميق ان دل على شيء فهو يدل على تمام بالروح واقرار بالضعف امام

العظمة الالهية ، وذلك هو سر التواضع الذي مر معنا في بحث اعتراف شاعرنا بالتقصير ، فلم يكن عبدا لاحد غير الخالق ، فكل تجلياته ، وكل مناجاته ما هي الا خالصة . هذا وان لم يذكر الحب الالهي عنوة ولكن تضرعاته ما هي الا تعبير عميق عن الحب الالهي المتأصل في نفس حكيمنا والذي في زعمنا يجاري به كبار الصوفية .

المناجاة :

تعبيرا عن الحب الالهي نجد مناجاة عميقة عند المعري هي سلسلة اغاني استمدها من قلبه وشوقا الى ذلك الطهر الذي كان يبتغيه في كل تعبيراته (٣٥) : « استغفرك ماحي السيئات من قول ليس باسناد ، استكثر من السناد «١» كم اوطيء في الذنوب ، واضمن الحوب «٢» بالحوب ، واذا تقويت لفعل الحسنة اقويت ، ومتى انكفأت الى الخير اكفآت ، فاسترني ربي فعيوبي اقبح من السناد والاكفاء » «٣» . او كقوله (٩١) « الحمد لله الذي انعم فاغفلت الشكر ، واحسن فأسأت ، وامهل زمانا فما انجمت، حمدا يوفي على كل عدد جال في ضمير، ونطق به ناطق واشار اليه مشير ، وما سوى ذلك من العدد الذي عليه مرسل السنة وكاشف السنوات » (٤) ، كذلك نجد عنده ثقة عظيمة في منشيء هذا الكون (٢٢٩) : « عابدك لا يضيع ولو نبذ في البضيع » (٥) ، فليتني من خشيتك ظعان ، (٦) سيار ، تقذفني الى الوهاد والهضبات ، آوى الى بيت شعر كبيت الشعر لا يمتنع عليه مكان ، وما انا والاخبية والبيوت : بل اكون في ظل الايك والكهوف ، اذا ذكر الناس كنت الانوق (٧) ، واذ اذكر الله فانا من الكعتان (٨) ، لا يبقي في الارض مقدار الجبهة الا سجدت فيه سجدات لله ، ولا قبضة من التراب الا بللتها بالطهور ، ارتقي بقول الصحراء واستقي من السعد (٩) .. »

«١» ـ السناد : ها هنا المخالفة « النص .

«٢» ـ الاثم (راجع تاج العروس ولسان العرب) . «٣» ـ الاكفاء : اختلاف حرف الردى في نفسه مثل ان يكون مرة طاء ومرة دالا .. انما يوجد ذلك في اشعار النساء «الضعيفة من الشعر (النص)

«٤» ـ السنوات : سنو الجدب والقحط (الناشر) «٥» ـ البضيع ها هنا البحر (النص) .

«٦» ـ الظعان الكثير الظعن .

«٧» ـ كصبور بمعنى العقاب ... او طائر اسود له عرف .. (تاج العروس) .

«٨» ـ الكعتان جمع الكعيت وهو البلبل جاء مصغرا ولا يعرف مكبره (النص) .

«٩» ـ السعد : جمع سعيد وهو النهر الصغير (النص) .

واقرار بالذنوب والضعف وطلب المغفرة من ارحم الراحمين لانه مهما عظمت ذنوبنا

ومن الصعب جدا حصر تلك المناجاة العميقة التي كلها تسبيح وتمجيد للخالق على رأيه (٢٣) وكرم ربنا اعظم من ظلم الظالمين . فالله في نظر المعري (٧٩) رب الملك والصعلوك « ليس غير اله وحدك بلا شريك . اخبأ كلماتي الطيبات في خزائن رحمتك لاستنجد بها وانا مسلم لا اومىء ولا اتكلم ، والجسد كالعود القطيل «١» قد حمل على اسرة الهالكين » .

فأين ما سرنا في هذا الاثر النفيس نجد دعاء عريضا يكاد يكون لنا ادبا خاصا هو اقرب ما يكون الى التصوف منه الى الحكمة العقلية التي تسكت وتدع العقل يتكلم ، وما اشبه هذه العبادات الخفية والتجليات الروحية بصلوات باسكال ذي العقل الجبار الذي ضم الى عقله حرارة الايمان «٢» ، فرغم اتزان حكيمنا الشرقي ، فانا لنرى دعاء عريضا فهو ان دل على شيء فيدل على الرغبة الشديدة في الطهر النفسي (١٧٣) « اللهم اجعل ذكرك عذبا على عذبة «٣» لساني ، ومخلدا طول حياتي في خلدي . تنفسا عند الكربة لنفسي ، ومنبطا للحكمة في قليب قلبي ، واسألك عصمة من الذنوب ، فان لم اكن اهلا للعصمة فلتكن جرائمي معك لا مع عبادك ، فانك الحليم الكريم ، وانا معشر الانس فينا سوء ظفر وقلة احتمال . واجعل رب طاعتك سيفي على العدو وسناني ، وزادي في السفر وراحلتي ، وأنسي في الوحدة ولذتي ، واعوذ بك منشيء الخلق من اذن كأذن طوى الزجاج الذي ماؤه حبر ، ورشاؤه يراع ، له اربع اذان يجذب فيها فيتبع ، وهو مع ذلك لا يسمع ، ومن فم كالوجار «٤» ، ما طرح فيه لهمه ، ومن يد كيد الصبي تبهش الى كل شيء : وليكن فيك انقد ، ونهاري لك نهار الطير الغراث «٥» .. »

وان العفو الالهي الشامل لتظهر روعته في هذا التوجه (٢٥٩) : « يا من سبح له زرقة الافق وزرقة الماء وحمرة الفجر وحمرة شفق الغروب ، وان كان الدمع يطفيء غضبك فهب لي عينين كأنهما غمامتا شتى تبلان الصباح والمساء ، واجعلني

«١» ـ القطيل : المقطوع (النص) .

«٢» ـ الافكار باسكال ، باريس ص (٢) « النص الافرنسي » .

«٣» ـ عذبة اللسان : طرفه (النص) .

«٤» ـ الوجار : سرب الضبع (الناشر) .

«٥» ـ الغراث : الجائعة (الناشر) .

في الدنيا منك وجلا لأفوز في الآخرة بالأمان ، وارزقني في خوفك بر والدي وقد فاد بره اهداء الدعوة له بالغدو والآصال ، فاهد اللهم تحية ابقى من عـروة «١» الجدب واذكى من ورد الربيع واحسن من بوارق الغمام تسفر له ظلمة الجـدث ويخضر اغبر السفاة «٢» ويأرج ثرى الارض ، تحية رجل للقياليس براج » .

بعد ما بيناه لا عجب ان نرى في هذا الأثر الرغبة الاكيـدة في الطهـارة الباطنية ، وما الطهارة الخارجية الاغش وخداع ، فاذا لم تقلع النفس عن المعاصي فكل العبادات عبثا (٢٨) . « كفرت البرية وربها حليم ، صوم الأبد «٣» افضل من صوم المفطر على حرام، فاذا صمت من المآثم فعند ذلك صم عن الطعام ، واحجج كلوم جرائمك «٤» فاذا برئت فاحجج عند ذلك مشاهد الصالحين . واعلـم ان صلاة المنافق صلاء النار ، وطهارة الخلد ابلغ من طهارة الجسد بالماء » .

فالعبادات اذن يلزم ان تكون واسطة لغاية ، لا تكون غاية في نفسها (٤٣٨) : « ان امر الله جل لا ينقصه غدر الغادرين ، ولا تزيد قدره صلاة المصلين ، ولكـن الصيام والصلاة ينفعان من فعلهما من الناسكين . فاسجدا للخالق وصوما ايهـا الملحدان في دين الله ، شد ما اجرأتما على القبيح ، لافعلن الخير ما استطعـت ولا احفل ان تلوما . الكتاب المختوم ، يشتمل على سر مكتوم ، فان فضضته ولم يأذن لك من امنك عليه فقد اوضعت في سبيل الخائنين ، فاكتم سرك ولتكن ناقتك فـي المثل كتوما .. » فالغاية كل الغاية عنده طهارة الجنان والنية الخالصة مع العمـل الصالح ، وبعد ذلك فكل شيء في نظره ثانوي . لهذا السبب فالمعري من اولئـك المتصوفة الذين لا يقيمون وزنا كبيرا للتعاليم الدينية الشكلية ، كما حاولنا اثبات ذلك لدى المقارنة مع (كانت) فشاعرنا من اولئك الذين تساموا بالاتصال بعالـم الارواح بعيدا عـن التدليس (كما وصف نفسه في اللزوميات) .

وارذتموني ان اكـون مدنسـا	هيهـات غيري آثر التدليسـا
ليس الانـام بمنجح فـاذا دعـا	داعـي الضلال فـلا يجدكـم ليسا

«١» ـ العروة : ما بقي له خضرة في الشتاء تتعلق به الابل (الناشر) .

«٢» ـ السفاة : تراب القبر (النص) .

«٣» ـ صوم الأبد : ذرق الظليم (النص) .

«٤» ـ احجج كلوم جرائمك : الحج (ضرب مـن مداواة الجرح) « النص » .

ان مـات صاحبكـم فجدوا بعـده — فـي النسك واتخذوا الخشوم جليسا
فاللـه مـا اختـار البقـاء وطولـه — الا لشـر عبـاده ابليســـا
وارى الذئاب الطلس يعجز كيدهــا — عـن كيد شيب اظهر التطليسـا (١)

ومن الغريب في مناجاته انه لا يذكر الانبياء الا نادرا ، ولقد اطلق لنفسه الحرية في تعبداته الباطنية معتقدا ان ليس بينه وبين الله وسيط ، حتى اننا لنجد عنده فكرة اسقاط التكاليف التي لعبت دورا كبيرا في مخيلة المتصوفين (١٧٦) . « الله اكبر تعبدا حتى يسقط فرض العبادة عن العبيد ، ويلحق فرقد السماوة بفرقد السماء فيكون مجاوره » ..

ولا يقف التشابه بالتصوف على ما ذكرنا بل يتعدى الى عاملي الخوف والرجاء اللذين لعبا دورا عند المتدينين والمتصوفين كما اومأ الى ذلك احمد امين في تعريف كتاب التوهم الذي نشره المستشرق اربري «٢» وللمعري تصريحات عديدة من هذا القبيل (٣٨٠) . « لـولا خشية المنقلب كنت احد الفائزيـن » (٤٥٨) . « والله اودع الانفس خوفا وطمعا » .

وجاء في اللزوميات :

اذكر الهك ، ان هببت من الكـرى — واذا هممـت لهجعـة ورقـاد
احذر مجيئك ، في الحساب بزائف — فـالله ربـك اقـد النقـاد
تغشى جهنم دمعـة مـن تائـب — فتبـوخ ، وهي شديدة الايقـاد

حكمـة التضـاد

طالما ارجأ المعري كل شيء الى القدرة الالهية ، فهي عنده كجامعة للمتضادات (١٨٨) « ايها الظليم هل لك في ماء او عماء . اما العماء فترعى عشرفة ، واما الماء فلا تريد متدفقة . سبحان خالقك لا ترد وانت غير مبرد «٣» ، والله منشيء المتضادات » ، حتى انه يرى في العدوات وفي التناحر على البقاء حكمة بليغة لا

«١» ـ الطلس في الذئاب : تساقط الشعر ، التطليس : التلبيس .
«٢» ـ القاهرة ١٩٣٧ ص ٧ .
«٣» ـ يريد ما يقال من ان النعام لا يشرب الماء ابدا وانه قوي الصبر على تركه مع ان جوفه حار يذيب العظم والصخر اذا ابتلعه (الناشر) راجع كتاب الحيوان للجاحظ ٤ ص ١٠٢ .

يدركها الا ذوي الالباب (١٨٩) • « والله مكن بعض من بريته من بعض ليكـــون ذلك آية لاهل الافكار » • هذا واذا علمنا ان نابغة في علم الحيوان كدارويـــــن يضع قانون التناحر على البقاء كحكمة طبيعية لا بد منها لتسيير دفة الكون وبقـــاء الاصلح «١» ادركنا خطورة تلك الفكرة التي تفوه بها المعري ، وهو يشبه ايضا في جمع التضاد لعمر بن الفارض القائل في تائيته الكبرى •

تحققــت انــا في الحقيقــة واحــــد   واثبت صحو الجمع محو التشتت «٢»

مدح الفضيلة وذم الرذيلة :

ان للمتصوفة اتجاها اخلاقيا قويما ، فهم يغوصون في بحر نفوسهم لاستئصال الصدأ الذي علق في ذلك القلب ومنعه من ان يكون مرآة للنور الالهي ، من اجل ذلك فالصوفي الحق يحاسب نفسه دوما على الكبيرة والصغيرة فتجلـــي القدرة الالهية لا تكون الا في القلب الطاهر ، وهذا القلب الذي هو عرش الرحمن لا يكون كذلك الا اذا كان بريئا مـــن الآثام بعيدا عن الرذائل يفيض بالحكمة والخـــير ، فتمجيد الفضيلة وذم الرذيلة عند المعري لا يقف على رسالة واحدة بل يكاد يكـــون عاما في جميع رسائله واقواله واعماله ، وتفيض (الفصول والغايات) بمطالـــب اخلاقية نبيلة من ذلك قوله : (٢٢٩) : «٣» « حر الى تقوى الله تأمن الحيرة ، ومت بحرة العطش ولا تردن خبيث الحياض ولا تكن محلتك من سواد الفواحش كحرة النار «٤» ، وابك على نفسك بكاء ساق حر «٥» ، وسواء عليك اتوســدت حر كثيب ام حرير العراق » • وكم وقف غضبانا آسفا من اجل سفك الدماء (٦٢) : « ما تصنع ايها الانسان بالسنان ، انك لمغتر بالغرار «٦» • كفت المنية ثائرا ما اراده ليت قناتك بسيف عماق ، وحسامك ما ولج حديده النار ، وريش سهامـــك في اجنحة نسور الايار «٧» ، ليستيقظ جفنك في تقـــوى الله ويهجـع نصلك في القـــــراب » •

«١» ـ راجع اصل الانواع لداروين ترجمة اسماعيل مظهر القاهرة ١٩٢٨ ج ١ ص ١٥٩ وما بعدها •

«٢» ـ ديوان عمر بن الفارض القاهرة ، ص ٥٧ •

«٣» ـ حر ـ ارجع النص •

«٤» ـ حرة النار : حرة قريبة من المدينة (النص) «٥» ـ ساق حر : ذكر الحمام (النص) •

«٦» ـ الغرار : حد الرمح (الناشر) •   «٧» ـ الايار : الهواء (الناشر) •

يتجلى لنا كذلك تعاليه بالرفق في الحيوان القطعة الآتية : (١٨٠) : « لتكن افعالك لوجه الله ما استطعت ، وعزيز ذلك على سكان الارض ، ولكن توجد من وراء اجتهاد . واذا نفثتك الشدائد الى المفازة ومعك خيط من الأبق «١» ، ومعك ماء وقغرت لك البيداء فم جفر فاصبت منه بغيتك ، فاصنع حوضا ولو قيد فتر فالق فيه من نزيع ذلك الجفر ، فما اصابه من وحش او انس او أي جناح فلك منه الثواب ، وان كنت على اوفاض فاسقه الارض لينتفع به ولو بنات الغمق «٢» ولا ترض جزاء على الحسنة بثلاث » . وهذا الغلو في الرفق بالحيوان يشبه ما روى عن ابي يزيد البسطامي انه اشترى وهو في همذان طعاما وضع بقاياه في جيبه . ولما وصل الى مسقط رأسه الفى جماعة من النمل في جيبه . فعاد ينهب الارض نهبا ليعيد الحيوان الى مسقط رأسه «٣» .

اما الغاية عن عمل الخير فكما صرحنا لدى مقارنتنا له مع (كانت) او (بوذا) انه يريد فعل الخير خالصا لا يرجو من وراء ذلك جزاء ولا شكورا :

فلتفعل النفس الجميل لانه خير واحسن لا لأجل ثوابها

الغناء :

للمعري في الفصول والغايات نزعة موسيقية صوفية ، عبر عنها في مناسبات عديدة ، نعم ، قد لا يبدو غريبا وجود نزعة موسيقية عند شاعر فذ كأبي العلاء ، لان الشعر والموسيقى هما كغديرين ينبجسان من ينبوع واحد ، او ليست الاوزان الشعرية هي نفسها موسيقى ، وانسجام النغم هو قريب جدا من روح الشاعر ، ولم نجد غريبا ايضا عندما بحثنا عن تطور ابي العلاء حديثه عن قينة غنته في بغداد وطرب لذلك طربا شديدا ، بيد اننا نجد عنده نزعة صوفية في فهم الموسيقى . لانه يتخذ الانغام كوسيلة لتثقيف الارواح والقلوب ، للاتصال بالعالم العلوي ، كما صرح بذلك اخوان الصفاء والغزالي وغيرهم من كبار المتصوفة «٤» ، حتى ان

«١» ـ الابق : القنب (النص) .

«٢» ـ بنات الغمق : الديدان (النص) .

(٣) ـ التصوف الاسلامي العربي ، عبد اللطيف الطيباوي ، بيروت ١٩٢٨ ، ص ١٤٨ .

«٤» ـ التصوف الاسلامي ، لزكي مبارك ، القاهرة ١٩٣٨ ج ٢ ص ٢٦١ ، راجع ايضا بحث الموسيقى والتصوف من كتاب تراث الاسلام الانكليزي . ومما يؤسف له ان هذه الفصول مع فصل الطب والعلوم الطبيعية لم تترجم الى اللغة العربية . (انظر المصادر الاعجمية) .

المعري يجد غناء القينة تسبيح عند الابرار (٢٥٢) ، نجد عنده كذلك الفكرة الفيثاغورية التي لعبت دورا كبيرا في عقول المتصوفين من ان الكواكب في مسيرها تحدث انغاما جذابة (١٧٧) : « واضرع الى الله في هبة التوفيق حتى ينزع في قوس برقع رامي الهاديات ، فيسمع له ترنم وتعلق عليها الجلائز وتصان من الانداء وتجري في فروضها الاوتار ... «١») وهذه الفكرة ليست الا اعادة لفكرة واضحة قد سبقت (١٧٠) : (... هل تشعر ايها الساهر ما تنطق ذوات الشعرات ، كأنهن قيان شربن الدم بكاسات من الشعر كما يشرب غيرهن الرحيق ، وليس ذلك عليهن بحرام ، ويذكرن الله بغرائب الحان ، ما عرفهن معبد «٢» ولا الجرادتان «٣» ، ولا استعن على تحسين الاصوات بمثالث ولا مثان ، ولا طارحهن الشدو عالم بالغناء ، يشهدان ان الذين خلقهن خالق الغريض ، متى امر نهض اهل الاجداث » ، حتى انه يجد كل مخلوق يسبح بذكر المبدع (١٦٩) : « .... وطوبى للترنمين بالتسبيح ترنم هزج النهار ، حتى اذا النجم طلع ترنم بالذكر مع البعوض اعظامـا لوارث الـوارث » .

كذلك يأتينا بامثلة عروضية وموسيقية عديدة مقارنا بها بين الاخلاق والانغام، يشابه (بحس موسيقي مرهف) بين الانغام وبين النزعات الاخلاقية (وان كانت مستمدة من العروض) (١٤٤) : (... ومن أعتدل امره من بطء وازج ، كان كالجزء الثالث من الهزج ، يدركه نقصان واي الخلق عن ذلك يصان . احدهما خاف والآخر ذو انكشاف ، ومن وفق خالقه التوفيق كان كالجزء من الرجز ، لا يعلم

«١» ــ لم يتمكن محرر المقال هنا من تفسير ما يشير اليه المعري في علم الفلك ، كقوس برقع اوراس الهاديات وغيرها .

«٢» ــ معبد : هو معبد ابن وهب من الموالي كان معروفا بالجودة في صناعة الغناء . غنى في اول دولة بني امية ومات في ايام الوليد بن يزيد بعد ان اصابه الفالج (ناشر الفصول) .

«٣» ــ الجرادتان : مر ذكرهما في الفصول والغايات ص ٧ : (ما قالت الجرادتان لوفد عاد ؟ قالتا ما الله به عليم ، فشغلتاهم عن استغفار الواحد الرحيم ، وتفسر (٨) : الجرادتان القينتان اللتان شغلتا قيل بن عنتر واصحابه من وفد عاد حتى هلك قومهم . واياهما عني ابن حمر في قوله :

كشراب قيل عن مطية ولكل امر واقع قدر
مد النهار له وطال عليه واستمعت به الخمر
وجرادتان تغنيانهم وتلألا المرجان والشذر (النص)

اذا عجز اي نقص دخله ، هان على حس السامع فاحتمله ، ووجدت الجزء الاخـرم كمسيء في غير دار ، غير انه اسند الى جدار ، فهو لذلك مبين الخرامات » •

ويقارن ايضا ذكر الذنوب بالنغمات (٨٩) : « لو انصفت يا ابن حواء ، ولمن تنصف لأعزاء الناس عليك اذا لا تزجر قلبك ، وقصر املك وشغلك الحق عـن الاباطيل، وعددت في ترنم النوادب ترجيع القينات » • ويدل تفسيره للمزهر والعود وانواع النغمات من الخفيف والثقيل والرمل والهزج والنقرات والايقاعات المختلفة ومذاب سحق في ذلك (٨٨ ـ ٨٩) على معرفة واسعة في آلات الموسيقى وادوات الطرب) ، ومع ذلك نجد امينا للنزعة الصوفية تلك النزعة التي تتخـذ الموسيقى واسطة لتكريم الجوهر والصفاء • حتى اننا لنرى في اعمق اعماق النغمات التـي يسمعها المعري ميله التشاؤمي الذي يكاد يصحبه طول حياته (٨٨) : (أتدري ما يقول المزهر ايها الطرب الجذلان • انه يسبح الله عز واثار بطرائق ثمان • بين ثقال الى خفاف ، وهو في ذلك يقول : ستذوي الروضة ، وترم القينة ، ويموت الشرب ، وتصبح الديار آيات) •

اما موقع موسيقى المعري فسنذكره في الفصل الذي يليه •

نتيجـة البحـث :

يتضح لنا مما بيناه من كتاب الفصول والغايات ان للمعري نزعة صوفية قوية ، وذلك لزهده ، وتقشفه واعتزاله الناس ، ومناجاته الخفية ، ومحاسبته النفس علـى الكبيرة والصغيرة • واهم من ذلك كله تفضه اليد اخيرا من العقـل في ادراك المغيبات ورجوعه الى ينبوع القلب المستمد نوره من نور مكون الاكوان • ثـم بغيته الطهارة الروحية واعتماده في ذلك على مجاهدة النفس ، واتخاذ الانغام وسيلة لصفاء جوهر الروح ، وايمان عظيم في القدرة ، والرجوع الى الله في كل الملمات ، والاحسان الى الناس والمخلوقات كلهم ، وعدم تلويث اليد بالدم لأي ذريعة كانت•

نعم لم يجار المعري الصوفية في كل ما طلبت او بالاحرى في كـل مـا عرف عنها ،فهو بعيد كما يظهر عن الاتحاد والحلول ووحدة الوجود وعـن المقامـات والكرامات والمعجزات وغير ذلك ، واذا تكلم في هذا الموضوع فعـن المعجزات الكونية لا المعجزات التي تجرى على يد البشر • ولكن تصريحاته التي صرحها حسب

البحث السابق لتدل دلالة واضحة على توافقه مع الصوفية في كثير مـن النزعات ، واذا رغبنا التشديد العلمي في ذلك فيلزم ان نسمي صوفيته بالصوفية العلائية .

هناك مشكلة اخرى ، هل تطور المعري حقا الى ان وصل الى هذه النتيجة ، فانتقل من المعقول الى ما فوقه ، ام انه اتى عليه حين من الدهر كان فيه متصوفا ومن ثم اخذ تمجيد العقل ، فيكون قد كتب الفصول قبل ان يكتب اللزوميات ، ويؤيد هذا الرأي ما كنا عالجناه من قبل في تطوره الفكري نقلا عن ياقوت ان تلك الرسالة بدأ بها قبل رحلته الى بغداد واتمها بعد عودته منها ، ويكاد الباحث يعتقد باسبقية الفصول والغايات على اللزوميات لولا اننا نرى في هـذا الاثـر النضوج العقلي والمعرفة الواسعة في مشكلاته التي تكلمنا عنها اثناء مقارنتنا له بـ (كانت)، فبحثه في المغيبات يدل دلالة واضحة على معرفته ان العقل البشري قد قصر عـن ذلك ، فالتجأ حكيمنا الى عبادة الواحد (٢٨) ، فاما ان يكون قد وصل نتيجـة تطور فكري وذلك ما نرجحه ، او ان حالات نفسية انتابته جعلته حينا من الدهـر عقليا لا يخضع الا لسلطان العقل ، وحينا آخر قصر عقله عن الادراك وضاق نطاق فكره عن استيعاب الحقيقة المطلقة فاستسلم لقلبه الحار ، نابذا عقله البـارد وراءه ظهريا ، حتى اصبح عاطفيا صرفا يكاد يكون مع ما ذهب اليه من قبل على طرفـي نقيض . وحسب ما تبين من دراسته ان حياته الفكرية لا يمكن ان تكون دون ان يكون هناك مراحل قد قطعها ، نجد ان الصلة بين عالمه الفكري الماضي وعالمـه الفكري الحاضر لم ينقطع ، لان افكاره مختلطة ببعضها بعضا ، او بتعبير آخر انه كان ينقاد الى نزواته العقلية ويقر لكل ميل من ميوله بحق الوجود ، وسواء اناقض ذلك الميل ما صرح به من قبل او لم يناقض . وعلى ما تبين لنا انه يريد ان يحيـا حياة فكرية حرة لا تقيد فيها ولا ضغط على المشاعر ، رائده الحق المجرد الـذي ينطبق وروحيته ، فهو ككل انسان في العالم ليس عبارة عن عقل صرفه ، بل يقـر لميوله بحق الوجود ، وتتشكل نفسه كنفس كل انسان من عناصر شتى ، ولعلـه يمتاز عن الانسان العادي من جهة شدة الميول لا من جهة كثرتها . واذا سمحنا لانفسنا ان نستعمل لغة ديكارت التي يقول فيها افكر فانا موجود ، فالمعري يقول جريا على هذه اللغة ، افكر واحب واريد واحس فانا موجود ، هذا وان قلل من قدر الحس ، وكانت الارادة عنده نزع الى جانب السلب منها الى جانب الايجاب «١» ، لاننـا

«١» ـ راجع بحث السلبية من دراسة مقارنة المعري ببوذا الهندي .

بينما نجد المعري عقليا صرفا يكاد يضرب عرض الحائط بكل شيء غير عقلي ، نجده بنزعة صوفية عميقة تكاد لا تمت بصلة الى عالم المعقول ، حتى اننا يمكننا ان نجرد من هذا الحكيم شخصين متباينين بالنزعة : عقل يحارب كل شيء غير معقول ، وقلب حار فياض تحرق ناره كل ما لا يمت الى العاطفة بصلة . ومع ذلك فهذه المتناقضات لتجتمع في نفس ثوروية واحدة ما هي الا صدى هذا الكون المتناقض المظاهر . ولئن اعانه قلبه على الرأفة بجميع المخلوقات ، فقد اعانه عقله على تقدير خطورة التبعة الاخلاقية ورفض الترهات .

فالعقل ساتر للانسان وليس بكل شيء ، اذ يقول : فسبحان ساتر العالم بالعقول ومحلي السماء بالشهب «١»

***

«١» ــ الفصول والغايات (٨٦)

مكانة موسيقى المعري

قبل الحديث عن مكانة الموسيقى عند المعري لا بد لنا من اعطاء بعض التفسيرات . يفسر المعري ذاته المزهر (الفصول والغايات ص ٨٨) : المزهر العود ويقال انه شيء من الملاهي غيره . والطرائق الثماني : الثقيل الاول وايقاعه ثلاث نقرات متساويات الاقدار على مثال مفعولن : « مف » نقرة ، « عو » نقرة ، « لن » نقرة ، وهي نقرات ثقال . وانت تثبته بالوتد المفروق اوضح مما تثبته بالسبب المضطرب ، وذلك ان الوتد المفروق ثلاثة احرف وسطها ساكن والسبب حرفان ، فانت اذا وقفت على الوتد المفروق سكنت سكونا اطول من السكون الذي على السبب ، مثل قولك صخر ، بحر ، دهر ، فعلى هذا يجري الثقيل الاول . وخفيف الثقيل الاول : وحقيقته ثلاث نقرات متواليات ، وهي اخف من التي ذكرنا واسرع تواليا ، كقولك مفعولن بلا فصل . والثقيل الثاني ، فقد اختلفوا في ايقاعه ، فاسحاق يوقعه ثلاث نقرات : نقرتان متساويتان ممسكتان ، ووحدات ثقيلة على وزن مفعولان . ومنهم من يوقعه اربع نقرات متساويات الاقدار ، لاخفاف محثوثات ، ولا ثقال ممسكات على مثال مفعو مفعو ، ومنهم من يوقعه اربع نقرات : ثلاث متساويات والرابعة اثقل منهن ، على مثال مفعولاتن . وخفيف الثقيل الثاني : وحقيقته اسرع حثا منه ، وهو نقرتان خفيفتان والثانية ثقيلة ، وهو خفيف الذي اختاره اسحاق ويسمى الماخوري وهو عكس الرمل ووزنه مفعولان . والرمل : وهو نقرة ثقيلة واثنتان محثوثتان ، لان مفعو في الكلام (مل وصلي صد عني) .

خفيف الرمل : وخفيف الرمل جاء على غير جنسه ، وذلك ان خفيف كل نوع جاء على غير جنسه ، وذلك ان خفيف كل نوع مثل ثقيله الا انه اخف حث الايقاع . فاما الرمل فلم يجيء خفيفه على عدد نقراته ، وهو على نقرتين بينهما فصل ، ووزنه على مثال فعلن فعلن .

والهزج : وهو على نقرة نقرة ، واحدة ثقيلة واخرى خفيفة على وزن (قال

لـــــي) •

وخفيف الهزج مثله الا انه اسرع حثا منه •

وتعليقا على (لو انصفت يا ابن حواء) (٨٩) نجد ايضا مـــا يلي : (٩٠) « هل تشعر الالف ولتشعرن ان شاء الله انها تمجد الله متوسطة ومنتهى ورويــا لبس بسجري ، ووصلا لا تحرك ابدا ، وخروجا بعد الهاء وردفا وتأسيسا في البناء ، ومنقبلة عن الواو والياء ، وزائدة للمعنى وغير المعنى ، وتأسف ، انهـــا تستأنف ، فتقدس بجميع الحركات • » ويفسر المعري الالف وهي اقرب ما تكون من مخارج الحروف منها بالغناء •

ومعبد كما ذكر فارمر في كتابه عن تاريخ الموسيقى العربية هو ابو عباد بــن وهب المتوفي عام ٧٤٣ م• وقد غنى في بلاط الوليد الاول (٧٠٥ ــ ٧١٥) ويزيد الثاني ٧٢٠ ــ ٧٢٤) والوليد الثاني (٧٤٣ ــ ٧٤٤) • وكان يزيد يعامل معبدا اجمل معاملة وقال هذا الخليفة ذات يوم انه لاحظ في اغاني معبد بعض المتانـــــة والقوة ، واسحاق الذي يذكره المعري هو اسحاق الموصلي الذي اصبح موسيقى البلاط الاول بعد وفاة والده وقد ولد في الري عام ٧٦٧ م• وجاء الى بغداد مــع ابيه فتلقى ثقافة عالية ، وانضم الى فرقة الموسيقى في عهد هارون الرشيد ، وقــد اغدق عليه البرامكة عطايا جزيلة وبعد اسحاق (كما قال فارمر) كان اعظم الموسيقيين في الاسلام سعة معلومات ، وعلى الرغم من تفوق بعض معاصريه عليه في جمـــال الصوت ، برز به ذوقه الفني الجميل عليهم جميعا ، وقد استطاع اخضاع النظريات المتباينة والمتناقضة في الفن لنظام واضح ، ومع انه لم يبلغ من ناحية النظر العلمي مبلغ الكندي ، ويروى لنا فارمر انه قام بهذا العمل الشاق دون ان يقرأ للاغريــق كتابا او يعرفه • ويروى ان مكتبته كانت من اكبر مكتبات ادباء بغداد • ويظهـــر ان المعري عرف دراسته في الموسيقى عن كتب • وعاش اسحاق في زمن الخليفـــة العباسي المأمون ويقول هذا الفنان عن نفسه كما جاء ذلك في العقد الفريـــد : « رفع الخليفة يديه مادهما ، فاتكأت عليه ، فاحتضنني بيديه واظهر من اكرامي »، ويرى ما لو اظهره صديق لي مواس لسرني •

يعطينا هنا المعري انواع النغمات ، وقد سبق ان ذكر ذلك الكندي فـــي

كتابه المشهور (رسالة في خبر تأليف الالحان) وهو اول استعمال عرف عند العرب • ويذكر لنا المعري الانغام الثمانية ولا ندري ماذا يقصد المعري بهذه الانغام ، فهل هي الالحان الثمانية عند علماء الروم (اسطوخوسيا) ، اما المقصود بها اصول العرب الثمانية والامور التي تخصصت فيها على كل امة على حدة • اذ تخبرنا احدى رسائل الكندي ان سلم اسطوخوسيا البزنطي مخالف لسلم العرب ، وربما كان السلم الفيثاغوري اكثر ثباتا وصرامة بسبب هذا التأثير البيزنطي ، وان كان من المحتمل انهما عرفا من قبل ، وربما يرجعان الى تعاليم سامية قديمة • ورغم كل ذلك فان الشعور الوطني في فن الغناء كان قويا جدا ، ولم يقض الاقتباس من الغريب على الشعور الوطني والموسيقى المحلية • ومن المحتمل جدا ان ما يذكره المعري عن الاصوات الثمانية هي من اصل عربي صميم ، وعلى كل فمن الضروري فحصها فحصا جيدا من قبل الاخصائيين في تاريخ الموسيقى • ويذكر فارمر انه لمن الجائز ايضا ان عرب الحيرة وغسان عرفوا السلم الفيثاغوري وان بقي عرب الحجاز محتفظين بالسلم القديم من (الطنبور الميزاني) ، وربما دخلت بعض بدايات تذوق السلم الفيثاغوري في الوقت الذي ادخل فيه النصر بن الحارث العود من الحيرة حوالي نهاية القرن السادس ولكن فارمر ليس على يقين فيما يذكره ، وكل ما عرف عن عرب الحجاز كان لهم سلم موسيقي مخالف لسلم بيزنطة وفارس • ومن الجائز جدا ان ما يذكره المعري مقتبس من تلك الفترة التي تلقحت فيها الموسيقى العربية بموسيقى بيزنطة الروم وفارس ، وعلى كل فان الموسيقى والايقاعات التي يصفها المعري لها مكانتها في الموسيقى العربية وتنبئنا عن دور كانت فيه ذروة التطور ، هذا وان كان ليس هناك اي ظن عن امكانية ابتكار اي نوع من الموسيقى من قبل شاعرنا الحكيم ، فهو على ما يظهر مقتبس في هذا الباب وليس بمبدع ، وقد ادخل هذا الفن في ادبه وفي تمجيده الله وعبادته الصميمة •

فالانغام الثمانية التي يذكرها المعري عرفت في الحضارة العربية من تاريخ متأخر ، اي في العهد العباسي ، وتظهر الانغام الايقاعية واللحنة في عهد الخلفاء الراشدين ، فتذكر ست ايقاعات في هذه الفترة : الثقيل الاول ، والثقيل الثاني ، وخفيف الثقيل ، والهزج ، والرمل ، االرمل الطنبوري • وقد ابتكر اثنان منها

في العصر الاموي ، اذ ادخل الرمل ابن محرز كما جاء ذلك في الاغاني •

ان الالحان الثمانية التي يذكرها المعري ظلت سائدة الى عصرنا هذا ، وتلعب اليوم دورا هاما في الموسيقى العصرية ، وان اول من فكر في التشابه الموجود بين ترتيب العناصر والالحان هو العالم البريطاني (جون نيولندز) وقد نظر العلماء الى رأيه كرأي سخيف، الى ان عاد في اثبات اهميته منديليف الروسي صاحب التصنيف الدوري الشهير • وقد كان المعري من المفكرين الذين اقروا بالالحان الثمانية •

وفي المقال الذي دبجه فخري البارودي عن المعري والموسيقى في نشرة المجمع العلمي العربي عن مهرجان المعري بأن واحدا من المائة من المغنين حتى الحذاق منهم لا يعرفون تأثير صفات الغناء التي منها الاسترسال والتمديد كما عرفها ابو العلاء ، وبذلك يكون لحكيمنا فضل الاسبقية في هذا• اما قول البارودي بأن الموسيقى عند المعري هي كالخمرة والتي يدعو الى اجتنابها، نجدها لا تتماشى مع فكرته الصوفية التي عالجناها في الموضوع السابق رغم انه يقول في الفصول والغايات (٢١٤) :

« ما انا من خمر مزيج ، والغناء والتهزيج ، ذكر الله احسن ما نطق به الناطقون » •

٭٭٭

المعارف الطبيعية عند أبي العلاء

نوهنا ببعض معارف طبيعية لابي العلاء في بحث ابي العلاء المفكر الحـــر ، فذكرنا هناك اسبقيته للافوازيه ببقاء المادة ويرى العجب في الحاد الطبيب الخالق بعد درسه التشريح . وقد وجدنا اتصاله بالاوائل كأرسطوطاليس وجالينوس قليلا، وكذلك بالمترجمين . وحسب المصادر التي وصلت الينا لا تجد له اتصالا بالفلاسفة الاسلاميين ، لدى دراسة الفصول والغايات بامعان نجد عند المعري معارف طبيعية جمة لا يستوعبها هذا البحث ، لانها جديرة بعدة ابحاث استقصائية لان اكثرها في زعمنا تعود الى التراث العربي الاصيل ، سواء ما دون في بطون الكتب او ما انتقل من التواتر الشفهي جيلا بعد جيل . وان كانت هذه المعارف التي ينوه عنها المعري والمبعثرة في كتابه المذكور (الفصول والغايات) هي اقرب ما تكون الى المعلومات العامية منها الى المعلومات العلمية التي تسود فيها القوانين المنظمة المحكمة والترتيب المنظم، فلها قيمتها ايضا، لان هذه المعلومات ونقدها نقدا صحيحا تنشأ المعرفة العلمية ، وفي زعمنا ان لها اهميتها في التطور العلمي ، ومن الصعب جدا ان نعلم علم اليقين مـــا هي المعلومات التي استقاها من بطون الكتب ، وما هي المعلومات التي سمعها ، لانه كانسان فاقد البصر لا يمكنه ان يكون رأى الافلاك في مدارها او المواليد الثلاثة من جماد وحيوان ونبات في اماكنها . ولا تستند مثل هذه المعلومات الغزيـــرة على ذاكرة فذة فحسب ، بل على حسن تصرف لهذه المعلومات والاتيان بالتشبيهات اللازمة في الاوقات المناسبة ، اي على تفاعل بين مثل هذه المعلومات ونفسه ، فكل ما اراد ان يعبر عن فكرة اتى بالتشبيهات من عالم الحس ، سواء كان ذلك مـــن الفلك والكواكب والنجوم فوق رأسه او من عالم الارض تحت قدميه ، وقد ادخل الانسان وما ينتابه من قضاياه . وكذلك نجد عنده بعض امور طبية من تسمم وامراض، ولكن الطب الذي يأتينا به لا يمت لا الى الطب اليوناني او الهندي او الاسلامي

الذي اتى فيما بعد بصلة بل الى الطب الشعبي • وقد ذكر طريقته في العلم : « يدرك العلم بثلاثة اشياء : بالقياس الثابت ، والعيان المدرك ، والخبر المتواتر • فأما الحس فزجر طير هي خليقة بالكذب وان صدقت فباتفاق • والعلم لله كملا » • (ص ٤٦٨) •

وفي الحقيقة فان المعري قد نقد ايضا في رسالة الغفران الخبر المتواتر اشد انتقاد ، ويذكر ايضا في الفصول والغايات : «رب لا تجعلني كالمشغول بتقبين الغول، احسن غير حسن في العقول ، فرب كلام منقول اكره من جوان العشرات » (٩٥) جوان جمع جان وهو ضرب من الحياة يألف العشرة • والعشر هو ضرب من العضاه وله صمغ حلو وهو عريض الورق ينبت صعدا • ومهما مال المعري الى التصوف او الى أي مذهب من المذاهب فهو يجعل رائده دوما العقل السليم : « لا اعلم ما يقول المعتزلي والناس مطالبون على حسب العقول (٣٩٩) » وان الغاية من كل تشبيهاته هي تسبيح الله : « ليتني سبحت الله مع الرعد القاصف والبرق اللاصف والهبوب العاصف والحمام الهاتف على الغصنة الرطاب » (٧٦) وقد ذكر المعري الجوهر (١٤١) ويقصد به جواهر الارض من الاحجار الكريمة • ثم يذكر الجوهر والعرض (١٢٢،٣٤٦) • اما ذكره الجزء الذي لا يتجزأ فيقول : « وسبحان الله زهاء الاشياء ، والشيء جزء لا يتجزأ تقسم على ذلك مياه البحر ورمال الارض وثقال الهضاب (٣٩) • » يذكر ذلك عرضا دون ان يتطرق الى المشاكل الفلسفية وآراء علماء الكلام ، اما قانون الطبيعة فهو الزامي لا مفر منه : « قد فررت من قدر الله، فاذا هو اخو الحياة هل اطأ على غير الارض او ابرز من تحت السماء ؟ » (٢٥١) •

يمكننا تقسيم المعارف الطبيعية عند ابي العلاء التقسيمات التالية :

العالم العلوي	العالم السفلي
١ ــ الفلك والكواكب	١ ــ الانسان والطب
	٢ ــ الحيوان
	٣ ــ النبات
	٤ ــ عالم الجماد

أ ــ الاحجـار والمعادن
ب ــ الارض والاتربـة
جـ ــ عالم الانواء

العالـم العلـوي

الفلـك والكواكـب :

يتكلم ابو العلاء عن الفلك والكواكب والشمس والنجوم السيارة والشهب ومنازل القمر وغير ذلك • يرى ان الفلك يدور على قطب (١٠٨) ويشبه الشمس :

رما تشبـه الشمس الروادن مـردا كخيـل بسيـدان الفسـوق ، رواد

(التفسير ، الرودان : واحدته رادنة : التي تغزل على المردن ، اي المغزل ، الروادي واحدته رادية : الفرس التي ترجم الارض بحوافرها)

ويعد النجوم التي لا تغرب هي مثل بنات نعش (٢٣٠) ويتكلم عن النجـوم السيارة (٢٤١) ، وعن الجوزاء (١٧٦) وعن المجرة في السماء (١١٢) وعـن منازل القمر وكل نجم في السماء (٤٢٢) ، وان اصناف الرياح على الارض هـي بعدد البروج ، فيهب من كل برج ريح (٤٢٣) •

يذكر عن الكواكب (٣٩٤) : « ايتها النفس المجهشة مهلا ، قرب مماتك فـلا تقولي كلا ، بليت وحسرتك لا تبلى ، مبتدعك مقتدر على ان يجعل زحلا كرابـا يتبع خائرة عجلى ، والمريخ ما هنا يطعم الارة حطبا جزلا ، والمشتري سائما يقول ما ارخص واغلى ، والشمس في قلادة كعاب تجلى ، والزهرة تعلو بقلا ، وعطاردا كاتب تاجر ينظر ما قال واملى ، والقمر بياضا يستبطن يدا او رجلا ، والشرطين قرنى حجل يرتعي خلى ، والبطين محتويا على كبـد وكلى ، والثريـا منيرة في بعض الحنادس منزلا ، وحادى النجم راعيا يتبع قلاصا عجلا •••) يفسر المعري نفسه المجهشة (٣٩٥) : من قولهم اجهشت النفس اذا تهيأت للبكاء •

والمنجمون يزعمون ان الشرط قرب الحمل ، والمعنى ان الله يقدر ان يجعـل ثريا الكواكب مثل الثريان القناديل • وحادي النجم : الدبران والنجم الثريا ، وقال الشـاعـر :

وايـة ليلـة لا كنـت فيهـا كحـادي النجـم يحـرق مـا يلاقي

والعرب على رأي حكيمنا تتشاءم بحادي النجم وقلب العقرب ، مستشهدا بالاسود بن يعفر :

ولدت بحادي النجم يحرق ما رأى وبالقلب قلب العقرب المتوقد (٣٩٦)

وسعد الذابح من منازل القمر ، وانما قيل الذابح لان قدامه كوكبا تزعم العرب انه ذبحه (٣٩٨) .

يتكلم المعري ايضا عن الشهب (١٠٨) والمجرة في السماء (١١٢) وقد جاء ذلك في المثال الآتي :

(الى ربنا تشكى العجر سطى مجر ، ترطب هجر ..) (١١١) . ويفسر ذلك المعري نفسه بان العجزة ما يتعقد في الجسد من غدة او نحوها ــ وفي الاصل انتكون في المرأة عجرة ترغب في سترها من زوجهاوضرتها ، ثم استعير ذلكفي الهم والحزن ، سطى : توسطي ، والمجرة في السماء معروفة ، ويعتقد ان هذا مثل قديم (١١٢) ويذكر عن القمر : « سل قمرا كالمحلب ، وهلالا مثل المخلب ، وليلا جمع الخثلب ، يخبرنك بالعجب » (٤) . ويأتي كذلك ببعض التشبيهات بان فرقد السادة كفرقد السماء ، والحرباء ذات النجوم بمنزلة الناقة الحرباء ، وفرقد الناوة ولد البقر الوحشية (٤) .

وعن الفجر يذكر : (من لي بالفجرين ، وصاحب الودع . ايها الهلال الناحل ، هل اضنتك المراحل ليس ليحرك ساحل ، ولا بلدك ماحل ..) (٢٦٦) .

فجر الايدع ، الشفق ، ويقال الايدع الزعفران ، وفجر الودع : فجر الصبح ، لان الكواكب تشبه بالودع (٢٦٦) . قد يرى الراقد نفسه مع الفراقد فاذا استيقظ رآها بالحدد (٣٣٨) .

ويستبعد تأثير القمر على البحر : (ان كان القمر يحاب ملء الغمر جاز اعتصار الخمر من فضيض الجمر) (٢٧١).

وفي اللزوميات نقرأ كثيرا عن النجوم والكواكب :

وقد زعموا الافلاك يدركها البلى فان كان حقا فالنجاسة كالطهر
لعل سهيلا وهو فعل كواكب تزوج بنتا للسماك على مهر

وعـن الشـعري :

اشـعر الله خالـق الامـم الشعـري الغميصاء ، ذلـة ، والعبـورا

وعـن القمـر :

والبـدر يكمل ، والمحـاق مآلـه وكـذا الاهلـة عقبهـا الابـدار

وعـن الشهـب يذكـر :

يا شهـب انـك في السماء قديسـة واشرت للحكمـاء كـل مشـار

ويذكـر :

استحـي مـن شمس النهار ومـن قمـر الدجـى ونجومـه الزهـر

يجريـن فـي الفلـك المـدار بـاذ ن اللـه لا يخشـين مـن بهـر

سبحان خالقهن لسـت اقـو ل الشهب كابيـة مـع الدهـر

وعن الثريا يذكر :

ان الثريـا مـن صغـر لفظهـا اهـل البسيطـة مـا دنـت لصغـار

وعن بنات نعش :

سـبح اللـه طالـع مستنـير وهـلال مثـل القلامـة ناحـل

وبـدت مـن بنـات نعش ، غـوان لم يصبهـا من ثمد الليل كاحـل

وقد كنا اشرنا الى فكرة تعظيم الكواكب بالمقارنة مع (كانت) •

ويقول عـن الشـهب :

الشـهب عظمهـا المليـك ونصهـا للعالمـين فواجـب اعظامهـا

امـا قولـه :

اما ترى الشهب في افلاكهـا انتقلـت بقدرة مـن مليك غـير منتقـل

فيذكرنا بالبرهان الديناميكي لارسطوطاليس بان كل حركة لا بد لها مـن محرك ، الى ان نصل الى المحرك الاول الذي لا يحركه شيء •

وحركات الكواكب دليل على الحساب الدقيق : « فاذا قضيت الوطر فانك ذاهب ، لا تعلم كيف العواقب ، اتظن والظن كاذب ، ان الله يغفل فلا يحاسب ، بغير ذلك شهدت الكواكب • » (٢٠٤) •

العالم السفلي

١ ـ الانسان والطب :

اذا هبطنا الى العالم السفلي عالم الارض عند ابي العلاء فاول ما يسترعي نظرنا الانسان ورسالته السامية ، وفي الحقيقة اننا قد عالجنا هذا الموضوع في بحث النزعة الصوفية لهذا الحكيم • ونجده يكره المداهنين والمتملقين الكاذبين ، فيرى اليرمعة اقل اذية من الامعة (٦٨) ويفسر المعري ذاته بان اليرمعة الحجر ، والامعة الذي يقول لكل رجل انا معك ، اي المنافق الكذاب ، ومع انه يعطي اهمية كبيرة على العقل الذي جعل الانسان تاج الخليقة ، يجد العقول ضالة في ملك الله اشد ضلالة ، من اجل ذلك يقول (٢٧١) « اظعن عن الدنيا وما اترك فيها عرسا تأيم ، ولا ولدا يتيم ، وذلك الامر الاحزم ، انما يترك الانسان ولده للشقاء : اما ضعيفا يظلم ، واما قويا، اهتضم ، وكلا الرجلين لا يسلم» ويتعجب المعري كيف ان الشر يزداد بازدياد العقل فيقول : « ان الله وله علو المكان جعل الشر غريزة في الحيوان ، فابعدهم من الشرور اقلهم حظا في المعقول » ، (٢٧٩) ، ويستشهد : (الا ترى الحجر الموضوع مر به العاثر فأدمى الابهام ، لا ذنب للحجر لكن للواضع والعاثرين) • فالمسؤولية عنده مرتبطة بالعقل والتروي • والانسان في نظره غر : « انت ايها الانسان اغر من الظبي المقمر ، لست بالعامر ولا بالمعتمر ، ولا في الصالحات بالمؤتمر ، احسبت الخير ليس بمثمر ، بلى ان للخير ثمرة لذت في المطعم، وتضوعت لمن تنسم ، وحسنت في المنظر والمتوسم • وجاوزت الحد في العظم وبقيت بقاء السلم ، فما ظنك بثمرة هذي صفتها لا يسكن السارقة كفتها ، ولا تذوى في الوقدة نضرتها ، قد امنت اجيج القيظ وصنابر الشتاء » • (٦)

اذن ان الانسان متناقض في نظر المعري ، فهو من ناحية واحدة ، كائن عاقل ومن ناحية اخرى يأتي بالشرور • ولو آمن بقدرة الله لاتي بالعجب العجاب • ولكنه يغتر بقوة الجسد وسواد الشعر (١٦) ولا يعلم انها باقية الى حين ، فماله سيتركه للورثة ، وستلتهم الارض وسينسج كفنه الناسجون (١٦) •

ونجد المعري في اللزوميات يعطي تفسيرا للروح بصعودها في الهواء :

ولجسمي الى التراب هبوط ولروحي الى الهواء صعود •

من الناحية الطبية : فالمعري لا يذكر لنا الطب الجسمي الذي هو كما يننا طب شعبي فقط ، بل يذكر ايضا الطب الروحاني المعروف عند الفلاسفة امثال الرازي • اذ يروي بانه يعالج النفس فهو معها كالحارث بن كلدة وابني علاج (٢٨٧) ويذكر بهذه المناسبة الخلاج : الشك ، واصل الخلاج المجاذبة • وقيل للشك خلاج لانه يجتذبه امران (٢٩٠) ويجد نفسه مريضا طالبا الشفاء (بي طب فأين استطب) والطب بكسر الطاء هو الداء (٤٤) •

فالحارث بن كلدة هو ذلك الطبيب العربي الشهير الذي درس في جندي شابور ، وعاصر النبي وبقي حيا حتى الى عهد معاوية «١» وابنا علاج هما كما اوضح المعري رجلان من ثقيف كان الحارث بن كلدة يذم مودتهما ويشكو قطيعتهما للقرابة • اذن نحن هنا امام طبيبان جديدان معاصران للحارث بن كلدة يدلنا عليهما المعري ، وقد اهملا في تاريخ الطب وعلى ما يظهر ان هؤلاء الاطباء العرب القدماء كان لهم باع طويل في المعالجة النفسية ضاعت ولم نعلم عنها شيئا •

يذكر المعري في الفصول والغايات (١١٩) امراض عديدة : الغرسة داء يصيب الانسان في عنقه والسوداء داء يصيب الانسان في الكبد ، الخزرات جمع خزرة داء يصيب الانسان في الظهر مستشهدا بقول الشاعر :

داوبها ظهرك من اوجاعه من خزرات فيه وانقطاعه

الاقرة : الاخلاط ، ويذكر مثلا عن الاصمعي (قبل النفاس كنت مصفرة) (١١٩) مليه : امتله عقله اذا ذهب ، النسيس بقية النفس (٨) •

الرعامي : زيادة الكبد (١١) والرداع داء يصيب الرجل في مفاصله (٣١٣) •

ويذكر لما يتعقد في الجسد من غدة او نحوها عجرة ، فان كانت في البطن فهي بجرة ، فان كانت في الرأس فهي كعبرة • واصل ذلك ان تكون بالمرأة عجرة ترغب في سترها من زوجها وضرتها ، ثم استعير ذلك في الهم والحزن (١١٢) • ولعل ما يقصده المعري التهاب البشرة هنا بالسرطان •

«١» راجع مقالي دور جندي شابور في الثقافة العربية ، الدراسة الادبية ، بيروت ١٩٦٠ •

(عجبت وفي القدرة عجب •• لدابة لا رجل لها ولا يد ، اذا غفل عن الجسد من كان له يتعهد ••• لو تركها البائس لنشأ لها اخوات ، فكثرن كثرة البنـــات ، فاوقعـــن البشرة بالتهاب •) (٧٠) •

« اداك نصب الى وصب ، وربك مصح الاجسام ، وهجم بك الثمل ، على طول امل (٧٤)• » والوصب : المرض الدائم • اما عن التسمم فنجد ما يلي : « (٩٨)هجم طمل على همل فما وجد برة ولا برة ، والله مانح المثرين ، وظفر بسور في انـــاء مبلطا ، لا يملك لطلطا ولا يريح مملطا ، فلن يرى عكسيا ولا عثلطا ، فجرع منه جرعا ، فلما باشرت معى ، احس بحشاه متصدعا ، فانصرف متفجعا ، واصبح لذلك متخشعا ، والله مهلك الظالمين • واحتضره العواد ودعوا له نطاسي الحي ، فقال مـــا يشكيك ؟ قال نغب من لبن ، اتت بالحبن ، جرعات ، ما جرعات • الاحشاء لهـــا متقطعات ، فطلعت المنبرة عليه دنفا ، واظهر الناس والرجل بشفى ، ودخل الغبراء سدفا ، واعضاؤه متنثرات » •

وقد فسر المعري نفسه : الطمل : اللص ها هنا ، والهمل : البيت الخلق مـــن بيوت الاعراب • البر القمح والبرة (خفيفة) : الخلخال وما يجري مجراه من حلق الحلى • والسور ها هنا : بقية لبن • والرقم الداهية ، ما يقم : ما يذل ويهلـــك ، والمبلط الذي قد لصق بالارض من الفقر ، واللطلط الناقة الهرمة • والملط : الشاة التي القت ولدها • والعكيس : لبن يصب عليه اهالة او مرق • والعثلط : اللبـــن الشديد الثورة • والنغب : الجرع • والحبن : انتفاخ البطن • والدنف : الـــذي قـــد ثقـــل في مرضه • والشفي : بقية النفس وغـــيرهـــا • والسدف : الظـــلام (٩٨ ـــ ٩٩) • الظبظاب : بثر بيض تخرج في وجوه الاحداث (٧٤) • الهدبد : العشا في العين ، والعرب تقول : عندي دواء الهديد كشية ضب بكبد ، وفي غير هذا الموضع : هن اللبن الخاثر (١١١) • النافض : الحمى بالرعدة والحشي : الذي قد اصيب حشاه بسهم او غيره (٢٤٤) • وارضت القرحة اذا فسدت (٣٤٦) •

يذكر المعري عن طنين الاذن وخلجة العين :

خلجت كما تقول العامة اختلجت واستشهد بكثير :

وان طنـــت الاذن قلـــــت ذكرتنـــي　　　واذا خلجت عيني رجوت التلاقيا (٤٦٢)

ويسمى الحلء : قشر الشعر عن الاديم • (٤٦٣)

وعن الارث يذكر (ويقال ان الرجل اذا تزوج ابنة عمه اصاب ولده ضوى) (١٦١) • ويستشهد بقول الراجز :

اتـــذر مـــن كـــان بعيـــد الهـــم ... في النـــاس تزويـــج بنـــات العـــم

ليس بنـــاج من ضوى وسقم

ومن جملة الامراض التي يذكرها القدع :

سوء البصر ، والمجدع يكون مجدوع الانف والاذنين (١٢١) •

وعن الجـــدري يذكـــر :

ومـــا جـــدري امـــات صاحبـــه ... من جـــدري ، اتت بـــه جـــدر

(التفسير : الجدري ، الداء المعروف ، الجدري : الخمرة المنسوبة الى جدر ، قريـــة في الشـــام) :

وعن التطبيب بالآس جاء :

والنفس هشـــت الى آس يطببهـــا ... ولـــم تهش الـــى رب يعاقبهـــا

وعن الخمر يذكر : (خافوا الله وتجنبوا المسكرات ، حمراء مثل النار ، وصفراء كالدينار ، وبيضاء تشبه الآل ، وكمينا وصهباء ، وكل ما ادرك من الالوان ، لـــو كانت اقسام اللب كرهاق الحصى ، والسكرة من الجرع بمثل ذلك ، لقلت ان النغبة الواحدة حرام ، ولو هجراب لجناية ولد لحرم العنب لجريرة المدام ، وهل لها مـــن ذنب ، انما الذنب لعاصر الجون ، ومستخرجها وردية اللون ، وحابسها في الدن ، ومنتظرها برهة من الدهر ، وشاربها ورد العطشان وتفوق الرضيع ، فاجتنبوا مـــا يذهب العقول ، فبها عرف الصواب) • (٤٠) وان اطلاق السكر لا يحل المشكلة : « فلو اطلقت الخندريس وكانت تقدح في حجاك لوجب هجرها عليك ، ودع الاقدار وما تريد فانها لا تصرف على اختيار المخلوقين ، واعلم ان رزيتك لا تهجم على احد الا عليك » (٣٦٩) ، وفي اللزوميات نجد :

آيـــأتـــي نبـــي يجعـــل الخمـــر طلقـــة ... فتحمل شيئا من همـــومـــي واحزاني

وهيهات لو حلت لما كنت شاربا   مخففة في الحلم كفة ميزاني

ويذكر في الفصول ايضا : « اياك ان تعبق بأم زنبق ... » (٧٠) وأم زنبق الخمر ، ولعله يقصد بالمسكر المطبوخ (المقطر) فقد جاء في اللزوميات :

ذكوا على مذهب الكوفي ارضكم   وجانبوا رأيه في مسكر طبخا

٢ ـ الحيوان :

والذي حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

واذا انتقلنا بعد ذلك الى ما دونه المعري عن الحيوان فنرى في ذلك الشيء الكثير . فالسرب لقطيع الظباء ويقال للقطا ، والقطيع للبقر (٢) والمازن بيض النمل ، وهوزان نوع من الطير ، واحده هوزن ، وقضاعة ، كلبة الماء ، وقريش : يقال انها ملكةدواب البحر وتكبيرها القرش، وفرقة السماوة : ولدالبقر الوحش (٤)، والوعل : تيس الجبل ، والوقل : هو الجيد الصعود في الجبل (٥) انت ايها الانسان اغر من الظبي القمر . ويروي المعري بان الظبي يصاد في الليلة المقمرة (٦) وعن اصوات بعض الحيوانات (للحية من الفرق كشيش ، وللجندب في البيداء كصيص) فالكشيش صوت الحية ، والكصيص صوت الجندب (٧ ـ ٨) . الهاديات : اللواتي يتقدمن الوحش والثوالب الجحاش الوحشية والسلفع : جريئة (وهي حسب الناشر ما بين الوركين او مقعد الرديف من الدابة) ويشبه لسلفع بالسعلاة يقوتها لحم القطا والقطوات (١٠) والقطوات اللواتي في اعجاز البهائم ، والاخدريات منسوبات الى اخدر ، وهو فيما يحكى عن الاصمعي : حمار اهلي توحش فضرب في حمير الوحش . والدجية بيت الصائد ، ويقال له الناموس ايضا . الخموش : من اسماء البق ، جمع لا واحد له ، القرناء : حية لها في رأسها لحم ناتيء : قال الراجز :

تحكى له القرناء في عرزالها   تحكك الجرباء في عقالها (١١)

والعرزال جحر الحية .

ذب الرياد : الثور الوحشي ، واصله ان يكون وصفا ، مستشهدا بقول

طهمان بن عمرو الكلابي :

وكم دون سلمى من مهامه بيضها ... صحيح بمدحي امه وفليق

وان ناشط ذب الرياد كأنه ... اذا راح من برد الكناس فنيق

واصل الذب (كما يروي المعري) الكثير الحركة • والرياد الذهاب والمجيء (١٢ ــ ١٣) ويذكر عن هذا الحيوان بانه ينظر من جزع ويطأ على محار ويتجلل بالقبطية ، فشبه العين بالجزع وهو يشبه العقيق ولكن له خطان ابيض واسود اشبه بالعين ، ويقصد المعري بالقبطية الثياب البيض (١١ ــ ١٣) • ويذكر عن الرعلة (النعامة) انها فقيدة الاذنين فتغدر لانها صماء اما الزبابة فهي فارة تخلق صماء ، ويقول المعري في المثل الص من زبابة واسرق من زبابة مستشهدا بالحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشرا ... قد جمعوا مالا وولدا

وهم زباب حائر ... لا تسمع الآذان رعدا (١٥)

ومن اسماء الظباء يذكر لنا الفور واليعفور ولد الظبية ، ويروى انما سمي يعفور لكثرة لصوقه بالعفر وهو التراب واكثر ما يستعمل للذكر من الظباء (٢١)

العفر عند المعري ولد الاروية وهي انثاه الوعل ، ويذكر الوعل المسن، والهيق (الظليم) والعفاء ما اكثر من ريش النعام (٣٦) • وعن النسر يقول :

(لطف منشيء العقول ، ان نسرا ، ادرك محاربا وجسرا ، كان يسبح في الجو الفسيح فبصر بأوصال في بعض الآصال ، وقد كظه جوع ، ومنع منه الهجوع ، فانكفت وما التفت الى رذى ملقى ، بين نهر ونقى فحال الانسان بمشمله بين النسر وبين امله ، وكسا ريشه سهاما ••• (٣٦ ــ ٣٧) ويفسر المعري نفسه : محارب هو ابن خصفة بن قيس بن عيلان وجسر قبيلة من محارب ، انكفت : انقضى ، والرذى : الذي اثقله المرض (الناشر) (٣٧) •

الاسحم : الغراب الاسود (٣٧) • وعن السرفة يقول : « يتيه الانسي والسرفة اصنع من الادمي ، تتخذ لنفسها بيتا من حطام الشجر ورفات النبات ، يعجب لهـا الراءون ، ويعجز عنها العاملون والجارسة تبني من الشمع احسن مسكن وتودعه طيب الاري ، وزمازمها تسبيح لملهم من اراد ، فما فضيلة الصنع ، اذا اتخذ قيصا

المحرب كبادر الحبب او برد الحباب » (٣٩ ــ ٤٠) • والسرفة كما ترجمها الناشر ارضة او دويبة سوداء الرأس وسائرها احمر •• الخ وتكون في الحقيقة على شكل دودة في المرحلةالثانية من تطور الحشرات• ويسمي دودة القز الناسجة : « اللهمملك الملوك وانا معترف مقر ان شهد الدنيا مقر ، وان غنيها مفتقر ، اعزني فيها مسكن آزر اليه واستكن ، وتبوأت الناسجة بين المثاب » (٤٧) • وفي المقارنة بين الغراب والاسد يقول : « لا تجعلني رب اتقي صغائر الذنوب وافعل كبار السيئات افرق من الغراب واقدم على الاسد ذي الشبام » اصل الشبام دفيف يجعل في فم الجدى يمنع من الرضاع (٤٧) • يتكلم ايضا عن الاسد والنمر والضب والكــــلاب واليربوع واحتراش الضب البعير والظليم (١٠٠ ــ ١٠١) ويقال للبعير انه ضمر• اذا وقف عــن الاجترار م ن الاعياء (١٠١) والخزوم جمع خزومة وهي البقر بلغة هذيل (١١٨) ، والفرير ولد الضائنه والماعز (١٥٥) القروم فحول الابـــل ، والدروم الارنب سميت كذلك لتقارب خطوها (٤٣٩ ــ ٤٤٠) ، العكرشه وهــي الانثى من الارانب ، والحمائم كرام الابل (٤٤٠) والعلهب التيس المسن مــن الظباء (٣٩٩) وذات القفاز وهو العقرب (٣٦٥) والحبلق ضرب من المعز صغار (٢٤٧) ، والفرقد ولد البقرة الوحشية (٣٢٩) والصوار قطيع البقــر (٣٣٠) واليعسوب وهو ذكر النحل وقد يقال لغيره من الجعلان الطائر (٣٦٨) ، والخــزاز جمع خزز وهو ذكر الارانب والسماسم جمع سمسم وهو الثعلب ربما سمي الذئب سمسما (٣٩٢) • وتوصف الضبع بالغلمه وهي القعود على غراميل القتلـــى اذا انتفخت ، مستشهدا بقول الشاعر :

فلو مـــات منهم من جرحنا لاصبحت   ضباع بأكناف الشريف عرائسا (٤٢٠)

والعناجه جمع عنجهه وهي القنفذ العظيم ، ويذكر بهذه المناسبة السهم النافذ اي صرد وصوارد (٤٢٨ ــ٤٢٩) والربد النعام ، والعين البقر الوحشي (٤٥٢) ، وابو مذقه الذئب (٤٥٤) ، والهام جمع هامة وهو طائر نحو البوم ويقول ان الهامة ذكر البوم وهو يقف على المواضع المشرفه فيصيح بالليل (٤٥٤) والحجل ضرب من اليعاسيب وحسب عنترة يوصف الجعل بالحجل :

كــأن مؤشر العضديـــن حجـــلا   هدوجـا بـين اقبلـــة مـــلاح

ويقال لكل ضخم حجل (٢١٥) • والدرص ولد اليربوع والفأرة ونحوهمـــا

ويستشهد بقول الشاعر :

ومـا أم ادراص بـأرض مضلـة بأمتـع مـن ميلـي اذا الليـل اظلما

وام ادراص : ارض فيها جحرة فأرة ويرابيع يصعب المشي فيها (٤٦٣ ــ ٤٦٤)

والحشل ولد الضب ، والحارش هو الذي يجيء ويضرب حجر الضب بيده فيخرج الضب ذنبه ، ويقال انما يفعل ذلك لانه يظن الحارش حية ، ومن عادتـه ان يخرج اليها ذنبه ، وسمي كل صيد للضب حرشا ، ذاكرا قول الراجز :

تهـزأ منـي ان رأتنـي احـترش ولـو حرشـت لكشفـت عـن حرش

عن واسـع يغـرق فيـه القنفرش

والقنفرش حسب تفسير المعري حشفة الذكر (٤٦٤) •

يذكر المعري : « ونيام الوليد عند وجار الضبة المكون ومعه تمرات حشفات، فتخرج لتسرقهن منه فيصيدها بالسعي الهين ، ويمد الظبي جيده الى البرير وحتفـه فيه ، ويجذب الرهدن طمع في الحبة الواحدة فيقع في ذات الحمام ، فكن حين تذكر العبادة اخا وضاخ » (٤٧٠) •

ويفسر المعري المكون من الضباب (الضب) التي فيها بيضها وهو المكن او المكن وفي حديث ابي وائل شفيق بن سلمة (وهو حسب الناشر ادرك النبي وشهد صفين مع علي وتوفي سنة ٩٩ هـ) « ضب مكون احب الي من دجاجة سـمين » مستشهدا بشعر الهندي :

ومكـن الضبـاب طعـام العـريـ ـب لا تشتهيـه نفـوس العجـم

ويذكر المعري في رسالة الملائكة (ص ٢٢٧) نقلا عن بعض الشعراء : كضب الكدى ادمى انامله الحفر •

والرهدن ضرب من العصافير ، ومنه قيل للاحمق رهدن ، شبه بالعصافـير لخفته مستشهدا بقول الراجز :

قلـت لهـا ايـاك ان توكنـي علـي فـي الجلسـة او تلبـي

عليـك مـا عشت بـذاك الرهـدن

ويفسر المعري ذاته : توكني اي تتخذ لك وكنا مثل وكن الطائر فتثقلي علي في المجلس ، وتلبني مـن اللبانة وهي الحاجة اي لا تطلبي حاجة (٤٧١) • اما كيفية صيد القطا فيذكر :

(تنزل القطاة الى شرك الوليد وهي فرحى بما لاح لها من الـــرزق •••) (٤٧٢) •

وعن طباع الارانب : « وفق اللهم لما يرضيك ، اقتنع فامتنع ، تكتفي الخرنق بالماء الرنق ، وتستغني الارنب عن الزرنب ، ما يضع الخزز بالجزز ، والله الهادي الى غوامض الامور • » ثم يذكر « لا يلتبس النعيق بالوعيق •• كم وجد كنز في جنز ، واستخرج نشب من غيل واشب ، وبرز ارقم بالحتف المطل ، من بيت بـارد مظل فاستكف من شرف عن الاكفاء » • (٢٦) • وحسب تفسير المعري : الخرنق : ولد الارنب والرنق الكدر ، والزرنب من ضرب الطيب والجزز الصوف ، (الخزز حسب تفسير الناشر ذكر الارنب) ، والنعيق صوت الراعي وما اشبهه ، وقد يقـال نعق الغراب بالعين غير المعجمه ، والغين اكثر ، والوعيق الصوت الذي يسمع مـن بطن الدابه » • (٢٦) • والهبور : العنكبوت والهبل بيتها (٢٦٠) ، والهدجـان تقارب الخطو وهو من مشي النعام • (٢٢١) • والعانقاء بيت من بيوت اليربوع (٤٢٨) ، ورتعت الماشية ان تذهب وتجيء في المرعى (٤٥٠) ، والقارة الاجتماع مستشهدا بقول الشاعر :

دعونـــا قـــارة لا تفرقونـــا فنجفل مثـل اجفـال الظليـم (٤٥٥)

وعن بيض النمل نجد : «وينقاض المازن عن اولاد النمل فيضحكن الى النبات الاخضر وهن لم يختلفن قط في جمع القوت فيكن عـيرا للحبة » ومعنى ذلـك تشقق البيوض ، والعير هي الابل التي تحمل الميره واستعيرت هنا للنمل • (٤٥٩)

وعن الاستنباح يذكر المعري : (ان مدلجا نبح ، حتى اصبح ليجيبه كلـب ، فاجابه احص لا يرده الالب ، والله مخلف الظنون) • وحسب التفسير ان الاحص هو الذئب ويقال انه اخبث مـا يكون اذا كان احص والالب الطرد• (٢٧ ــ ٢٨)• والمثل لمن يلازم الشيء فلا يفارقه : وتصطلي الغزالة من قيام وقعود كاصطلاء حرباء العود (٢٣) ويشبه الاثر (اثر كآثار النمل تدرج على نقي الرمل) (٣٤٤) ويقول

ايضا : (وسعت النمله قلى الرمله فكان اثرها ابين من آثار العواذل) • (٧٢) •

وناقة رازم وبعير رازم لم يقدر على النهوض من الضعف (٣٦٨) • والهدجان تقارب الخطو وهو من مشي النعام ومشي الشـــيخ المسن (٢٢١) • والبعـــير الحدبار وهو الضامر الذي قد ظهر قفا ظهره من هزاله (٣٨٨) وعن النحل : (اذا جرست النحل البر فأعد المسائب للضرب) ويفسر المعري نفسه جرست اكلت فسمع لها صوت وهو الجرس ، والمسائب زقاق العسل واحدها مسأب (٣٦٨ ــ ٣٦٩)• والأرى والهبيد العسل (٢٦٢) • وغرار الناقلة قلة لبنها (٣٨١) والخواضـــب من النعام هي اللواتي يأكلن الربيع فيصمن على سيقانهن وقال ابو مالك الانصاري ظليم خاضت اذا احمرت قوائمه من اكل اليساريع ، وهي دود احمر يكـون فـي الرمل • ويقال ان التساريع قضبان حمر تنبت في جوف السمرة (٣٩٣) ، والتريكه بيض الحديد ، شبهت ببيضة النعامة ، لانها اذا انقاضت قيل لها تريكه ، قال اوس ابـــن حجـــر :

كـــأن نعــام السي باض عليهـــم وقد جعجعوا بـين الاناخة والحبس

والسي موضع ، وجعجعوا اذا لم يكونوا على طمأنينه (٣٩٣ ــ ٣٩٤) •

والحارز هو اللبن الحامض (١١٨) ، والخامط الذي قد تغيرت رائحته مـن اللبـن ، والسامط الذي قد تغير طعمه ، والهدبد اللبن الغليظ ، والطريب لـــبن يحلب بعضه على بعض يوما بعد يوم ، والقوهة اللبن الحلو الذي لـم يتغـير ، والصريف الذي يتصرف به عن الضرع ، والشهاب الذي يكثر مزجه (٧٨) ، والمنغرة وهي التي يخرج في لبنها حمرة نحو الدم والمخزاب وهي التي اصاب ضرعها الخزب وهو داء تضيق منه احاليل الضرع ويرم ، واللوع سواد حلمة الضرع (٦٧ ــ ٦٨)

اما نار ابي الحباحب التي يذكرها (٢) ويفسرها الناشر النار التي تقتدح من وقع حوافر الخيل على الصفاء فهي على ما يظهر نار اليراعة • فلما تقضت الثلاثون وانا كواضع مرجله على نار الحباحب (٢٧٩) •

وعن الظليم يذكر المعري انه اذا لم يجد نبتا اكل المـرو والحصى (٤١٥) •

ونجد عن الظليم في كتاب الحيوان للجاحظ «١» قصة ابتلاعه حجرا كريما ، وعند ذبحه وشق قانصته وجد الحجر قد نقص من وزنه ولكنه ازداد حسنا . وقد نقل المعري نفسه من كتاب الحيوان للجاحظ بان الظليم اصم وقد جاء في المثل اصم من نعامة ، فعدا عما ذكرناه عن الظليم نجد عند الجاحظ ابتلاعه الجمر «٢» ، ولكننا لا نجد القصة التي يذكرها المعري .

وعن الدر يذكر المعري : « وربك باعث الدر من الغزار » (١٨٤) والمقصود بالغزاز الصدف .

وعن امراض الحيوان يذكر الأبى الذي قد اصابه الاباء وهو داء يصيب الماشية اذا شربت ماء قد بالت فيه الأروى (١٤٣) وهذه انثى الوعل (٣٦)

وفي محلات عديدة يذكر العسل والشهد ، وكذلك العنبر .

فيقول عن العنبر :

هم القوم سافوا عنبرا بمعاطس   فخافوا وسافوا بالصوارم عنبرا

(العنبر الاول : هو العنبر المعروف والثاني هو الترس)

ويشبه اليعسوب بالرئيس :

ان كنت يعسوب اقوام فخف قدرا   ما زال كالطفل يصطاد اليعاسيبا

وفي اللزوميات في محلات عديدة تشابيه بالحيوانات يضيق مجال ذكرها ، وقد جاء عن القطا :

عجبا للقطاء من الكدر والجو   ن غدت في عنائها المتواصل
لفظت وجاءت بها الافـ   راخ ، ثم استقت لها في الحواصل
من بلاد بعيدة ، لسراب الـ   هجر ، فيها ، لوامع كالمناصل
فأغاثت بوردها ، مودعات   في هجول ، تغل فيها الصلاصل (٣)

«١» ـ كتاب الحيوان القاهرة ١٩٠٦ ، جزء ٤ ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

«٢» ـ نفس المصدر ص ١٠٦ ، انظر ايضا الجماهر « معرفة الجواهر للبيروني ، حيدر آباد ١٣٥٥ ص ٤١ .

«٣» ـ الهجول واحدها هجل : المطمئن من الارض ، الصلاصل بقاء الماء في القربة .

٣ ـ النبـــــات :

يذكر المعري انواعا عديدة من النباتات مثل السحاء وهو الصعتر البري ويقال ان عسله من اجود العسل (٣١٤) والعشرق وهو نبتة تحبه النعام (٣١٥) ، والمرار وهو نبت اذا اكلته الابل امرت لبانها (٣٦٥) والقصص نبت ينبت عند الكمـــأة (٣٧١) ، والقفعاء وهو نبت على هيئة الحلق (٣٧٧) ، عوف السحاب وهو نبـت يقال له العوف طيب الرائحة ، قال النابغة :

فينبـت حوذانـــا وعوفـا منـــوار   سأتبعه من خير مـا قال قائل (٣٨١)

نجم الارض : ما نجم من النبات من غير ساق (٣٨١) • والغرد هو ضرب من الكمأة صغار سود (٣٨٤) والضال الصدر البري غير مهموز (٣٨٤) والثغر ضرب من الشجر له شوك ابيض (٣٨١) ، العذب الطحلب (٣٥٩) • ومن اسماء الطحلب العرمض (٢٣٨) ، والبشام شجر يستاك به (٢٣٣) والمرخ والعفار هما لوقـــد النار : (ان زندي في التقوى غير وار ما هو من المرخ او العفار) (٢٣٢) ، ودم الاخوين العندم (٢٦٦) والسلم والطلح من العضاه وهو شجر كثير الشوك والمنتسج هو مـن ورق العضاه (٣٦٣) ، (٣٨٧) والغاف والقرظ نبتان يدبغ بهما (٤٧٧) والسمرة شجرة ام غيلان وهي من العضاه والكباء وهو العود الذي يتبخر بـــه (٤٥٨) البرس وهو القطن والشريع الكتان (٥٢) ، يحدثنا ايضا عـن الجـــذر البري الذي ينبت في الجبال (٦٦) •

الخزم ضرب من الشجر يفتل من لحائه الحبال (١١٨) ، العشرة شـجرة ضعيفه الهشيم (٢٠٨) •

ويذكر في اللزوميـات :

بالغار ، مـن هضبى عمايـة نـازل   مـا زال توقـــد نـاره بالغـــار
وكبائـر الاشيـاء تحـدث غـيرها   فتعيدهـــا موصوفـة بصغـــار

والعماية هنا الجبل ، او :

ضمنت فـؤادي للمعـاشر كلهـــم   وامسكت لمـا عظمـوا الغـار ، او خما

وخم هو غدير خم الشهير ببيعة الرسول للامام علي • والغار رمز السنة • وهنا الاشارة الى التوفيق بين السنة والشيعة •

الأيك جمع أيكه وهو شجر ملتف وربما خص به الصدر ، وروى عن ابـن

عباس ان الأيك شجر المقل (١١٣) ، والجبار النخل الذي قد فات اليد ، والكراث نبت واحدته كراثة وهو غير الكراث المعروف (٢٢٤) ، والصبيب ضرب من النبت طيب الرائحة وله ماء احمر ، وفي حديث عقبه بن عامر انه كان يختضب بالصبيب ، وقال بعضهم الصبيب ماء ورق السمسم مستشهدا بعلقمه :

فادرتها ماء كأن جمامه   من الأجن حناء معا وصبيب (٢١٧)

والاجريض العصفر (٢٣٨) والشقرة شقائق النعمان (٢٧٢) ، والسيال ضرب من العضاة له شوك صغار بيض يشبه به الثغر (٢٦٥) والحاذ ضرب من الشجر (١٩٥) والعرفج لما اضطرم اشد اضطرام (١٥) ، والاجبل اللوبياء ، والسخير ضرب من النبت يطول ثم ينثني فيضرب به المثل للرجل اذا غدر وحال عن عهده (١٧) وفسيط قمع التمرة (١٨) والنشم ضرب من الشجر ينبت في الجبال تعمل منه القسي (٣٦) ، والعتم زيتون ينبت في الجبال (٣٦) ، والسرح ضرب من الشجر يقال له زيتون البر (٣٠٠) ، ويذكر لنا المعري انواع العنب الملاحي والوين وهذا الاخير هو العنب الاسود ويقال انه الزبيب وعن الاصمعي يوجد الملاحي والغربيب ، مستشهدا بقول الشاعر عن الكرم :

ومن عجائب خلق الله قاطبة   يخرج منها ملاحي وغربيب (٥١)

وقد اوردنا في بحث المقارنة مع بوذا ما ورد في اللزوميات عن العرفج في قسم الشر ، بتشبيه الخير العرفج الممطور الولوع والسريع الانطفاء .

وحبة الخردل شيء تافه صغير :

اذا طرق المسكين دارك فاحبه   قليلا ، ولو مقدار حبة خردل

وفي اللزوميات نجد :

ما الثريا عنقود كرم ملاد   ي ولا الليل يافع غربيب

والضرف هو التين ويقال انه ذكره ، والبثم قبل ان ينضج ، والجوازع هو الخشب التي تعرض عليها الدوالي (٥١) ، والفوف شيء يكون في العشر يشبه القطن (٣٩٩) والحلفاء النبات المعروف واحدها حلفه وقال قوم يقال في الواحدة حلفاء (٤٠٨) وان العضاة تنبت بالاضاة (٤٢٣) والاضاءة المستنقع (٣٣٨) . والدغل الشجر الكثيف الملتف (٣٩٥) والبارص اول ما يخرج من النبات (٤٠٣) ،

والبرم ثمر العضاة وهو طيب الرائحة (٢٦٤) وشذب فرق ومنه تشذيب النخلة تفريق سعفها (٤٠٤) . والغنية شجرة كثيرة الاغصان والورق ، والجرائم كنبات الاذخر اذا نبت بالارض اخذ بعضه باعناق بعض (٢٦١) ، والصرب صمغ طلع احمر ، والعظلم صمغ احمر يقال انه الفوه (٤٢٠) ، واللوي النبت الذي قد الوى اي اخذ فيه اليبس (٤٢٩) ، اروم الشجر جمع ارومة وهو اصله (٤٤٠) ، والقارة اكمة سوداء (٤٥٣) والصليان ضرب من النبت (٤٦٧) ، والبرمة والحبلة من ثمار العضاة ، والرقان الحناء (٤٦٩) وابن اوبر ضرب من الكمأة (٤٧٥) والتهبيد ان يأخذ الرجل حب الحنظل فيعالجه حتى تقل مرارته (٢٧٤) والعميم النبت الكثير (٢٧٥) . وعن الورد يذكر : (ورب ورد في وجنات صاحبه يسمع ويبصر يسقيه صباح مساء طل الدمع وهو لا يشعر به ووردة اخرى في شجرة ينتشر ورقها ذبولا وعطشا والماء في اصل قضيبها جار) . (٤٧٦) والشطب شق الجريد من النخيل لعمل الحصر (٤٥٣) وذكر المعري نباتات مختلفة كالعشرق والذبح والتنوم والهبيد (الحنظل) والمراعي للخيل اليعضد والسعدان للابل والخيل والحلب لذوات النزيب وذوات النزيب هي الظباء (١٤) والافانية نبت يقال لها اذا يبست الحماطة وهي موصوفة بان الثعبان تألفها (١٥) والجذل اصل الشجره (٣٨٤) والاعليط وعاء ثمر المرخ (٣٨٦) ، والخضر مصدر خضرت الغصن اذا قطعته اخضر والغرد ضرب من الكمأة (٣٨٤) وما وراء النجب اي قشر الشجرة (٤) واصول الوادس من ودس النبات اذا ظهر منه شيء يسير (٨) ، ومظعت القوس اذا سقيتها ماء لحائها ، وهي ان تقطعها وهي رطبة وتترك في الظل حتى تجف برهة من الدهر (١١) ، والغضرس اصول البردى ونوار الغضرس تشبه به عيون الكلاب (١٣) وقد ذكر ايضا عن الصبغ والاختضاب بالنبات : (ما خضبتك في طاعتك) (٢١٦) والعض علف الامصار والحذراف والقلام والنجيل والاشنان ضرب من الحمض «١» (٤١٨) وصوح النبت اذا تشقق لليبس (٣٦) والنفأ قطع النبات (٥٤) والعترة ضرب من النبت ينبت متفرقا (٣٥٥) ، والحرض وهو الاشنان (٣٣٣) ، الفرض ضرب من التمر (٩٢) ، والخزامى النبات الطيب الرائحه (١١٨) وهو من الحمض (٤١٨) . وعن الكافور نجد ما يلي : (اسق اللهم غفرانك قبورا طال عهدها بالعهاد يصير التراب المحفور مثل

«١» والحمض : هوكل نبات مالح او حامض ، (ناشر الفصول والغايات ص ٣٤٦ م ، ٢)

الكافور) (٤٩) ، (مـن يخبرني عن فور طلين بالكافور) (١٥٤) •

ومن النباتات الطيبه الرائحه يذكر المعري البنفسج وضروبه من النبـت كالحنوة والعرار والجثجاث (١٧٢) والعبس (٢٣٢) والهندي والغار (٥٤) ، والقتاد شجر له شوك امثال الابر (١٧٤) ، الربل : ما يتفطر به الشجر من الورق في اواخر الصيف من غير مطر عار (١٣) او نبت ينبت في اواخر الصيف بالندى (١٦٤) •

والتنوم : نبت يسود كله تأكله النعام (٢٣٠) •

هذه اهم ما ورد عن النباتات عند المعري ، ومن الضروري مقابلتها مع باقي المصادر النباتية ، وهي على ما يظهر لنا مرتكزة على المصادر العربية الاصيله سواء كان ذلك التواتر الشفهي والكتب المعروفة في عهده والتراث الادبي ايضا من نثر وشعر ، واذا اردنا المقارنة مع الجزء الخامس من كتاب النبات لابي حنيفه الدينوري المتوفي عام ٢٨٢ هـ نجد ما يلي :

السيال واسمه اللاتيني (اكاسيا توريتليس) • عن الكميت في وصف بقـر وحشي «١» •

كعـذراء في مجنـى السيال تخيرت	انابيـب رخصـات الفروع سيالها

وعن ابي عمرو ان السيال يبرم ثم يحبل «٢» السدر (زيزيفوس سبيـنا كريستي) ، يقال لصغار السدر عرمض ، وعن ذي الرمه :

قطعـت اذا تجوفـت العواطـي	ضروب السدر غبريـا وضـالا

وعـن الهذلـي :

فالسدر مختلـج وانـزل طافيـا	مـن بـين عـين الى نبـات الاثأب

وعـن الرمـاح :

بحيـث يكـن اخريطـا وسـدرا	وحيـث عـن التفـرق يلتقينـا

وجاء في اللزوميـات :

مـا للبصائـر لا تخلو مـن السدر	والعقل يعصى ، فيسي وهـو كالهـدر

زعم بعض الرواة عن الخمط شجر يشبه السدر ، والفطام من السـدر دوم «٣»

«١» ـ نشر ب. لوين ، ليـدن ١٩٥٣ ، ص ٤٠ (ملحق) ، ص ٤٦ .

«٢» ـ نفس المصدر ، ص ٥٣ «٣» ـ نفس المصدر ، ص ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٧ ، ١٦٦ ، ١٦٩ .

القرظ (الاكاسيا العربيه) ، فعند ذكر الحومر نجد ما يلي : (شجر عظـام مثل شجر الجوز ، وثمره قرون مثل ثمر القرظ) «١» • الملاحي الذي فيه شهبة وحمرة وقيل انه تين صغار «٢» • العشرق (كاسيا اوبوفواتا) : لقد ذكر مشبها بحب الحرمل ، والحرمل مما اذا هبت عليه الريح تخشخش كالسنـــا والعشرق «٣» • القصيص ذكره الدينوري عند ذكر الاجرد واحدته اجرده ولم نعلم مـن نعته اكثر من انه ينبت بين ظهراني الكماة ويستدل به على مواضعهـا من بطـن الارض • ويقول الراجز في وصف كمأة :

جنيتهـا مـن مجتنـى عويـص   مـن منبت الاجـرد والقصيص «٤»

سلم (اكاسيا ارينبرجيانا او سلم) ، عن اعرابي ان برمة السلم اطيب السلم ريحا وهي صفراء تؤكل طيبة ، وعن الجزاء شجرة ترتفع على ساق مقدار ذراعين او اقل •• ولها برمة مثل برمة السلم ، والحبله ما كان من ثمر العضاة كثمر السلم والسمر • وقد جاء في وصف بعير :

يأكـل مـن خصـب سيال وسـلم   وحلـه لمـا توطئهـا النعـم «٥»

السـمرة (اكاسـيا سبيروكاربا) ، وقـد ذكرهـا ابـو حنيفة عنـد ذكر الحبلة وهي من ثمر العضاة كثمر السلم والسمرة وهي في هيئة الباقلي غـير انه ليس بعظام • وعن ابي زياد ان للسمر برمة صفراء ثم تصير حبلة منعكسـة مجتمعة كأنها قرون اللوبياء الا انها متثبتة مجتمعه يأكلها الناس • وعند ذكـر الحذال : (قال ابو زياد : الحذال شيء ينبت في السمر كالصمغ يشبه الدودم يأكله من قد عرفه ومن لا يعرفه يظنه دودما • وعلى ذكر الدودم جاء ايضا عـن

«١» ـ نفس المصدر ، ص ١٣٤ .

«٢» ـ نفس المصدر ، ص ٥ ، ٧٠ .

«٣» ـ نفس المصدر ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

«٤» ـ نفس المصدر ، ص ٣٢ .

«٥» ـ نفس المصدر (٥٣ ـ ١١١ ـ ١٢٤ ـ ١٣٣) والحله شجرة شائكة اصغر من العوسجة الا انهـا انعم ولا ثمر لها ولا ورق صغار وهي مرعى صـدق وتسمى العوسج باللغة اللاتينية العلمية « ليسيوم ارابيكوم » .

ابي زياد ان الدوم يخرج من اجواف الخشب الاسود في حمرة يتدمم به النساء) • قال ويخرج من السمر ايضا • وعن ابي عمرون ان الدودم شيء يخرج من السمر احمر والواحدة دودمة ، وهو مثل الصمغ ، وعن الفراء ان الدودم شيء يشبه الدم ، يخرج من السمرة يقال حاضت السمرة «١» •

الخزم ذكر ذلك في باب الخوض والوحدة خوضه وهي ورق النخل والدودم والنارجيل والخزم والكاذى والفوفل والغضب وما اشبه ذلك مما نباته نبات النخلة «٢» •

عشر (كالوترويبس بروسيرا) ، للعشر ثمرة كأنها كيس فاذا كشفت عنها اصبت اطباقا لينة بعضها على بعض ، فهو حراق الاعراب ، وزعم بعض الرواة انه يقال له ايضا الخرفع بالكسر ، ويقال ايضا للقطن خرفع ، وعند ذكر الزنبور : (اخبرني اعرابي من عنزة قال الزنبور شجرة عظيمة في طول الدلبة ولا عرض لها ورقها مثل ورق الجوز في منظره وريحه ، ولها نور كنور العشر ابيض مشرب) «٣» •

ايكة جماعة الاراك ، وقد بينا (ابو حنيفة الدينوري) ذلك في باب جماعة الشجر وشرحناه ، ولذلك قيل استأيك الاراك اي صار ايكة ، والاراك الواحدة اراكة وبها سميت المرأة اراكة : وهي افضل ما استيك بفروعه وبعرفه من الشجر ، واطيب ما رعته الماشية رائحة لبن ، والاراك من العضاة «٤» النشم (جرويا فلوتينا) ومنبت النشم الجبال وهو من العتق التي تتخذ منها القسي «٥» •

الجبار وهو من فسيل النخل ما نهض ففات يد المتناول ، والواحدة

«١» ــ نفس المصدر ، ص (١٢٤ ــ ١٢٥ ــ ١٢٦ ــ ١٧١) •

«٢» ــ نفس المصدر ، ص ١٥٢ •

«٣» ــ نفس المصدر ، ص ١٤٧ ، ٢٠٤ •

«٤» ــ نفس المصدر ، ص ٢ ، ٤ ، ٧ ، ٤٠ امـا جماعة الشجر التي يذكرها الدينوري فلم نهتد اليها

«٥» ــ نفس المصدر ، ص ٦

جباره «١» . الكراث يشبه ورق هذا النبات بورق الثداء ، وعند ذكر المصاصر يذكر ان نباته يشبه الكراث «٢» . الزعف حطب العرفج من اعاليه وهو اخبثه وارداه ، وحطب العرفج ضرم لا جمر له «٣» . العتم الذي يصفه ابي العلاء بالزيتون الجبلي هو حسب ديسقوريدس (فيلير الاتيفوليا) ، ويذكر ابو حنيفه عن الاصمعي بان العتم يغلظ حتى منها الجفان الواسعة والموائد وغير ذلك من الاواني وهو صلب ، والاتم لغة في العتم وهو شجر زيتون يكون بالسراة في الجبال عظام . ويذكر الزعتج بانه ثمر العتم ويكون اخضر ثم يبيض ثم يسود فيلحو في مرارة ، وله عجمة ويؤكل ويطبخ ايضا وهو رطب بالماء ثم يصفى ماؤه ويطبخ حتى يعقد فيكون ربا ، يؤتدم به ، ويشرب بالماء ويتداوى به «٤» . الحنظل وهو يسمى الهبيد ، حب الحنظل يسمى الهبيد «٥» . الحلفاء (سيبرسيا غرامينا) عن ابي زياد من الاغلاث الحلفاء ، وقل ما ينبت الا قريبا من ماء او بطن واد ، وهو سلبة غليظة المس لا يكاد احد يقبض عليها مخافة ان تقطع يده ، وقد يأكل منها الغنم والابل اكلا قليلا ، وهي احب شجرة الى البقره ، الواحدة منها حلفاء ، والخلفاء غير البردى «٦» . الحماط وعن الاصمعي الافاني والافانية وهي شيء ينبت كأنه حمضه، تشبه يفرخ القطاه حتى يشوك فاذا يبس فهو الحماط، ومنابته السهل ، وهذا غير الحماط الذي هو تين الجبل «٧» . ابن اوبر وهي جنس من الكمأة صغار زغب وعن ابي عمرو بنات اوبر شيء مثل الكمأة وهي صغار ، تقول العرب ان ابني فلان مثل بنات اوبر أي يظن ان فيهم خيرا ، وابن اوبر معرفة ، ويقال هذا ابن اوبر مطروحا «٨» . الخرض : الخرض هو الانسان ، قال ولم نر حرضا انقى واشد بياضا من حرض اليمامه وانما هو بواد باليمامه «٩» .

التنوم : هي شجرة غبراء يأكلها الظباء والنعام ولها ورقة عريضة كأنها ورقة

«١» ـ المصدر السابق ، ص ٩٢

«٢» ـ نفس المصدر ، ص ٧٧ .

«٣» ـ نفس المصدر ص ٢٠٢ . والعرفج شجر سهلي شائك ، (انظر المعري) .

«٤» ـ نفس المصدر ص ١٦ ـ ٢١ ـ ٣٨ ـ ٢٠٧ .

«٥» ـ نفس المصدر ١٣٥ ـ ١٣٨ .

«٦» ـ ص ١٢١ .

«٧» ـ ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٧١ ، ١٠٠ ، ١٠١ .

«٨» ـ ص ٣٩ ـ ٤٠ .

«٩» ـ نفس المصدر ، ص ٤١ .

العنب يعني في الشبه لا في الكبر واكثر منبتها شطآن الاودية ، وقد اكثر الشعراء في ذكر التنوم • وتدوم خضرته وعصارته تصبغ به الجلود «١» البرم : واحدته برمة وهي من نور العضاه ، ويجمع ايضا براما ، قال اعوابي برمة السلم اطيب السلم ريحا «٢» • الثمام هو من الجنبه والثمام وهو ما كان منه اخضر ، وقد احجن الثمام اذا نبت «٣» • خزامى : ونقلا عن ابي زياد : من العشب الخزامى وهي طويلة العيدان صغيرة الورق ، حمراء الزهرة طيبة الريح ، ولم نجد من الزهرة زهرة اطيب نفحة من زهرة الخزامى «٤» الغار شجر طيب الرائحة ، وقد وصفه الدينوري في باب الكرم «٥» ويذكر الدينوري ايضا ما يصبغ به النبات ، وما يختضب به النبات والنباتات الطيبة الرائحه وما يدبغ به النبات ايضا وبصورة تذكرنا بما في الفصول والغايات، والكافور الذي ذكره المعري هو الكافور الذي ورد ذكره في القرآن سورة الانسان : (ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا •) والكافور المقصود في القرآن والذي ذكره ابي العلاء هو كافور بورنئو الذكي الرائحة الذي يختلف عن الكافور الآخر المستعمل في الطب •

وتركيب الاول عشرة فحم وسبعة هيدروجين وجذر الماء اما الكافور العادي المستعمل في الطب فيتكون ككافور بورنئو بعد نزع جزء من الماء منه فيكون تركيبه عشر ذرات من الفحم وست عشرة ذرة هيدروجين وذرة اوكسجين «٦» •

ويذكر المعري في اللزوميات بمناسبة احراق الميت عند الهنود :

والنار اطيب من كافور ميتنا غبا ، واذهب للنكراء والريح

وعن الزنجبيل نجد في اللزوميات :

وهي رومية لزنجية الاعناب ، فيها طعم من الزنجبيل

والزنجبيل ورد ايضا في القرآن في نفس السورة الماضية •

«١» ـ نفس المصدر ، ص ٧٣

«٢» ـ نفس المصدر ، ص ٥٣

«٣» ـ نفس المصدر ، ص ٧٩ .

«٤» ـ نفس المصدر ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

«٥» ـ نفس المصدر ، المقدمة الانكليزية ص ٣ ، عربي ص ٨٦ .

«٦» ـ راجع مقالتنا باللغة الالمانية عن تاريخ كافور مجلة الصناعة الصيدلية الالمانية في اولندروف (ورتمبرغ) ـ المانيا ـ ١٩٦٤ .

« ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا » •

ولقد ذكر يعقوب بن اسحاق الكندي (فيلسوف العرب) الزنجبيل في الطب «١» •

٤ ــ عالم الجماد :

اذا اردنا تقسيم عالم الجماد عند المعري فيمكننا ذلك الى الاقسام الآتية :

أ ــ الاحجار والمعادن •

ب ــ الاراضي والاتربة •

جـ ــ الانواء والمياه •

١ ــ الاحجار والمعادن :

يذكر المعري الحجر فوق الحجر جدار (٥) الرزن حفرة يجتمع فيها الماء (١٠) ، الجزع وهو الجزع اليماني لا الصيني كما ذكر الشارح والذي فيه سواد وبياض اشبه بالعين (١١) • وعن الحجرين الكريمين يذكر : (اما الدرهم فشرود دواهم ، اذا انفقت الدرهم ملكته ، واذا صنته اهلكته ، والدينار جمع من دين ونار ، والله قد رفع قدر الحجرين) (٥٢) ويعني بهما الذهب والفضة ثم يستدرك بعد ذلك ويقول : (ولو شاء لجعل افضل منهما الصرفان) ويقصد بذلك الرصاص • وليس هنا اي مشكلة من مشاكل الكيمياء القديمة •

يذكر في الذهب ان فيه ثلاث خلال : حسنه وثقله وبقاؤه على الايد ، الا ان الذهب كثر الراغب والحق قليل الراغبين (٧٧) •

وعن ماء الذهب الزرياب ماء الذهب ، ويقال صبغ يقع في ماء الذهب ويستشهد المعري بقول ابن قيس الرقيات :

كأنها دمية مصورة ميع عليها الزرياب والورق (٩٣) •

نحن هنا في الحقيقة امام مشكلة كيمائية ، فهل يعني الشاعر الذي استشهد به المعري بماء الذهب حقيقة بعد حله الذي يحدثنا عنه البيروني في كتابه الجماهر

«١» اقرباذين الكندي (من القرن الثالث هـ . والتاسع م) ، انظر المصادر الاعجمية رقم ١٨ .

في معرفة الجواهر «١» ام ان المقصود معنى مجازيا لا حقيقيا ؟ وقد ثبت لدينا ان قلب المعادن القديم هو لطخه بمعدن اثمن منه كلطخ الفضة بالذهب ، وقد برهنا على ذلك في الموضوع الذي قدمناه الى المؤتمر العاشر الدولي في جامعة كورنيل (اتيكا) من الولايات المتحدة الامريكية .

وعبارة المعري لا يمكننا ان نستدل منها على شيء وفي التشبيه عن هذين المعدنين يقول :

(لا فضة له فالقلب فضض ولا ذهب يخافه ان يذهب) (٨٥) .

وكذلك : (الفضة تفض خاتم الديانة ، والدريدر المعصيه ، والنضار يترك الاوجه غير نضرات) (١١٧) ويضرب مثلا بديعا بان هذا الذهب قد يكون سببا للغناء : (كاد الأسك يحترق في جمر من الذهب خاب) (٥٦) والأسك هو من صفات البرغوث .

وعن بعض الخرزات يذكر : (القبيل والغطسه خرزتان يؤخذ بهما ، والهنمة خرزة من خرز النساء يؤخذن بها ايضا (١١٨) . وعن الجواهر يذكر : (اذاب عيني زبرجد لاياقوت ، ما بعثك على ذلك ابا الادراص ، قال ما علمت ان الجوهر لك ضار .) وفعل ذلك اهله . فلما كان في بعض التطواف وجد فلذة من الزمرد، قال ما يصنع بهذه كسوب جوال (٤١) . وعن ذوبان الصخر (كيف لا تذوب الصخرة من الحر والماء يجمه من القريس وذلك بقدر عالم المغيبات) (٣١٢) . وعن المهل (والمهل هو عكر الزيت ، ويقال بل هو ما اذيب من جواهر الارض مثل الذهب والفضه والرصاص ونحوها) (٣٢٧) . وعن المعادن في تساميها نجد استشهاد المعري :

كل قوم خلقوا من أنك   وبنو العباس عقيان الذهب (٤٥٣)

وهنا نجد تواتر قديم جدا يعود الى عهد الاكادي في العراق وهي كلمة

«١» ـ حيدر آباد ١٣٥٥ هـ ص ، ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ويأتي باشعار عديدة عن ماء الذهب والذهب السائل ويأتي البيروني بشعر آخر عن ابن قيس الرقيات .

كأن متونهن تظل تكسى   شعاع الشمس او ذهبا مذابيا

(أنك) بمعنى الرصاص «١» ونجد ذكر ذلك في قصيدة صفوان في الرد على بشار بن برد في البيان والتبيين للجاحظ «٢» • ويفسر البيروني في كتابه الجماهر في معرفة الجواهر (حيدر آباد ١٣٥٥ ص ٢٣٢) ، يقال لما استغني عنه الذهب بخلوصه عن الاذابة العقيان ، ويظن البيروني انه منه سمي العقيان وهو مثل الموجود في براري السودان بنادق كالمهرجانات يلتقطها من دخلها من اهل سفالة الزنج ، وقد استشهد بقول الشاعر :

كمستخلص العقيان جاد محكه وطاب على احمائه حين يوقد

وعن سبك التبر (١٣٠) وعن اللاب جمع لابه وهي الحرة (٢٣٢) ، والحرة ارض ذات حجارة سود (٤٦٧) ، والسام عروض المعادن سام الذهب والفضه (٤٤٤) • ومن الغريب ان نجد هنا تشابها بين البشر والمعادن في تصنيفها ، وهي فكرة كيميائية قديمة وهناك من تشابه بين تصنيف البشر عند الهنود وتصنيف المعادن هنا والتي نجدها عند البيروني • وان تصنيف الاحجار الكريمة وتصنيف المعادن الى اصناف يعود الى جابر بن حيان في كتابه الخواص الكبير فيقسمها الى عشرة ويجعل الذهب في الذروة ولعله يجعل الرصاص في الاسفل «٣» •

ويشبه المعري الشر بتدخين الكبريت :

والخير في الارض كالاترج منبته والزم الشر تدخينا بكبريت

الاترج : هو الشجر المعروف وهو من الخير ، والشر منتشر انتشار الدخان وذكر دخان الكبريت لانه خانق •

وفي رسالة المعري الى ابي القاسم الحسين بن علي المغربي المعروفة بريح المنيح من نشر مرجليوث نجد ما يلي (ص ٤) :

(وبلغ وليه السلام الذي لو مر بسلمة وارية لاغدقت او سلمة عارية لأورقت ،

«١» ـ راجع القاموس اللغوي الالماني ، لزيفرت •

«٢» ـ البيان والتبيين ، طبع القاهرة ١٩٣٢ ، ج ٢١ ، ص ٣٩ •

«٣» ـ راجع مختار رسائل جابر بن حيان ، نشر ب كراوس ، القاهرة ١٣٥٤ هـ • ص ٣٠٩ والبحث المقدم من قبل محرر هذه السطور الى المؤتمر الدولي العاشر لتاريخ العلوم ، التبادل الايوني في الكيمياء العربية •

فحمل فؤادي من الطرب على روق اليعفور ، بل فوقة جناح العصفور ، فكأنما رفعني الفلك او ناجاني الملك ، جذلا بما لو جاز تبدل الغريزة ، وتحول النخيزة، لنقلني من آل العامي الى عالي السامة نقل الكيمياء ما خالط من المزابق الجائز الى جملة النضار المايز) • ويفسر مرجليوث لروق القرن واليعفور الابل ، والكيمياء بالاكسير ، وهنا ينطبق فكرة تبدل العناصر بفكرة السمو بالكائن البشري الذي يذكره يونغ في كتابه (الكيمياء وعلم النفس) والذي نوهنا عنه في موضوع المثل الاعلى للنفس في كتابنا المثل الاعلى في الحضارة العربية •

وفي رسالة الهناء وهي رسالة بعث بها المعري الى بعض معاصريه من الكبراء يهنئه فيها بقدوم وزير السلطان شبل الدولة والتي نشرها كامل الكيلاني (القاهرة ١٩٤٢) وفي ص (٢١٢ ـ ٢١٣) نجد ما يلي :

(وكما لا يمتنع في القدرة نقص الماء ونضوبه ، لا يمتنع ان يعذب ببركة هذا الرجل الصالح الماء الاجاج • فيعود كأنه من النحل مجاج (عسل) او تسير السفينة على اليبس او تطير في الهواء كأنها شعلة من قبس متعجل ، يعدو وشيكا يلهب مشتعل وليس هذا المطلب المحال ، البعيد المنال ، وما هو بخادع من كاذب الآمال فقد يصبح ، باذن الله ، حقيقة تراها العين لا كذب فيها ولا بين) •

وان فكرة مقدرة الانسان على التصرف بالطبيعة هي فكرة سيمائية صوفية ، وهي اليوم فكرة فاوستيه عصرية ، نسبة الى فاوست بطل غوته في قطعته الشهيرة•

وعن الاحجار يذكر المطلي بالشيد وهو الجص (٣٤٢) والحندس القار (١٧٢) والصفاح وهي الحجاره العراض (٣٥٥) وعن المرو الذي يوجد فيه سام الذهب يذكر ١ ـ والقرو لا يمتلىء من عصاره المرو (١٦٠) والقرو كما يفسره المعري نفسه اناء يعتصر فيه الخمر ، والمرو الحجارة الرقاق ، ٢ ـ والوليد يأخذ المرده وجناح الطائر ينتفض (٤٥٨) وليس هنا بواضح بين انتفاض جناح الطير وبين المرده ويفسر المعري المرده ايضا بالحجر الرقيق (٤٦٢) • والمرو هو في الحقيقة السليس الصافي المعروف باسم الكوارتز وتركيبه رمل صاف ويتبلور موشور سداس ينتهي بهرمين • ولا يتأثر في الحقيقة من الماء كما ذكر ابي العلاء فالخمر لا يمتلىء من عصارة المرو ، بل تلك العصارة لتخرج ماء صافيا • (فالخشوع منشيء المطر يسقي الشقائق ذوب العقيق ، والجهرماء السام ، واللجين وفضيه زير جدي

العصير والبنفسج منحل الياقوت) (١٧٢) • اما ذكر البجاد فهو الثوب المخطط (٣٩٩) واتتقل على مـا يظهر للحجر الكريـم البجادي الـذي هو الغرانات •

وسبق وبينا الدر في بحث الحيوان (الفصول والغايات) :

ويشبه الجواهر في اللزوميات :

والـدر در للهمـــوم تسـره — ان الجـواهـر بالأذاة جـواهـر

(الجواهر الاولى : الحجارة الكريمة ، والثانية من الجهر بالشيء اي اعلامه)

ويأتي بتشبيه الدرر والمحـار :

وغدت محـارات الحجيـج الى منى — وكأنمـا ينظمـن در محـار

المحارة الاولى : محفة كالهودج يركبها المسافر ، والثانية الصدفة •

وعـن الـدر والياقـوت :

وشـاهد خالقـي ان الصـلاة لـه — اجـل عنـدي مـن در وياقـوت

وعـن الياقـوت :

وجانب الناس تأمـن سوء فعلهم — وان تكون لدى الجلاس ممقوتـا

لا بد مـن ان يذموا كل من صحبوا — ولـو اراهم حصـى المعـزاء ياقوتـا

وعـن الدر يذكـر ايضـا :

كـم درة قصدوهـا في مواطنيهـا ، — لعـل كفـا ، بمقـدار توافيهـا

فاستخدموا اللجـة الخضراء تحملهم — سفـائـن بـين امواج تنافيهـا

ويذكر البلق في السلق (٢٧٣) دون ان يفسره ، ويفسر الموم بأنه البرسـام ٣٤٦ ، وثنايا الجبل الطـرق ، (١٥٦) وعنـد البيروني هـو النفط الصلـب (اوزوكوريت) ، الجماهر (ص ٢٠٤) •

ب ــ الارض والاتربـة :

كأنمـا الارض شـــاع فيهـــا ... مـن طيـب ازهارهـــا بخـــور
اثنـت علـى ربهـــا السـواري ... والنبـت والمـــاء والصخـــور

عن الارض والاتربة يذكر المعري : المصلة وهي الارض الكثيرة الصلال وهـي الحيات (٢٠٨) ، البوباة والموماة القفر من الارض (٢٢١) والاراك القطعة مـن الارض (٢٤٣) ، والخد الشق في الارض (٢٣٠) ، والسلق مطمئـــن الارض (٢٣٨) والصوى جمع صوه وهي هنا ما غلظ من الارض (٢٤٠) ، والادماث ما سهل من الارض (٢٤٠) والقلة وهو مرتفع الجبل (٢٤٣) ، والارض الرعدة أي لا اضطراب فيها (٣٤٦) ، وثنايا الجبل الطرق وواحدتها ثنية (٣٦٨) ، والبراح الارض المنكشفه الواسعة (٣٨٢) والنجاد جمع نجد وهو ما علا مـــن الارض (٣٩٩) ، والسباخ جمع سبخة وهي ارض ملحة لا تنبت شيئا (٤١٤) ، والهضم المطمئن مـن الارض وجمعها اهضام ويستشهد المعري بقول لبيد :

هبطا تهامة مخضبا اهضامها :

ويذكر ناشر الكتاب بان صدر البيت «فالضيف والجار والجنيب كأنما » ، ويعتقد بان تهامة في البيت خطأ مـــن الناسخ وصوابه (تبالة) (٤٤٤ وملاحظـــة ٢) ، والرجل ايضا جمع رجله وهي ما اطمأن من الارض (١٠) . والجثر التراب اللين يكون بين ظهري الارض ، والرغام التراب الرقيـــق (٤٥١) ، والكديـه الارض الغليظه (٤٦٢) والانثال وهو التراب الذي يستخرج من بئر او حفيرة (٤٦٣) والحرة مر ذكرها (٤٦٧) . الرزن حفرة في صخره يجتمع فيها المـاء (١٠) ، والمهامه جمع مهمه وهي الفلاة (١٢) . والنبث ما يخرج من تـراب القبر او البئر (٦) والضريس البئر المطويه بالحجار (٧٥) ، والقراح من الارض التي تصلـح للزرع ولا شجر فيها (٨٥) والجراب جانب البئر من اعلاها الى اسفلها (٨٥) . وعن مكة يذكر ورمل بطائحها اولى بالمفرق من المسك (١٧٢) وعـــن السلـق المطمئن من الارض مستشهدا بأبي داود :

تـــــرى فـــاه اذا اقبـــــ ... ـــل مثـل السلق الجـدب (٢٣٨)

والسيب هو مجرى السيل : ويجوز ان يسمى السيل ، ويجـــوز ان يسمى السيل بعينه سيبا والعنتوت اعلى موضع في الجبل ، والكديد الارض الصلبـــة ،

والسباخ جمع سبخة وهي ارض ملحة لا تنبت واللوذ منعطف في الوادي والجبل والفيح جمع افيح وهي الارض الواسعة (١٨٥) والمور دقيق التراب (٢٣٤)

الخل : الطريق في الرمل والخليف الطريق بين جبلين (٢٣٠) الحزيز ارض غليظة مستطيلة (١٨٦) ، والقرى مسيل الوادي ، والسرى النهر ، والتلعة ما ارتفع من الارض ويستشهد المعري هنا بقول الشاعر :

لحى الله اعلى تلعة حفشت به   وقلتا اقرت ماء قيس بن عاصم

ومعنى حفشت به كما يفسرها الناشر اسالة من كل جانب ودفعت به الى بطن الوادي (٣٠٥) والقلت (كما يفسرها المعري نفسه في لغة اهل الحجاز البئر) ، والوعوث ، المكان الذي تغيب به الاقدام اي الطريق العسير (حسب تفسير الناشر) ، ،ويقول المعري تسير في الوعوث والرزق اليك مبعوث (٣٠٥) الأضاءة : المستنقع (مرت معنا) (٣٣٨) .

البراح : الارض المنكشفة الواسعة (٣٨٢) .

الامليث مثل الامليس وهي الارض التي لا نبات بها (٤٢٧) .

وعن الصلصال يذكر في اللزوميات :

صل القبائل بالفخار ، وانسا   خلقوا من الصلصال كالفخار

صل : عظم ، الصلصال : الطين اليابس

ويذكر في اللزوميات الغار والمسك بمناسبة وحدة العنصر :

عنصر واحد ، وما الغار من هيـ   ـت أعسري ، كالمسك في خرخاز

كن من الروم او من الترك او   سابح او فارس ، او الايجاز

صورة خبرت بأنك مجبو   ل على الشر ، والمهيمن خاز

واختلاف من منصب وبلاد   واتفاق على رضا بالمخازي

التفسير : هيت : بلد في العراق ، خرخاز : قرية في خوزستان ، سابح

وايخازهما جيلان من الناس لا ندري ماذا يقصد بهما المعري ، خاز : قاهر .

وعن الحرة والبصرة يذكر :

ولا الحرة السوداء حاطت سيادة ولا البصرة البيضاء حصنها البصر

البصر : اي الحجارة البيض .

ج ـ الأنواء والمياه :

وعن البحر يذكر :

ان غاص بحر مده فلطالما غدر الغدير

وايضا :

وان فضت للاقوام بالمال والغنى فيا بحر ايقن بالنضوب وان جشتا

فيذكر المعري القسيب وهو خرير الماء والسويد وهو من أسماء الماء (١٤) ونكزت القلب اذا غار ماؤها (٥٢) والقلب من قلب النخلة (٢٢٨) والوديقة شدة الحر ودنو الشمس من الارض (١٣) ، والجربياء وهي الريح التي تهب بين الجنوب والصبا تكون باردة ، والشمال الريح التي تهب بين مطلع الشمس وبنات نعش (١٢) والنعق الغمام اذا جاء بسطر كثير (٢٤) والصعق الذي تصيبه الصاعقة (٢٤) . ويذكر المعري : (كم في الارض وكم في السماء ، نجم لاح للركب ، وآخر طلع غب الغمام ، كلاهما شهيد القدرة ودليل الوحدانية .) (٤٠)، وفجر الايدع الشفق . ويقال فجر الصبح لان الكواكب تشبه الودع (٢٢٦) ، والبوارق من البارقة وهي الغمامة ذات البرق (٢٥٩) ، والخال السحاب الذي يخال فيه المطر (٢٠٨) . والسماء العقاقة : من عقائق البرق ، والعقيقة البرقة المستطيلة (١٠٤) وتثنى على الله بلاد ما ضرب بها الليل رواقا ولا نسج السحب سترا ولا اوقدت الشعرى نارا ولا نصب عموده في الفجر (١٧٢) وبرق باخ اذا سكن وذلك من باخت النار اذا سكنت (١٨٣ ، ١٨٥ ، ٤٣٨) ، والدث هو اضعف المطر ، واجيج القيظ وصنابر الشتاء (٦) والصنبر : شدة البرد (٢٥) ، وعن البرق والرعد (٢٩) وعن الزلزال (١٨٤) . والخريق: الريح تنحرق في هبوبها . (١٦٨)

اما نظرية الواقعية فنراها في شعره الآتي (اللزوميات) :

ازرى بكم يا ذوي الالبـــاب اربعة   يتركن احلامكـــم نهـب الجهـــالات

ود الصديق وعلـم الكيميـــاء واحـــ   ـــكام النجـوم وتفسـير المنامـــات

الخلاصـــــة :

اننا نجد في مواعظ المعري وادعيته هذه معرفة واسعة في التراث العربي في العالم العلوي في الكواكب والافلاك والعالم السفلي مبتدئين بالانسان والطب ومنتقلين بعد الى الحيوان والنبات فعالم الجماد الذي قسمناه الى معادن واحجار مختلفة ، ثم الاراضي والاتربة والانواء والمياه المختلفة ، وعلى ما يظهر ان المعري مرآة صادقة للبيئة التي يعيش فيها ، سواء ما سمع ذلك من افواه الناس وحفظه في ذاكرته وتخيله في مخيلته او ما قرىء عليه ايضا وتخيله كذلك ، ولئن رأينا بعد افكار من المعري عند معالجتنا له كمفكر حر بصونية المادة وامكانية انطفاء الشمس فنرى هنا له آراء في الجزء الفرد والجوهر والعرض وبالحتمية العلمية ايضا . فهو مدقق وان كان عن طريق السمع وجامع للتدقيقات وساع لئـن يكون لهـا قانونا عامـا ، ولكنه كشاعر واديب لا يجمد الافكار تجميدا نهائيا بل يرى في ذلـــك الامكان ، تلك الفكرة التي لا تقيد الفكر البشري ، بل تترك مجالا للكشـــف الجديد والابداع . ومع ذلك فهو يرى حكمة الله في مخلوقاته ، وهكذا ينسب اليه (في طبقات النحاة واللغويين) ـ (سليم الجندي الجامع من اخبار ابي العلاء ... الخ ص ٥٠٩) ما يلي :

يـــا مــن يرى من البعوضة جناحهـــا   فـــي ظلمـــة الليـــل البهيـم الأليـــل

ويرى مناط عروقهـــا في نحرهـــــا   والمـــخ في تلـــك العظـــام النحـــل

امننـــن علـــي بتوبة تمحـــو بهـــــا   مـــا كان منـــي فـــي الزمـــان الاول

عبقرية أبي العلاء

قبل البدء في الكلام عن عبقرية هذا الشاعر الخالد لا بد لنا من تفسير العبقرية حسب المفهوم القديم والحديث • يقول المعري نفسه في رسالة الملائكة التي نشر قسما منها قديما المحقق الهندي الراجكوتي ونشرها اخيرا سليم الجندي : (العبقري الذي عليه اتكاء المؤمنين الى أي شيء نسب ؟ فأنا كنا نقول في الدار الاولى ان العرب كانت تقول ان عبقر بلاد يسكنها الجن وانهم اذا رأوا شيئا جيدا قالوا عبقري ، أي كأنه عمل الجن ، اذا كانت الانس لا تقدر على مثله ثم كثر ذلك حتى قالوا سيد عبقري قال ذو الرمة :

حتى كأن حروف القف البسها من وشي عبقر تجليل وتنجيد

وقال زهير :

بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوما ان ينالوا ويستعلوا

كذلك الامر بتعبير « جه ني » في اللغات الاوروبية المشتق من لفظ « جه نيوس » اللاتيني ومعناه شيطان مساعد اوجني ومن اشتقاق عربي ايضا وهو روح يعتقد فيه الاقدمون قوة الاشراف على حياة الانسان وحظه ، فيصقل مواهبه وينفخ فيه النبوغ الى أرقى درجاته وأعلى ما يصل اليه العقل البشري • والمقابل لهذا التعبير باللغة العربية « العبقري » ومفهومه كما وصفه ابو العلاء نفسه ويروى عن لبيد :

كهولة وشبان كجنة عبقر

اما التعبير العصري لهذا المفهوم هو كما ادلى به نيتشه في « فوق الانسان » هو ذلك الذي يستطيع ان يعلو قمة لا يعلو احد فوقها بصورة يصبح انتاجه معجز البشر • ومهما كان هذان المفهومان متباينين في عرضهما فهما يتفقان في العادي • وما يقصده كارليل في كتابه الابطال الشهير بالبطل بمظاهره المتباينة كإله ،

كنبي ، كشاعر ، كقائد ... الخ ما هو الا لعبقري .

بعد هذا التعريف لا بد لنا من تحديد صفات العبقرية وخاصة من مظاهر بعض الناس الذين استحقوا هذا اللقب لنرى ايضا ان شاعرنا جدير به أم لا ؟

ان اول ميزة من ميزات العبقرية هي الشعور بالشخصية ولكن لا عن غرور مزيف بل عن عزة نفسية حقيقية ، وبزعمي ان الشعور هو الميزة الاولى للعبقري فالشعور بذلك مرتبط دائما برقي الكائن . اذا اتينا الى الجماد لا نجد فيه اي شعور بشخصيته ، وكذلك عند النبات شعور ضئيل نكاد لا نشعر به ولولا مشاركة لنا في كثير من الافعال الحياتية لظنناه جمادا ، نرتقي خطوة الى الامام عند الحيوان فللحيوان شعور بشخصيته ، فهو يسعى في طلب طعامه وشرابه ويهرب مما يداهمه من اخطار محدقة خلافا للنبات الذي يظل ثابتا مكانه وان قتر عليه في الرزق او نصب معين عيشه بالمرة او حاقت به كارثة فادحة . واعظم درجات الشعور بالشخصية في جميع الكائنات الحية يكون عند الانسان ، وهذا الشعور يتفاوت ايضا عند ذوي العقول فمن أوتي حظا كثيرا من الادراك والاحساس كان شعوره قويا ومن كان حظه قليلا في ذلك كان شعوره قليلا ايضا .

اذا درسنا أبا العلاء من هذه الناحية لمسنا شعوره العظيم بشخصيته هذا وان تراءى لنا في كثير من الاحيان مقلدا لغيره وخاصة في الفخر ذلك النوع من الشعر العربي المعروف قديما ، ولكن لدى التعمق في أقواله نجد فيه ايضا ابتكارا فأي اعتداد بالنفس اكبر من هذا القول .

انى وان كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطعه الاوائل

ان هذا الشعور القوي يصحب شاعرنا في جميع تطورات حياته. من اجل ذلك يصعب علينا ان نعرف له مذهبا خاصا فان قلنا عنه انه ملحد لا يؤمن كذبتنا رسائله واشعاره وان قلنا عنه انه مؤمن محافظ وجدنا ما يناقض ذلك ، وان قلنا عنه انه ابيقوري النزعة كما حاول ليثبت ذلك بعض من اشتغل في أدبه سنين عديدة نجد له تصريحات لا تتفق مع هذه النزعة ابدا ، كذلك لو أدعينا انه متأثر بمنهج الفلسفة اليونانية القديمة وقدرنا اثبات ذلك ببعض أقواله نجد له أقوالا اخرى يبتعد فيها

عن الفلسفة اليونانية بعد الارض عن السماء • اننا لنجد فيه نزعة بوذية قوية كما حاولت برهان تلك في موضوع سبق (بين بوذا وابي العلاء) وذلك لتشائمهما وامتناعهما عن أكل اللحم وحبه التساوي بين البشر ، وتقدهما عقائد من سبق ومشاهدتهما غلبة الشر على الخير وانكارهما الزواج والنسل ، بيد ان مذهب ابي العلاء لا يطابق مذهب بوذا تمام المطابقة ، ففي البوذية الحقيقية عدم اقرار بالله وعدم اعتقاد بالبعث ، والمعري كما بينا في رسالتنا في موضوع تطوره يؤمن بذلك ، فالحكمة العلائية هي مزيج من العقل والتشاؤم والايمان فله اذن مذهب قائم بنفسه وان اجتاز مراحل في تطوره ولكنه في زعمنا قد استقر على شكل مخصوص • ان فرط الشعور في الشخصية هو الاصل في العبقرية التي تشتق منها كل الصفات • وأول فرع من فروعها الصدق ، حدد كارليل في كتابه الابطال ان اول صفة من صفات البطل البحث عن الحقيقة ، والمعري هو باحث عن الحقيقة بصورة هائلة يعرف ذلك كل من درسه دراسة جدية فهنا نجده في مصاف الفلاسفة وكبار الحكماء • نعم قد يلجأ للتقية ليحفظ نفسه ولكنه كان لا ينكر نفسه امام نفسه ، انه يرمز ويلغز ويتكلم بالمجاز ولكن الحقيقة التي وصل اليها يضن عليها من الازدراء والتهاون • قد لا يلبث على مبدأ ولربما رأى من اشتغل في أدبه ذلك نقصا كبيرا فيه ومع ذلك فهو صادق نحو نفسه والا فكيف يمكنه ان يستقر بمعتقده ولم يقم على ايمانه البرهان العقلي والقناعة القلبية ، اذن هو لا يموه على نفسه لكي يتمكن شق طريق جديد • فهو بعيد عن روح التقليد ، صفة السائمة من البشر كما عبر عن ذلك نيتشه ، او كالذين يأخذون الخبر من المخبر ولا يميزون الصدق من الكذب لدى المعبر (كما ذكر ذلك المعري نفسه في رسالة الغفران) • فشاعرنا نقاد للاخبار بصورة هائلة وهل دواوينه ورسائله الا نقد ما سمعه من الاخبار ، هو يناقش الحساب مع جميع المذاهب ، وبزعمي ان المعري ليس مهدما فقط بل بناء ايضا ، ولكن من الصعب علينا وضع ذلك البناء الفكري ضمن قاعدة رياضية كما كنت بينت ذلك اثناء مقارنتي له بالفيلسوف (كانت) فشمس النقد كانت ساطعة في نفسه وهي لا بد منها لمن يريد ان يشق طريقا جديدا ، وهل يمكن شق هذا الطريق دون هدم الطرقات القديمة المضللة المنبسطة فوق الارض ؟

العبقري الحق يمجد العبقرية والنبوغ من حيث هما ، سواء اتيح له ذلك او لم يتح فهو يريد نشر العلم والمعارف ليساعد على التقدم البشري جهد المستطاع • واذا دققنا حياة ابي العلاء الفكرية وجدنا سواء كان تلميذا او استاذا مقرا بالاولى بفضل غيره ، ففي رسالة الغفران اقرار عظيم بفضل الادباء الذين تقدمــوه وان تقدهم تقدا حرا او سعى في تبيان المنتحل من شعرهم الاصلي فهو بذلك يود ابراز مواهبهم وما ابدعوه من البلاغة الادبية وفي الثانية كاستاذ كان يود نشر علمه على الناس بنية خالصة لوجه العلم ، يحدثنا عن ذلك جميع الذين دونوا لنا سيرتـه ، فالمعري اذن بعيد عن حصر العلوم بذاته ، والعبقري الحق يود عدم احتكار العلم والمعارف لانه يعلم أنها ملك للعالم أجمع •

من صفات العبقرية الشذوذ وهذه الصفة هي ايضا مــن مشتقات الشعــور بالشخصية حتى ان هناك من يرى وجها للتشابه بين العبقرية والجنون بل اختلط على بعض المفكرين هذا المفهومان • كان المعري شاذا في كل شيء شاذا في وحدته وعزلته عن الناس شاذا في طعامه ولباسه شاذا في اقواله ، تدلنا على ذلك رسـالة الغفران أولا فهي وان تقدمتها قصص المعراج وغيرها ، فقد تقدمتها في الموضــوع فقط ولكن في التهكم اللاذع والنقد المر فتكاد تكون شاذة لا يشبهها شيء قبلها• هذا الشذوذ تجده ايضا في لزوم ما لا يلزم حتى ان العنوان فقط ليدل على الشواذ وكذلك الامر في الفصول والغايات فليست المعاني التي يأتينا بها جديدة بل تواقيع الالفاظ التي يجد فيها بعض الاخصائيين نغمة موسيقية خاصة ، فهو ليس كالحكماء الذين يهمهم المعنى ولا يأبهون للالفاظ ، بل يريد ان يضم الى بلاغة المعنى انسجام اللفظ وان تغالى في بعض الاحيان حتى أصبح متكلفا ، فهو اذن يجمع الى عقـل الحكيم طموح الشاعر ونغمته الموسيقية ، ففي شعره ونثره كثير من عبث الالفاظ لأن الفن عنده ما كان عن طريق الاذن فتواقيع الالفاظ عنده اشبه بتواقيع الالحان في فن الغناء ، ومع ذلك تجد له بعض صور قليلة كقوله في رسالة الغفران في وصفه للجنة (وكم على تلك الانهار من آنية من زبرجد محفور وياقوت على خلق الفور من أصفر وأحمر وأزرق يخال ان لمس أحرق) وقد يأخذ بنا العجب كيف آلـف المعري بين عماه وبين هذه الالوان ؟ فالصفار مع الحمرة بأرضية زرقاء ترمز طبعا

الى النار فهل استمد المعري هذه الصورة عن طريق الأذن ثم آلف بين الالوان أم سمعها مـن غيره وقلـد ما سمعه ؟

وصورة اخرى تجدها في الفصول والغايات : (يا مـن سبح له زرقة الافق وزرقة الماء وحمرة الفجر وحمرة شفق الغروب) .

هذه الصورة لا تنبؤنا عن نبوغ في الوصف كالصورة الاولى ، نعم انه ليسترعي نظرنا ذكر الزرقة والحمرة المتباينتين ولكن الالوان الاخرى التي بينهما فلا ذكر لها ، كذلك خفي على أبي العلاء انعكاس حمرة الفجر والغروب على زرقة الماء وما تحدثه مـن تلاعب الالوان واضاءة الشفق للسماء وما يحدثه من تدرج في التلوين!

قلنا ان العبقري طموح في التحلق الى اجواء لم يصلها غيره ، ولكن هـذا التحليق لا يمكن ان يأتي فجأة فلا بد من مقدمات لذلك ، وهذه المقدمات هي في الحصول على ثقافة العصر ، فحب طلب العلم وتحمل المشاق والجد في طلب العلى من صفات العباقرة ، لان الابتكار لا يحصل من لا شيء ، كذلك البناء لا يبنى دون احجار . وهنا في زعمي محك الانسان ، فيمـا اذا كان مدعيا عنيدا مكابرا يمشي على قاعدة خالف تعرف ، يبغي طلاء براقا خداعا لا يحوي جوهر الذهب الاصلي او كان يبغي المجد حقيقة ، فان كان من المدعين اكتفى بالتمويه على نفسه وازدرى معلومات غيره ، اما اذا كان يبغي ايجاد شيء يعجز عنه غيره فلا بد لـه اولا ان يعرف ما يعرفه غيره من أجل ذلك فاننا نجد في أبي العلاء نفسا طلعة جابت الآفاق وذهبت الى بغداد ارض مناهل العلم في ذلك العصر وامضت الساعـات الطوال في المطالعة في دور الكتب العامرة هناك .

العبقري الحق رغم طموحه العظيم متواضع لان الحقيقة رائدته فشعـوره بشخصيته يضطره معرفة مواضع النقص في نفسه ساعيا بها الى الكمال ، فلا بـد له ان يقر بعجزه ويعلم انه لا يصل الى ذلك الهدف الاسمى الذي رسمه . ومـن كان كذلك كان متواضعا حقا ،والمعري كان يضم الى طموحه الجبار تواضعا هائلا تكاد تشعر به في جميع ما كتب . ولا بد للعبقرية من ان تحوي هذين النقيضين ، فحكيمنا عزيز في نفسه الى اقصى حدود العز ، ومع ذلك متواضع الى اقصـى حدود التواضع . ولقد ضرب لنا اكبر المثل على الصبر والاناة في سجنه لنفسـه مقدار نصف قرن ، وان في تحمله مشاق السفر وامتناعه عن اكل اللحم وزهده في

كنب عنه انه خرج عن الحياة لآيات لأولي الابصار ، ولم تسمع من جميع من شتموه وناوؤه العداء ، تعلم اتزانه العقلي الحكيم ، وقد اظهر الهدوء تجاه الذين هو غريب في هذه الحياة ومع ذلك من مواقفه في بغداد دفاعا عن الشاعر المتنبي • ذلك فالحلم في اخلاقه ومعاملاته للناس غالب عليه من الغضب والطيش والحماقة•

في العبقرية فاجعة مؤلمة وكيف لا يكون ذلك فالشعور بالشخصية يدع المرء وحيدا في هذا الكون ، فاذا اختلط ذلك العبقري مع الناس فيكون اختلاطه جسما لا روحا ، جسمه مع الناس اما روحه فتحلق في اجواء غير اجوائهم هو يبغي الحقيقة وهم يريدون التمويه ، هو يريد العلم وهم يريدون الجهل ، هو يريد محاسبة النفس حسابا عسيرا وهم يودون محاسبة انفسهم حسابا يسيرا ومحاسبة غيرهم بصورة عسيرة ، هو يريد تآخي البشر واجدا تلك الحوائل الموضوعة ما هي الا لجذب الناس الى الرؤساء ، وهم يبغون ان تشيع الفاحشة ، يهمسون بالخير ويقيمون للسوآت منبرا ، ينكرون بعضهم بعضا والانسان عدو ما جهل ، وشخصية كأبي العلاء لا تجد اي حائل يفصل بين البشر في مآساتهم وشقائهم وسعادتهم وهم يجدون حوائل عديدة ما هي في الحقيقة الا اسماء سموها ما انزل الله بها من سلطان •

اي صفة من هذه الصفات لم تكن عند ابي العلاء ؟ ان نبوغه جعله يجد العالم عالما حزينا وكئيبا ، وعماه ومصابه في والدته زادت آلامه ولكن تلك الآلام هي في الحقيقة في قرارة نفسه قبل ان تفجرها الاحزان ، فحياته هي سلسلة مآس ، وأي مأساة اعظم من السجن المؤبد الذي حكم به على نفسه ؟ فعل ذلك لا لشيء سوى بغية الابتعاد عن الناس ، ومع ذلك فالناس لم يتركوه وشأنه بل اخذوا يقتبسون من علمه وفضله وازعجوه في سجنه فزادوا فاجعته فاجعة جديدة ، لقد فضل الوحدة على جليس السوء كما قال هو نفسه في الفصول والغايات ولكن الجليس الذي هرب منه قد جاءه واراد الالتصاق به فلم يتركه وشأنه بل حسده على فضله وتقول على لسانه شتى الاقاويل بل سعى في هلاكه متهما اياه بالكفر (وربك اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين) •

فعل الجليس ذلك لا لذنب اقترفه المعري غير الحب لبني الانسان • نعم انكر شاعرنا الوجود وانكر النسل ، وما انكاره الا عن حب ، فالحياة في نظره ألم

متواصل والحزن في ساعة الموت اضعاف سرور في ساعة الميلاد ، حتى ان الحياة نفسها ألم ، وهو ينتظر اليوم الذي يودعها بفارغ الصبر ، فكيف يريد ان يتمنى هذه الآلام لغيره ؟ اذا تهكم على البشرية فما نقده وتهكمه الا كنقد والـد لولده، رآه يسلك طريقا غير مستقيمة فاراد ان يسلك طريقا آخر مستقيمة فالناقد الحقيقي كأبي العلاء غير متغرض بل يصدر نقده عن عقل وروية حسب قناعته . وبماذا اراد البشر مجازاته ؟ ارادوا ان يجازوه بكل شر مع انه ان هجا لا يهجو هجاء شخصيا فان فعل ذلك فقد فعله بنفسه فقط .

وماذا يبتغي الجلساء عندي ... ارادوا منطقي واردت صمتي

او :

دعيت ابا العلاء وذاك مين ... ولكن الصحيح ابو النزول

كلاب تغادت او تعاوت لجيفة ... واحسبني اصبحت الأمها كلبا

وسواء اكان المعري على حق ام على باطل . أأقررناه على بعض ما جاء به او رفضنا اقواله كلها او بعضها ، فهو قد جرب لنفسه طريقا للخلاص اعتمادا على قناعته القلبية ، وان تأثر بغيره او سمع آراء غيره ، ولكن كما يعلم كل من اشتغل في آثاره انه لم يأخذ شيئا على علاته دون ان يحكم فيه فكره او يرسل عليه شعاعا من نقده .

يتجلى لنا المعري غريبا في نزعته وادبه واسلوبه وفي تعبيره ايضا عن شعوره في شخصيته ، فهو لم يأخذ افكارا غريبة الا بعد ان هضمها في معدته العربية ومع ذلك فقد بقي انسانيا عالميا كما بينت ذلك في مقالي عن رسالة المعري الى الجيل الحاضر . فهو كباقي الرجال غير المنسيين في العالم مثل غوته وشكسبير وتاغور وهوغو وتولستوي وغيرهم ، فيهم مسحة قومية ظاهره وانسجام مع العالم ، فالعبقري اشبه بآلة العزف في جوقة موسيقية كبيرة ، هذه الآلة مستقلة في تكوينها وانبعاث انغامها وفي كل ما تهديه من ذاتها من سحر فريد ، ومع ذلك فرغم شخصيتها الفذة واستقلالها ونغمها الخاص بها الذي نسمعه من بين انغام باقي الآلات العديدة فهي بتناسق تام ووحدة مؤتلفه مع غيرها وانسجام غنائي عام .

يعيب على ابي العلاء بعض المشتغلين في تاريخ الادب امثال شوقي ضيف (١) تعقيده دون تبيان القيم البديعة الرابضة وراء هذا التعقيد ، وعلى رأي الناقد ان هذا التعقيد اتاحه له فراغه الطويل الذي امضاه في عزلته وضيقه بالحياة وبرمها بها . ونحن نرى ان هذا التعقيد لم يأت عن مشقة وان ظهر فيه بعض التكلف ، بل كثيرا ما كان عفويا لسيطرته على مفردات اللغة سيطرة عظيمة بصورة يكاد يتدفق هذا الكلام الغريب من فمه تدفقا . وان كانت هذه الطريقة غير مرغوب بها في زماننا ، ولكن يجب علينا فهم ابي العلاء كما هو ، لا ان نفرض عليه ان يكون مفهوما . ولعل هذه الطريقة اللغوية المستعصية كونت له درعا واقيا وجعلته غير سهل المنال من كل انسان ، فلا يمكن الوصول اليه الا بشق الانفس . وهو ليس فنانا للمعنى فقط ، بل (كما بينا) للفظ ايضا . وينطبق عليه في الحقيقة قول نيتشه في اغنية الرقص من كتابه هكذا تكلم زردشت : « نعم اني غابة دكناء وليل من اشجار مظلمة ، ولكن الذي لا يجفل من ظلامي سوف يجد الورود النضرة تحت اشجار سروي » . حتى ان ما يعده شوقي ضيف من تعقيد شاعرنا الحكيم « وكم على تلك الانهار من آنية ... » ويجد انه يكفي لذلك قول الصنوبري :

تخيله ساطعا وهجه فتأبى الدنو من وهجه

وجدنا فيه (كما بينا) صورة رائعة تعجبنا من هذا الرسم البديع لهذا الشاعر وهو اعمى ، فوراء كل هذه الطلاسم والالغاز نفس بحاثة عن الحقيقة ومحررة للفكر البشري وفنانة ايضا .

على ذلك كله فالمعري عبقري من العباقرة العظام الخالدة ، ومتى اتيح لنا كشف جميع مكنونات نفسه كماهي وفهمها فهما جيدا وفهم جميع ما تتطلبه شخصيته، حالين الالغاز التي وصفها ، منتقلين من المجاز الى الحقيقة ، لا شك سوف تضيف الى عباقرة العالم عبقريا فذا تستفيد من اشعة فكره جميع احرار الفكر في كل عصر ومصر .

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٦٩ وما بعدها .

رسالة المعري الى الجيل الحاضر

يتبارى كثير من الكتاب في تمجيد ابي العلاء ، سواء كان ذلك عن قناعة قلبية او عن غير قناعة قلبية ، فيتصدى الى تلك الشخصية ايضا من هو غير جدير ان يحدثنا عنه ، فينمق العبارات ويسكرنا بالفاظه ، وقسم عظيم من افراد امتنا ويا للأسف يثمل بالكلمات دون ان يتفقه معناها ، ودون ان يدرك ماذا تخفيه من الاهداف . وفريق آخر ممن جهل ابا العلاء ، يتساءل بينه وبين نفسه ، لم هذه الضوضاء وهذا العجيج وهذا الصراخ المتواصل ، فماذا يعنينا من ابي العلاء ؟ كان ذكيا ، وماذا نستفيد اليوم من ذكائه ؟ لقد مضى عليه عشرة قرون والعالم خطا في هذه المدة خطوات واسعة الى الامام ، ما هذه الرجعية ؟ وما معنى هذه النظرة الى الوراء ؟ وهناك افراد قليلون درسوا ابا العلاء ، فلم يجدوا فيه عبقرية فذة ، وهؤلاء يهزأون في سرهم من هذه المهرجانات التي تقام له ، مدعين ان ابا العلاء لا يمثل الفكر العربي الصحيح . ومهما يكن خطأ هؤلاء المفكرين عظيما ، فهم لا يستريحون الى رشوة الضمير ، وخداع النفس من جراء هذه النزعة الحاضرة بين الادباء ، ومن هذا التيار القوي في كيل المدائح دون الشعور بالتبعة الاخلاقية والمسؤولية العلمية .

اذا اردنا ان نسأل انفسنا بصورة حرة وغير مقيدة ، ودون ان يؤثر علينا تيار من التيارات ، ما هي رسالة ابي العلاء الى جيلنا الحاضر ؟ فماذا يكون الجواب يا ترى ؟ ان لم يحمل الينا رسالة الى الزمن الحاضر ، فما معنى هذا التكريم الزائد ؟ وان كان من الحاملين ، فما هي يا ترى تلك الرسالة العظيمة التي لا تزال حديثة رغم مضي عشرة قرون عليها ؟ انه لمن الصعب جدا التحدث عن تلك الرسالة ، لان آراء ابي العلاء مختلطة بعضها ببعض ، فمن الصعب علينا تفريقها ، حتى اننا نجد فيها كثيرا من التناقض ، فما يقره في هذه الساعة قد ينقده بعد قليل . ولا نبالغ اذا قلنا ان هناك بعض الاراء لا توافقنا في زماننا الحاضر بل تكون حجر عثرة في سبيل التقدم والرقي . وفي الحقيقة اننا لا يمكننا

الاستفادة من نبغائنا الا اذا سمحنا لانفسنا معرفة افكارهم على جلتهما دون محابات او تأويل بعيد ، ولا يمنعنا ايضا تقديرنا لهم التقدير التام من رفض بعض اقوالهم لعدم ملائمتها لعصرنا الحاضر ، اذا علمنا مثل هذا الحساب تستفيد من سلفنا الصالح استفادة طيبة ، ولكننا اذا تمسكنا بهم دون محاكمة وروية نخبط خبط عشواء دون ان نعلم المفيد من الضار •

على ضوء هذه الفكرة نجد في ابي العلاء بعض امور لا توافقنا ولا تصلح لان تكون سندا لنا في المضي في نهضتنا الحاضرة ، كما اننا نجد فيه امورا اخرى تكون لنا اكبر عون في كسبنا قصب السبق في مباراة الامم الحية • فمن الواجب علينا اذن معرفة ما يجب علينا رفضه ، وما يجب علينا ان نعض عليه بالنواجذ لتسيير سفينتنا الحاضرة • ورسالة حكيم المعرة لجيلنا الحاضر تكون اذن في هذا الشق الثاني •

ان الامور التي نرفضها من حياة ابي العلاء هي التشاؤم ، وقد دلت تجارب النفسيين ان من ينظر الى الامور نظرة حزينة كئيبة نظرة ابي العلاء ، لا يمكنه ان ينجح في معترك الحياة ، فالحياة الحاضرة بقساوتها الشديدة تتطلب منا نظرة تفاؤل ، ينتعش بها الفؤاد وتقوى العزائم • تلك النظرة التي ترينا كل ما حولنا بسرور زائد • كيف نصل الى هذه النظرة ؟ وما هي حدودها ؟ ذلك ما لا نبتغي الولوج فيه في هذه العجالة •

من التشاؤم ينتج الزهد في الحياة ، والمعري كان زاهدا الى اقصى حدود الزهد ، فالغلو فيه لا يصلح لجيلنا الحاضر ، فاذا مجدنا الزهد ودعونا ناشئتنا لتقديسه ، نكون بذلك قد ابعدناهم عن تهيئة الاسباب لاقتحام صعوبات الحياة• فاذا زهدنا تركنا مرافق الحياة وكنوزها لغيرنا فكنا بذلك من الخاسرين • اذن يجب ان نحذر انفسنا وانفس ناشئتنا من زهد ابي العلاء •

ابو العلاء ينكر المرأة ، ولا يريد ان يقيم لها وزنا ، فانكر الزواج الذي يؤدي الى النسل ، فاذا اقررناه في رأيه حكمنا على الانسانية بالفناء ، وعذبناها عذابا اليما ، ولا يصلح البشر الا بالتعاون بين جنسيه ، فلا سعادة للنساء دون الرجال ، وكذلك لا سعادة للرجال من دون النساء ابدا • فاذا اردنا ان تكون امة قوية الشكيمة صحيحة الجسم والعقل ، كثيرة العدد ،

لا يمكننا ذلك جريا على رأي ابي العلاء في المرأة ، بل بالتعاون بين الرجال والنساء . اما انكاره تعليم المرأة وان كان يثور على التعليم السطحي واتخاذ مثل هذا التعليم للتضليل ، فانا لا نقره ايضا .

هذه الامور باعتقادنا هي التي يجب علينا ان تتجنبها من حياة ابي العلاء ، ويلزم علينا ان نضيف عليها اللغة المتكلفة التي كانت صالحة في القرن الرابع الهجري ، وغير صالحة في القرن الرابع عشر ، الذي يتطلب السرعة ، ونشر الثقافة على اكبر عدد من الناس مع توخي البساطة في الالفاظ ما استطعنا الى ذلك سبيلا. وهذا التكلف هو الذي جعل مذهب ابي العلاء مغلقا على كثيرين من المفكرين ذوي الضمائر الحرة .

رغم كل هذه المساويء التي يجب علينا ان تتجنبها فان هناك محاسن في حياة شاعرنا الفذ التي يجب علينا ان نحييها في ضمائرنا لنحيا حياة حرة سعيدة . فللمعري رسالة يؤديها الينا ، بل يؤديها الى الاجيال ، لا يقضي عليها كر الغداة ومر العشي . ان تجنبنا تلك المساويء التي تضر بنا ولا تنفعنا ، وعلمنا نواحي القوة في هذا الشاعر ، ادركنا في الحقيقة خطورة رسالته . اول ما يلوح امامنا في حياة شاعرنا حرية الفكر فهو لا يتقيد بشيء ، حر في آرائه ومعتقده ، حر في الاخذ عما ورثه او في رفضه ، واننا لنشعر في تلك الحرية الفكرية من مهد ابي العلاء الى لحده ، هذه الحرية الفكرية هي صالحة لجيلنا الحاضر ، واذا علمنا ان حرية الفكر يقرها العالم اجمع ويراها المفكرون الاحرار ان لا بد منها لتوطيد السلام العالمي ، ادركنا خطورة رسالة شاعرنا العظيم الى الجيل الحاضر .

ان حرية الفكر تتطلب صدق النفس ، فالمعري وان ابرم ثم نقض ما ابرم ولكنه كان صادقا نحو نفسه ، لم يكذبها قط ، ولم يغشها ويخدعها ولو اضطر ان يظهر نفسه امام الناس بغير ما يكنه الفؤاد ، واذا امعنا النظر في اقواله نجد انه وان كذب على الناس جميعا ولكنه لا يكذب نفسه ، فاذا رأيناه حينا من الدهر مترددا فما ذلك الا لبغيته ان يتحرى الحقيقة بنفسه دون ان يصدق ظاهرا وان يكون باطنا من المكذبين . اذا تحرينا جيلنا الحاضر وجدنا افراد كثيرة منهم ، يقولون ويصرخون ولكنهم في الحقيقة ليس لهم انفس حية ، بل هم ليسوا الا ابواقا

فارغة لغيرهم من الناس . ان انكار النفس هذا يحطم القابلية ، فيدك الشخصية دكـا ، فيتزلزل بذلك النبوغ ، فالمعري وان انكر العالم كله ، فهو لم يكن لينكر نفسه ، وكم نحن بحاجة الى رسول يبعث فينا رسالة اقرار النفس وعدم نكرانهـا لنأخذ مكانتنا اللائقة بنا بين محافل الشعوب .

نكبر في المعري همته في طلب العلم واسفاره من اجل ذلك ، وما قاساه في هذا السبيل ، فحياته في هذا الشأن واضحة جلية لا شك فيها . واية فائدة لنـــا في هذا الزمن الذي حرمنا فيه من العلوم اعظم من ان نجد ونشقى في طلب العلوم المفيدة لامتنا لنتلافى النقص الذي نحن فيه واقعون ؟ .

يظهر المعري لكثيرين من الناس مترددا ، ولكن تردده يختلف عن تردد غيره، فهو لم ينقض الا بعد قناعة نفسية ، بعيدا عن رشوة الضمير ، سواء كان ذلـك بالمال او بالجاه او بحب الشهرة او بغير ذلك من التوافه الدنيوية الزائلة . واذا اقر على امر فلـن يبعده شيء عن عزمه ، يدلنا على ذلك مكاتباته لتي حفظها لنا ياقوت مع داعي الدعاة الفاطمي الذي طلب ان يوضح له سبب اصراره عن امتناع آكل اللحم ، وقد عرض له جعلا خاصا ليقلع عن رأيه فلم يفعل ذلك . اتفق جميع المؤرخين على ان ابا العلاء كان له جاه عظيم عند الامراء والملوك ولكنه لم يستخدم هذا الجاه من اجل نفسه ، بل استخدمه مرة واحدة من اجل امته ، عندما طلـب منه ان يكون شفيعا عند صالح بن مرداس اثناء حصاره للمعرة .

ان لأبي العلاء مثلا في التعليم ، فهو يعلم دون اجرة ، بل كثيرا ما ينفق على طلابه رغم فقره واقتاره في الرزق ، فهو يحب نشر علمه . يحدثنا بذلك كثيرون من الطلاب الذين درسوا عليه وجابوا الآفاق لانتهال العلم والادب من معينه الذي لا ينضـب .

اما ايثار غيره عليه ، فقد تكلمنا عنه اثناء حديثنا عن صالح ، فلم يذهـب الى الامير من اجل نفسه وانما ذهب من اجل غيره ، وكم من اناس يفعلون عكس ما يفعله ابو العلاء فبدلا من قيامهم في مصلحة امتهم لا يودون القيام الا فـي مصالحهم الذاتية الخاصة .

نستفيد من ابي العلاء في اعتباره الفضيلة كواجب لا كلذة ، تلك الفكرة التي

دان بها الفيلسوف (كانت) ودعا اليها ، فحكيمنا سابق لذلك الفيلسوف كمـــا برهنت على ذلك في حينه ، وفي اعتبار الفضيلة كواجب لا كلذة اكبر رسالة الــى الشبــاب •

يعجبنا من ابي العلاء تحكيم العقل في كل الامور وتقديس جوهر الدين ونبذ قشوره ، وروح النقد الفذة ، التي ما سادت في امة الا ازالت عنها السخافــــات وترهات الامور ، وعلمتها التفريق بين الغث والسمين •

المعري بعيد عن الجمود الفكري بعدا عظيما يعرف ذلك كل من درسه دراسة جدية ، فاذا لم نستفد منه غير ذلك ذلك الجمود الذي وقع فيه كثير من ابناء امتنا ويا للاسف يكون قد ادى الينا خدمة من اعظم الخدمات •

اما انصافه وعدله وثورته على الظلم فهي منبثة في دواوينه ورسائله ، ومــا احرانا ان نتعقلها تعقلا جيدا • واظن انه لا يرفعنا شيء مثل تعمقنا في احساســه الرقيق ، وحبه للفن الذي يخفف كثيرا مــن مصائب الحياة •

واخيرا يظهر لنا المعري عربي النزعة وان تأثر بافكار غريبة فانه لم يتأثر بهــا الا بعد ان غربلها وجعلها قابلة للهضم للمعدة العربية ، لم يفعل كما فعل الكثيرون من اخذ كل شيء على علاته الى ان تصبح افكارهم كثوب يضم الف رقعة ، ورغم ذلك فلم يتخذ مــن وطنيته ذريعة لبغض العالم وسحقه بل بقي انسانيا •

هذهي رسالة ابي العلاء الشاعر العقلي والعاطفي في آن واحد الخالد علــى مدى الدهور •

المعرّي والذرّة

العلـم كالقفـل ، ان الفيتـه عسرا فخله ، ثم عاوده ليفتتحـا

هذه في الحقيقة فكرة الدأب والمثابرة التي شعر بها المعري والتي لا بد منها في البحث العلمي . عندما كنت اقوم بتدوين افكار المعري ومشاكله المعقدة ، كنت اشعر باني التقي مع شخصية فذة تقوي عزمي في سبيل الحياة الوعرة ، واني امام عملاق فكري عظيم ينفخ روح الانطلاق والتحرر الى اقصى حدوده ،فكنت اخوض معه كل ناحية من نواحي الفكر ، لكي تكون النفس مرآة صافية تنعكس فيها المشاهدات الكونية على حقيقتها وجليتها ، خالية من الصدأ الذي يمنع ارتسام الصور فيها بوضوح . ورغم عماه البصري ، ادرك بنور بصيرته بأننا لمعرفة ما حولنا يجب علينا ان نعتمد على عيوننا في رؤية الاشياء كما هي ، لا كما يراها غيرنا ، لان ذلك مبدأ السلطة وسيادة النقد والمناقشة هما من اهم الامور في البحث العلمي ، هذا عدا عن القلب الكبير الرحيم .

من اجل ذلك كنت اتجاوب مع ابي العلاء واشعر وانا اتحادث معه ، انني اتحادث مع انسان يفهمني وافهمه ، وأجد في ذلك متعة روحية تفوق الوصف . وقد سبق المعري ومهد لي الطريق لصداقة النباتيين في عالم الغرب . اذ نشرت في المجلة النباتية عن المعري النباتي العربي الكبير وصديق الانسان والحيوان .. (١) فلم يكتف هؤلاء النباتيون بتقديم كتاب لي عن كيمياء الصيدلة كهدية فقط ، بل كنت ضيفهم مدة اسبوعين وقاموا بمعالجتي عندما مرضت ايضا واظهروا لي كل حب وتقدير ، جزاءا وفاقا لتعريفي لهم بهذه الشخصية الفريدة . وقد وجدت ايضا تقديرا لنفس السبب من معامل هوكست HOECHST قرب فرانكفورت على نهر الماين المعدة للادوية والاصبغة والاسمدة من قبل السيد هرتس قسم الالياف الكيميائية ..

«١» مجلة النباتيين ، سونترا (المانيا) عدد) ، ١٩٥٥ (باللغة الالمانية) .

عندما انتهيت من دراسة المعري اثناء تأليف هذا الكتاب ، او بالاحرى عندما اوقفت هذه الدراسة ، لان الانسان لا يمكنه الانتهاء من دراسة (كما بينت ذلك في الخاتمة) ، شعرت بألم مرير بأني الآن سوف اتوقف عن الالتقاء بمثل هذه الشخصية ، وقلت في نفسي : « وداعا يا ابا العلاء !! » ، ولكن وداعا يحمل امل اللقاء . واني الآن سوف ابين ما هو رأيي من اجل ان يكون عندنا علماء متحررون في العلوم العصرية ، وعلم الذرة من جملتها ، وذلك بلزوم فهم شخصية كشخصية ابي العلاء ، وان بدا لاول وهلة بعد الشقة بين مثل هذه العلوم العصرية وحكيمنا الملهم .

سألني احد المخبرين الصحفيين : هل في الامكان وجود متخصصين في الذرة عندنا ؟ فأجبته انه في الامكان ذلك على شرط الدأب والعمل المتواصل في حقول العلوم الطبيعية من الفيزياء والكيمياء ، على ان تقوم قبل كل شيء بالتحرر العقلي والقضاء على الجمود الفكري ، واقرار مبدأ التحري الذاتي والبحث الشخصي ، وبدون هذا المبدأ لا يمكن لنفوسنا ان تتهيء لفهم العلوم الطبيعية فهما جيدا . ومن الضروري فتح باب البحث والاستقصاء على مصراعيه لتسير في طريق الكشف والابداع اسوة بالامم الراقية في العالم . والمعري في نظري هو من كبار محرري الفكر البشري ، ونحن مع الاسف (كما بينت في الخاتمة ايضا) في البداية من دراسة هذا العبقري العربي ، ولسنا في النهاية . واذا ما سرنا في طريق الانطلاق العقلي والفهم الذاتي لحوادث الطبيعة غير المقيدة بمبدأ السلطة امكننا الوصول الى فهم عالم الذرة العجيب الذي خطا فيه العالم الغربي خطوة جبارة فاقت حد الخيال ، واطلقت المارد الكامن في ذلك العالم الصغير من عقاله فأتى بأعجوبة العجائب . ونحن لا نقول نحبو حبوا ، فاذا قلنا ذلك نكون قد موهنا على انفسنا وافترينا على الواقع . واذا كنا منصفين حقا ، فيمكننا القول بأننا لم نلد بعد لمثل هذه الحوادث الطبيعة هاضمين لخبرة غيرنا ومضيفين عليها خبرتنا الذاتية والتفهم الشخصي متكاتفين متعاونين ، باذلين في هذا السبيل كل غال ونفيس ، جادين في سيرنا مبتعدين عن الهزل والتهريج ، امكننا الوصول الى القمة في البحث يوما ما ، وبالجد المتواصل يمكننا حيازة قصب السبق في العالم :

ومدمن القرع للابواب ان يلجا .

حتى اذا وافينا هذا الحد من التقدم ، فالخطر جاسم امامنا لان نكون جبابرة غير رحماء ببني البشر ، فيكون بذلك علمنا وتقدمنا ليس بنافع بل فيه اكبر الضرر على الانسانية جمعاء ، كما رأينا مثل هذه الحوادث المروعة والمؤلمة في القنبلتين الذريتين اللتين اطلقتا على هيروشيما وناغازاكي في اليابان • وقد خطا العالم منذ ذلك الوقت الى اليوم خطوات جبارة نحو الخراب والدمار • ولا تزال التجارب النووية تطغى على الكون كله وتؤثر على صحة البشر بصورة بطيئة تأثيرا سيئا • ويعزي انتشار السرطان عن طريق الغبار الذري من هذه التجارب ايضا • وان الخطر الجزئي للتجارب المذكورة بمنعها في البر والبحر وحصرها في باطن الارض بسبب تقرير المعهد الجيولوجي في طوكيو (اليابان) بسبب الهزات الارضية العنيفة والزلازل المخيفة • ولا يبعد ان تكون الزلازل التي حدثت في كل من ايران ويوغوسلافيا واليابان والولايات المتحدة وغيرها من البلدان من جراء التجارب في باطن الارض • وهنا يمكننا اتخاذ المعري امامنا ايضا في الرحمة الانسانية والابتعاد عن الفتك في البشرية • فاذا كان المعري لا يرضى اتخاذ لحوم الحيوانات غذاء له تجنبا لايلامها ، فهو ولا شك لا يرضى ايضا بايلام البشر من جراء التجارب النووية او اللجوء الى القنبلة النووية للسيطرة السياسية • استنكر المعري القنابل الماضية :

حسان ، في الملك لا يحس لها   تزجي الى موتها قنابلها

(التفسير : حسان هنا هو ابن تبان من ملوك التبابعة ، والقنابل طائفة من الخيل) •

فما باله يقول في القنابل الحاضرة ؟

اذا كان امثال هذه الاعمال تنكرها جميع المؤمنين بمبادىء سامية في العالم من انبياء او حكماء وائمة دين ومفكرين انسانيين ، فالمعري ولا شك في طليعتهم حيث يحق له ان يجد اذنا صاغية من جميع المنورين في العالم لعدم انتمائه الى مذهب خاص ولتحرره لأقصى حدود التحرر ، فينتقد ما يجده جديرا بالنقد ويقر حسب قناعة ضميره ما يجب تقريره ، فهو لا ينقاد الى أي مبدأ من المبادىء انقيادا اعمى ، فالتحرر رائده ، والقناعة الضميرية قائده ، والاذعان للحق دليله ، والنقد النزيه غايته ، والخير العام مرشده ، والحقيقة الناصعة هدايته • وعلى ذلك يكون

المعري الدافع لدراسة العلوم من جهة الكشف والابداع والسير الى الامام ، ومحطم لكل قيد يقف في سبيل التقدم والرقي • ومع ذلك فهو كابح الجماح عندما يصبح العلم ضررا على البشريه وآفة فتاكة يودى بها ، فالمعري اذن دليلنا وقائدنا في الايجاب والسلب • ومن الضروري لنهضتنا الفكرية والعلمية فهم هذه العبقرية فهما جيدا لتكون لنا منارا نهتدي به في الظلمات •

لا اود الادعاء بان كل ما جاء به المعري كان حقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلقد اخطأ في بعض تصريحاته ، فمثلا انكر المعري تأثير القمر في المد والجزر (كما مر معنا) ، وانكر ايضا الكيمياء اي انقلاب العناصر وهي على زعمه كما جاء في اللزوميات كالصديق الوفي واحكام النجوم وتفسير المنامات اي من الخرافات ، في الوقت الذي اصبح اليوم انقلاب العناصر حقيقة لا شك فيها • ولكن حسب العقلية القديمة والوسائل البسيطة التي كانت متبعة في عهد المعري ، فقد كانت من المستحيلة • وليست قيمة هذا الحكيم بما اوتي من آراء صائبة او خاطئة في جزئيات الامور بالقياس الى العصر الحاضر ، بل بالروح التحررية التي يحملها ، فان انكاره للمد والجزر بتأثير القمر هو حسب تصوره العقلي ، وكذلك في انقلاب العناصر • ويمكننا انتقاده ايضا في جميع مجرى حياته وعاداته وتقشفه وزهده وابتعاده عن المرأة وغير ذلك • فان مذهب النقد الذي دان له لا ينطبق على غيره فقط ونصونه منه ، بل ان هذا المذهب ينطبق على غيره وعليه ايضا • وهذا ما يتطلبه هو نفسه ، ومع ذلك فاننا نجله في الامور الجوهرية وبسنحاه المنطلق •

من اجل التحرر الذاتي لا بد لنا من الاستشهاد بنيتشه ، اذ يقول هذا لاتباعه على لسان زردشت : « انكم تكرمونني ، ولكن ماذا يحدث اذا تدهور هذا التكريم ؟ احترسوا من الاصطدام يوما ما بعمود تمثال يودي بحياتكم (اي ان تكونوا عبدة اصنام تعبدون ما لا تعقلون) • انكم تقولون انكم تؤمنون بزردشت ! ولكن ماذا يفيد زردشت ايمانكم او انكم من اتباعه ، وما قيمة جميع المؤمنين ؟ انكم لم تبحثوا عن انفسكم بعد ، فكيف وجدتموني ؟ وهكذا شأن جميع المؤمنين ، لذلك لا قيمة لمثل هذا الايمان • الآن اطلب منكم ان تضيعوني وتجدون انفسكم ، وعندما تنكرونني سألتقي بكم ولا اعود اليكم ثانية الا عند

ذلك ، وعند ذلك يا اخواني سوف ابحث عن الذين اضعتهم بغير العين الماضية ، وسأحبكم بغير الحب الماضي، وستكونون في يوم ما اصدقاء واولاد الأمل ، وسآتي اليكم للمرة الثالثة ، وسأكون عندكم واحتفل معكم بالظهيرة الكبرى ». هنا الاشارة الى ذلك مبدأ السلطة على جليته ، واذا قدرنا احدا فانما تقدره عن فكر وروية وقناعة قلبية ، فنكتشف ذاتنا قبل اكتشاف غيرنا ، والا كان ايماننا بغيرنا كالحبل الذي يجر السائمة دون ارادة ووعي .

يكره المعري التقليد الاعمى ، وقد ذكر هجومه على التقليد في رسالة الغفران كيف ان البشر يأخذون الخبر عن المخبر ، لا يميزون الصدق من الكذب لدى المعبر ، والهداية لا تكون الا بطريق العقل والخبرة الذاتية . وقد سبق وبينا ذلك في فصل ابي العلاء المفكر الحر .

ان المبدأين العظيمين من التحرر والانسانية ، هما ضروريان في جميع مراحل التحرر العلمي ، والتحرر لا بد منه خاصة في المرحلة الاولى من فهم الطبيعة . حتى اذا لم تقم في عمل الخطوة الاولى ، فلا يمكننا متابعة السير ، فاقرارنا بعظمة المعري ، لانه يمكن ان يكون الدافع لنا في الخطوة الاولى .

طبعا انه ليس من الضروري تقديس شخص معين . لان هذا التقديس مخالف لمبدأ التحرر والانعتاق وعدم الخضوع الاعمى . من الضروري اذن الارتكاز على مبدأين : التحرر الفكري والرحمة والرأفة لا لأجل الانسان فحسب، بل لكل كائن حي . وسيان عندنا ان اخذنا هذين المبدأين من المعري ام من انسان آخر ، فاننا لا تتعصب للمعري ولا تتعصب ضده ، فأي شخص قادنا الى الحق فهو قائدنا وامامنا ، فالمهم المبدأ لا الشخص . واذا كنا نجل شخصا من الاشخاص فاننا نفعل ذلك لا لشخصه ، بل للمطلب السامي الذي يحمله . ودون مبدأي الحرية والرحمة اللذين كان يدين بهما المعري ، فعبث كل بحث علمي ، فاهمال الاول لا يوصل الى الهدف والثاني يهدم كيان البشرية بدلا من ان يعود عليها بالخير والبركة .

الخاتمة

من كل ما بيناه نستنتج ان المعري قد كان على اتصال وثيق في العالم ، سواء كان ذلك في عالم الطبيعة التي قدمنا دراستها في هذه الرسالة عن المعارف عنده ، او كان ذلك في العالم العلوي من كواكب وافلاك او في العالم لسفلي من انسان وحيوان ونبات وجماد كالمعادن والاحجار والاراضي والاتربة والانواء المختلفة . او معلومات قرأ بعضها في بطون الكتب وبعض منها سمعها من أفواه الناس بالتواتر الشفهي جيلا بعد جيل . تعرض المعري ايضا لبعض المشاكل الطبية، ولكنه لا ضمن الطريقة المدرسية المعهودة التي انتقلت من الطب اليوناني عن طريق جند يشابور وبغداد الى الحضارة العربية ، بل هو طب وان تأثر ايضا بالطب الهندي أشبه بالطب الشعبي المتداول وغير المدون التدوين الكافي ، كما اتضح لنا ذلك في باقي معارفه الطبيعية . ان ما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد ما ذكره المعري عن الحارث بن كلدة الطبيب العربي الشهير الذي نوهنا عنه بأنه اعتنى بالطب الروحاني ، هو وطبيبان آخران لا نعرف عنهما شيئا وهما ابنا علاج ، ولم اعثر في الكتب التي طالعتها عن تاريخ الطب مثل ابن أبي أصيبعة والملحق له وأمثال الكتب الاجنبية عن طبيبين عربيين يدعيان ابني علاج ؟ والظاهر ان حارث بن كلدة لم يكن على وفاق معهما . ومن أهم المصادر عن علم الحيوان كتاب الجاحظ الذي ذكرناه في حينه ، ونستغرب جد الاستغراب ان لا يذكر المعري عن الكندي ذلك العالم والفيلسوف العربي الذي احتفلت بغداد في عام ١٩٦٢ على مرور الف سنة على وفاته ، شيئا ، ومع ان الكندي عاصر الجاحظ وللاول بحث في الاحجار الكريمة ذات قيمة .

اما المعالجة الكيميائية التي نوهنا عنها ، فانها ليست واضحة تماما ، بل هي في حالة اشبه بالحالة التي تكون بين اليقظة والنوم . ونجدها واضحة في الرسائل التي نوه عنها مرجليوث كما ذكرنا في موضوع المعارف الطبيعية عند ابي العلاء .

اما المعري كمفكر حر ، وجدنا فيه تطورا فكريا خاصا يبتدىء بطفولة فكرية

خاصة وينتقل الى الحيرة والشك وينتهي بأيمان اصيل بالمطالب الغيبية العميقة . وهذا الايمان وان كان في بعض الاوقات يتوافق مع التراث ، ولكنه صادر عن تجربة نفسية عميقة واختبار ذاتي ، فهو بهذه الصورة بعيد عن التقليد الاعمى ، الآفة التي بليت بها البشرية ، فأوجدت حجابا كثيفا بين تفهم العالم الخارجي والفكر الانساني ، اخرت حركة التقدم الحضاري ، فالمعري من هذه الناحية محرر الفكر وعاتق العقل من قيوده التي تكبده ، واذا علمنا ان كثيرا من الذين يسمون انفسهم متعلمين ومنورين لا يزالون يرسفون تحت نير الخرافات والاساطير التي لا تتفق مع العقل السليم كالتنجيم واستخدام الجن وغير ذلك ووجدنا المعري يصرخ صرخته المدوية بضرورة التحرر من ربقة هذه القيود الثقيلة التي قيدت الفكر قرونا عديدة ، ولا تزال تقيدها ادركنا قيمة دراسة المعري ، فهو نقادة فذ . سبق النقادة الالماني « كانت » في نقده العقل والنقادة ابن خلدون الذي يقال ان « فيكو » قد تأثر منه ، في نقد المجتمع وكذلك العالم الافرنسي دركهايم وغيره من الناقدين . واذا اردنا ان نضع تاريخا لفن النقد والتهكم فيلزم ان لا يخلو المعري من مثل هذا التاريخ .

اتضح لدينا ايضا ان المعري عالم لغوي فذ ومؤرخ للادب من الطراز الممتاز، وقلما التفت احد الى هذه النواحي ، فيناقش ما عرفه المعري عن مفردات اللغة مناقشة علمية صحيحة وكذلك يقوم بدراسة الادباء الكثيرين الذين ذكرهم وتقابل معهم في الجنة في رسالة الغفران او ذكرهم في الفصول والغايات او في غير ذلك من الرسائل ، وبذلك حصل على ثمرات جمة نرى بعض نقاط غامضة كنا عنها غافلين . فمن هذه الناحية فنحن لسنا في النهاية في دراسة المعري (كما بينا) ، بل لا نزال في البدء ، ومن الضروري ان ينبري كثير من الادباء والمحققين على دراسة هذا المفكر الفذ . نعم ، قصر بصر المعري عن رؤية العالم الخارجي كما هو بأشكاله وألوانه المختلفة ، ولكنه ردد سمع وما قرأ وعرف استعمال عالم الشهادة من شكل ولون عند الضرورة وكأنه مبصر ، ولكن معرفة الاصوات تصل غايتها ، فهو من هذه الناحية موسيقار وجدير ان يدون هذا الحكيم العربي الكبير ضمن تاريخ الموسيقى العربية ، وقد تطرق بهذه المناسبة الى العروض وأوزان الشعر التي تتصل بالموسيقى اتصالا وثيقا .

في المقال الذي دبجه جرجي شاهين عطية في عدد المعري الخاص في الاديب ١٩٤٤ عن لغة المعري نقل لنا ما ذكره أبو زكريا البتريزي ، نجد من الضرورة نقله هنا لنعلم مدى طول باع هذا المفكر في اللغة :

« ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها ابو العلاء ، ثم استشهد على ذلك بأن جماعة ممن كانوا يقرأون عليه وأرادوا ان يختبروا علمه ويمتحنوا ثقته فوضعوا حروفا وألفوها كلمات ، ثم اضافوا اليها كلمات اخرى من غريب اللغة وسألوه عن جميع ذلك . فكان اذا مرت به كلمة مما وضعوها انكرها واستعادها مرارا ثم قال : دعوا هذه . واذا مرت به كلمة لغوية شرحها واستشهد عليها حتى اذا انتهوا اطرق مليا ثم رفع رأسه وقال : كأني بكم وقد وضعتم هذه الكلمات لتحفظوا بها معرفتي وثقة روايتي ، والله لئن لم تكشفوا لي الحال لافارقنكم — فقالوا : والله ان الامر كما قلت وما عدوت ما قصدناه . فقال : سبحان الله ، والله ما أقول الا ما قالت العرب والرائد لا يكذب اهله . ويتساءل صاحب المقال : لعل في هذه الرواية شيئا من المبالغة ، فيجيب على ذلك بأن كل ما وصل الينا من آثار ابي العلاء شواهد عديدة مقنعة تدل على تفوقه في استظهار الغريب من ألفاظ اللغة . ولكن مقالا او رسالة صغيرة لا تشفي الغليل بل من الضروري القيام بدراسة جدية مطولة تتبناها المعاهد والمجامع العلمية فيأتوننا بموسوعات عن معرفته اللغوية بمقارنتها مع باقي اللغويين الشهيرين .

بجانب المعرفة اللغوية التي نوهنا عنها والتي جلبت دقة نظر بعض الباحثين في تاريخ الادب العربي فهناك ايضا معرفة جمة بعادات العرب في حلهم وترحالهم وأمورهم المختلفة والتي على ما يظهر لم تجلب دقة النظر ، من الضروري ايضا جلاء الغوامض عنها بمقارنتها مع المعلومات الاخرى التي تواترت الينا . فالمعري من هذه الناحية عربي أصيل ، يحفظ امثال العرب وقصصهم وكثير من المعارف عن المحيط الخارجي وما يدور في نفوسهم من أفكار وخواطر . وان دراستنا لتراثنا العربي الاصيل يلزم ان يكون دوما مقترنا بدراسة المعري ايضا .

لا ندري هل تصدى أحد الى دراسة الادباء المختلفين الذين تصدى لهم المعري بالتنويه والنقد وهنا أمامنا فراغ كبير يجب علينا املاءه :

اذا وصف الشاعر الالماني غوته الشاعر الفارسي الشهير حافظ الشيرازي بهذا الشعر :

« ان لا يكون لك ابتداء فتلك هي عظمتك •

وان لا يكون لك انتهاء فذلك حظك ،

فان اغنيتك تدور كقبة النجوم ،

فبدايتها نهاية ، ونهايتها بداية •

وما هو في الوسط هو في الواقع ،

ما صار في النهاية وكان في البداية » •

ينطبق أيضا على المعري ، فالتطور الذي ذكرناه لا يمكننا ان نضع تخطيطه بصورة رياضية منتظمة ، بل هو أشبه بالاعضاء الحية في عالم الحيوان والنبات الذي يدرك فيها الانسان الشكل ولكنه يجده شكلا حرا من الصعب جدا ان يضع حدوده وحافاته ، ويمكننا ان نسميه بلا حدود ولا تقييد • وتتضح لنا هذه الفعالية العضوية بتحويل المربي الكبير ساطع الحصري المثل السائر : « التعلم في الصغر كالنقش على الحجر » ، بقوله : « التعلم في الصغر كالنقش على الشجر • » فالحجر هو رمز الجمود والشجر يتابع حيويته وانفعاله الحياتية • أما فنه وتصويره الادبي، فقد بحثه كثير من مؤرخي الادباء ولذلك ضربنا عنه صفحا ان فيه تشبيهات وصور ممتعة ، كأن القائل ليس بأعمى بل بصير وخاصة ذلك التضاد في الالوان بين الزرقة والحمرة •

اذا تمكنا من مقارنة المعري ببعض المفكرين امثال « كانت » وبوذا فنجد أن له مع الاول اتفاق آراء ، وتدبر مع الثاني باستبعاد « كانت » ان يعرف شيئا عن المعري وانما هي كما بينا توارد خواطر فقط ، اما عن البوذية فقد درس المعري البوذية وغيرها من المذاهب ، وتأثر بكل ما درس تأثرا عميقا • ولكنه ما كان بوذيا ولا براهميا ولا فيلسوفا يونانيا ولا مجوسيا ، بل كان حكيما عربيا ، يبغي فهم العالم أجمع • صهر في بوتقة عقله ما عرفه من الافكار في عهده وما درسه في كعبة العلم قبل ألف سنة في بغداد دار السلام • ولمعرفة مصادر افكاره

نحتاج الى عمليات فكرية قوية ، كما يحتاج الكيميائي من استعمال كواشف مختلفة لمعرفة المعادن التي تتشكل منها خليطة ما • واعتقد اني بما بينته في هذه الرسالة أكون قد أنرت بعض نقاط غامضة في حيات وتفكير المعري واشرت الى الفراغات العديدة التي يجب ان تسد •

في حكمة المعري المنتشرة في نثره وشعره أفكار عديدة تتفق مع كثيرين من الحكماء ، ومع ذلك فله حكمته الحرة غير المقيدة ، تبين لنا لدى مقارنتها بغيرها بأنها تتوخى الاعتدال والاتزان ، وان اخفق في كثير من الاحيان وكان نصيبه الغلو شأن جميع ثوار الفكر في العالم •

من جهة واحدة فاننا نرى المعري في بعض الاحيان عقليا محضا وفي الاوقات الاخرى عاطفيا محضا • وان عجبنا لهذا الامر ، فليس ذلك اعجب من هذه الطبيعة الفياضة التي حوت المتناقضات ، من حياة الى موت ، ومن انخفاض الى ارتفاع ، من نور الى ظلمة ، ومن حركة الى سكون ، ومن هدوء الى زلزال ، من عدم الى وجود ، ومن سلب الى ايجاب •

فالمعري ابن الطبيعة البار ، جرى في رأسه دماغ المفكر الرزين الهادىء الذي لا يعرف ثورة ولا اضطرابا ، لا هوى ولا هيجانا ، لا جحيما ولا نعيما • وبين حنايا ضلوعه قلب الصوفي المتبتل الذي يلجأ الى الله ، ذلك المبدع الازلي الذي يجيب المضطر اذا دعاه • في هذا الشعور الفياض والعاطفة المتأججة يقر بسلطان القلب ، بعد ان اقر بسلطان العقل ، فالكون مملوء بالعجائب ، ولعل اعجب ما في الكون ، هذا الانسان الضعيف بجسمه والجبار بعقله وجنانه •

انا حسبنا حسابا لم يصح لنا ۞ قد بان في كله التفريط والغلط

اني اذ اقذف لغز ابي العلاء الى الطبع اشعر بالافكار لا تزال تتواردني بلا انقطاع (١) وما اشبه هذه الرسالة بقطرات من السيل المتدفق الذي لا يعرف

---

(١) اطلعنا على الجزء الاول لكتاب سليم الجندي ، الجامع في اخبار ابي العلاء المعري وآثاره ، نشره المجمع العلمي العربي في دمشق ١٩٦٠ ، والحق يقال انه موسوعة عن هذا الحكيم ، اذ فيه من المصادر الشيء الكثير والتي هي جديرة بفتح آفاق لدراسات متعددة حوله . وفي الكتاب المذكور نفي للشك وحيرته وعدم الثبات على نحله وكذلك نفي التشيع والاعتزال والجبر والبرهمية والمزدكية والدرزية والقرمطية والتقية (ج ١ ، ص ٣٩٤ ــ ٤١٢) .

التحديد ، وان اي مقدار من هذا السيل العارم ، مهما كان عظيما لا يكون الا جزءا يسيرا من ذلك المجرى الذي لا يعرف السكون والوقوف . والقصة الرائعة ، مهما شعرنا بانها انتهت ، فهي لم تنته بعد ، والكاتب مضطر لوضع نهاية لها ، فهي اشبه بالسمفونية الناقصة او بقطعة من وسط الحياة الجارية اللا متناهية نقطعها قسرا لابرازها للناس ، وتفضل ان لا نقطعها سيرا وراء اللا نهاية التي تدعنا نجد السير ، فنقترب ونقترب ، ولكننا لا نصل ، وكلما لاح لنا افق جديد وظننا انفسنا انه يمكننا الوصول الى ذلك الافق ، تراءى لنا افق آخر . وهكذا فالمعري مثل قطعة الطبيعة الحية التي لا يمكن نزعها ووضعها في اطار . ويعبر لنا نيتشه هذا التعبير في نقده للرسام الواقعي :

وهذا هو ترجمة ذلك الى العربية :

« امين للطبيعة تماما ! ـ كيف يبتدىء في فنه ؟ .

ومتى كان في الامكان قيد الطبيعة في صورة ؟ ..

ان اصغر قطعة في الطبيعة غير متناهية في اتساعها ،

يرسم منها الرسام اخيرا ما يعجبه ،

وماذا يعجبه ؟ ما هو قادر على رسمه .. »

فعلى ذلك فاني ابرزت من المعري هنا ما اعجبني وما انا قادر على فهمه ووعيه . وهذه هي طاقتي ومعذرتي « والعذر عند كرام الناس مقبول » .

☆☆☆

المصادر العربية والأعجمية

١ « العربية :

١ ـ سقط الزند ، بيروت (دار صادر) ١٩٥٧ .

٢ ـ لزوم ما لا يلزم ، القاهرة ١٣٣٣ هـ . ادار صادر ، دار بيروت ١٩٦١)

٣ ـ رسالة الغفران (هندية) ، القاهرة ١٩٠٣

٤ ـ الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ لامام الحكماء ابي العلاء بن عبد الله بن سليمان المعري ، ضبطه وفسر غريبه ونشره محمود حسن زناتي ، ج١ ، القاهرة ١٩٣٨ .

٥ ـ رسالة الملائكة ، نشر سليم الجندي . دمشق ١٩٤٤ .

٦ ـ رسائل المعري ، نشر مرجليوث (مع الترجمة الانكليزية) اكسفورد ١٨٩٨ .

٧ ـ رسالة الهناء ، نشر كامل كيلاني ، القاهرة ١٩٤٢ .

٨ ـ بين ابي العلاء وداعي الدعاة الفاطمي (خمس رسائل) ، نشر محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .

٩ ـ ياقوت ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، القاهرة ١٩٢٣ ، ج١ ، ص ١٧٥ وما بعدها . (نشر مرجليوث)

١٠ ـ ابن العديم ، كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن ابي العلاء المعري ، من كتاب اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء (نشر الشيخ راغب الطباخ) حلب ١٣٤٣ هـ . ١٩٢٥ ، ج٣ ص ٧٨ ومابعدها .

١١ ـ زاد المسافرين ، ناصر خسرو ، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ .

١٢ ـ ابو العلاء وما اليه ، عبد العزيز الميمني الراجكوتي الاثري الهندي ، القاهرة ١٣٤٢ .

١٣ ـ طه حسين ، تجديد ذكرى ابي العلاء ، القاهرة ١٩٣٧ .

١٤ ـ طه حسين ، مع أبي العلاء في سجنه ، القاهرة ١٩٣٩ .

١٥ ـ طه حسين ، صوت ابي العلاء في سجنه ، القاهرة ١٩٤٤ .

١٦ ـ فخري البارودي ، المعري والموسيقى ، المهرجان الالفي لأبي العلاء المعري ، دمشق ١٩٤٥ ص ٣٩٨ .

١٧ ـ أحمد امين . سلطان العقل عند أبي العلاء ، المصدر المتقدم ص ٤٨ وما بعدها .

١٨ ـ فيليب حتي ، مخطوطات ابي العلاء في مكتبة جامعة برنستون ، المصدر المتقدم ٣٨٢ وما بعدها .

١٩ ـ زكي المحاسني ، ابو العلاء ناقد المجتمع ، دمشق ١٩٤٧ .

٢٠ ـ عدد الاديب الخاص بالمعري ، بيروت ، حزيران ١٩٤٤ (فصل من الايك والغصون) .

٢١ ـ سليم الجندي ، الجامع في اخبار ابي العلاء وآثاره ، دمشق ١٩٦٢ .
٢٢ ـ شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، القاهرة ١٩٦٠ .
٢٣ ـ اسماعيل مظهر ، معتقد ابي العلاء ، تاريخ الفكر العربي القاهرة ١٩٢٨ .
٢٤ ـ الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مكتب النشر العربي ، دمشق ١٩٣٤ .
٢٥ ـ دي بور ، ترجمة ابو ريدة ، فلاسفة الاسلام ، القاهرة ١٩٣٨ .
٢٦ ـ فرمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة نصار ـ اهوافي ، القاهرة ١٩٥٦ .
٢٧ ـ الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني ، نشر كرنكو ، حيدر آباد ـ دكن ١٣٥ هـ .
٢٨ ـ مجدي العقيلي ، الكندي ، الفيلسوف الموسيقار ، دمشق ١٩٦٤ .
٢٩ ـ ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقاء الاطباء ، القاهرة ١٨٧٢ .
٣٠ ـ احمد عيسى ، معجم الاطباء (ذيل عيون الانباء) ، القاهرة ١٩٤٢ .
٣١ ـ وفيات الاعيان لابن خلكان ، بولاق ١٢٧٥ .
٣٢ ـ ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، لايبزيغ ١٩٠٣ .
٣٣ ـ زكي مبارك ، التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ، القاهرة ١٩٤٢ .
٣٤ ـ عبد اللطيف الطيباوي ، التصوف الاسلامي العربي ، القاهرة ي١٩٢ .
٣٥ ـ اصل الانواع ، لداروين ، ترجمة اسماعيل مظهر ، القاهرة ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ ج ١ ـ ٢ .
٣٦ ـ الجاحظ ، كتاب الحيوان ، القاهرة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ .
٣٧ ـ الجاحظ ، البيان والتبيين ، القاهرة ، ١٩٣٢ (نشر السندوسي) .
٣٨ ـ كتاب النبات ، تأليف ابي حنيفة الدينوري (نشر ب. لوين) ، لا يدن ١٩٥٣
٣٩ ـ تراث الاسلام (ج ١ ـ ٢) القاهرة ١٩٣٦ (بحث الموسيقى غير مترجم) . انظر المصادر الاعجمية .
٤٠ : العالمان ، مجلة ، عدد المعري الخاص ، دمشق ١٩٤٤ .
٤١ ـ مختار رسائل جابر بن حيان ، نشر كراوس ، القاهرة ١٩٣٥ .
٤٢ ـ ديوان ابن الفارض ، نشر محمود توفيق ، القاهرة ١٢٩٢ هـ .
٤٣ ـ كتاب التوهم ، نشر اربري ، القاهرة ١٩٣٧ .
٤٤ ـ محمد يحيى الهاشمي ، اقوال بوذا ، مجلة الثقافة الهندية ، دلهي الجديدة ابريل ١٩٦٢ .
٤٥ ـ محمد يحيى الهاشمي ، دور جندي شابور في الثقافة العربية ، الدراسات الادبية ، بيروت ١٩٦٠ .
٤٦ ـ محمد يحيى الهاشمي العلوم الطبيعية عند اخوان الصفاء ، مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، تشرين الاول ١٩٣٢ .
٤٧ ـ محمد يحيى الهاشمي ابن سينا كرائد لرباعيات الخيام .
محمد يحيى الهاشمي الدراسات الادبية ، بيروت ١٩٦٤ .
محمد يحيى الهاشمي بين بوذا وابي العلاء ، ثقافة الهند ، دلهي الجديدة ، اكتوبر ١٩٦٢ .

المصادر الاعجمية

1) C. Brockelmann, Geschichte der arabischen Literatur, Leiden 1943, I. S. 295 ff. Supplement, I. 1937, S. 449 ff.

2) Henri Laoust, La vie et la Philosophie d'Abou'l 'Ala' al-Ma'arri, Bulletin d'Etudes Oriental, Tom X. 1943-44.

3) The Lettres of Abou'l - 'Ala', by D. S. Margolioth, Oxford 1898.

4) M. Y. Haschmi, al Ma'arri, der grosse arabische Vegetarier, Mensch - und Tierfreund, Sontra, West-Deutschland, April 1955.

5) Immanuell Kant, Die Religion innerhalb der Grenze der blossen Vernunft, Königsberg 1793.

6) I. Kant, Kritik der praktischen Vernunft, Leipzig 1926.

7) Edwin Arnold, Die Leuchte Asiens, Uebers. Von Konrad Wernick, Halle 1891.

8) Maurice Percheron, Budha and Budhism, New York, 1954.

9) Rene Descart, Betrachtung über die Grundlage der Philosophie (Meditation), Leipzig.

10) M. Y. Haschmi, Zur Geschichte des Kampfers, Die pharmazeutische Industrie, Aulendorf. Württ. 1964-26, 209-212.

11) Schwelgler, Geschichte der Philosophie, Leipzig.

12) A. Siggl, Arab.-Deutches Wörterbuch, Deutsche Akademie der Wissenschaften zu Berlin, 1950.

13) M. Y. Haschmi, Ion exchange in arabic Alchemy, X. International Congress for History of Sciences, Ithaca-Philadephia, 1962.

14) M. Y. Haschmi, Enträtselung der Alchemie, Chemiker Zeitung, 5. 8. 1966, Heidelberg.

15) S. Radhakrishnan, Indian Philosophy, Deutsche Uebers. von R. Jockel, Darmstadt-Baden-Baden, Genf. 1956.

16) The Lagacy of Islam. Music, H. G. Farmer, Editor Sir Thomas Arnold and Guillaum, Oxford 1931, p. 356-376.

17) Sigrid Hunke, Allahs Sonne über den Abendland, Stuttgart.

18) C. G. Jung, Psychologie und Alchemie, Zürich 1952.

19) The medical Formulary or Aqrabadhin of al-Kindi, trans.with a short study of its materia medica, by M. Levey, Madison, Milwaukee and London, 1966.

الفهرســـــت

الموضوع	الصحيفة
الباعث على هذه الدراسة	٧٥٤
التطور الفكري لابي العلاء	٧٥٨
بين المعري و « كانت »	٧٧٦
ابو العلاء المفكر الحر	٧٩١
هل كان ابو العلاء ابيقوريا	٨٠٩
بين بوذا وابي العلاء	٨١٢
النزعة الصوفية عند ابي العلاء	٨٢٩
مكانة موسيقى المعري	٨٤٨
المعارف الطبيعية عند ابي العلاء	٨٥٢
عبقرية ابي العلاء	٨٨٥
رسالة المعري الى الجيل الحاضر	٨٩٣
المعـــري والـنـزة ؟	٨٩٨
الخاتمـــة	٩٠٣
المصادر (العربية والاعجمية)	٩٠٩